

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

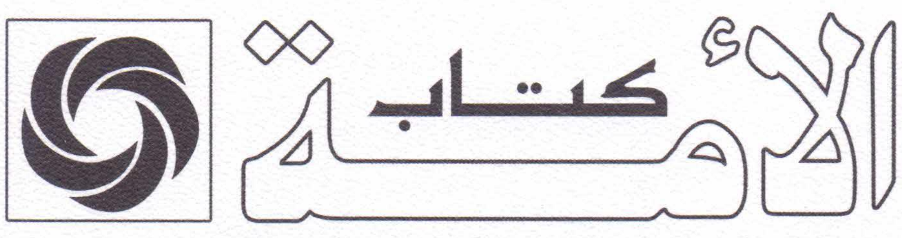
العدد: ١٥٤ ربيع الأول ١٤٣٤هـ السنة الثالثة والثلاثون

نَحو قِراءَةٍ نصيّةٍ في بَلاغَةِ القُرآن والحَديثِ

أ.د. عبد الرحمن بو درع

عبد الرحمن بو درع

* من مواليد المملكة المغربية.
* يحمل درجة دكتوراه الدولة في اللسانيات والعلوم العربية، من جامعة محمد الخامس، في الرباط.
* أستاذ التعليم العالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي.
* رئيس مسلك (ماستر) التعليم العالي في تخصص: لسانيات النص وتحليل الخطاب.
* عضو في مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية.
* شارك في عدة ندوات وطنية ودولية.
* له عدد من الكتب والمؤلفات، منها:
  - اللغة وبناء الذات (تأليف جماعي).
  - جوامع الكلم في البيان النبوي.
  - الأسس المعرفية للغويات العربية.
  - الخطاب القرآني ومناهج التأويل.



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية- قطر

ص.ب: ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأه مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يفتح نوافذ، ويقدم إضاءات حول إعجاز القرآن، ويعرض للوسائل والأدوات والأمثلة، التي تمكّن من تلمس هذا الإعجاز وتذوقه، بطريقة تعليمية متميزة.. والكتاب يشكل مائدة فكرية، فيها الفقه والنحو والصرف والحديث والتفسير والبلاغة.. ولئن كان البحث يتطلب مستوى معيناً من الكسب العلمي والمعرفي إلا أنه كتاب معلّم يمنح القارئ ما يمكّنه من استيعاب نصوص الوحي، وتذوق إعجازها؛ ذلك أن هذا الجيل بعد أن ضعف كسبه اللغوي أصبح بأمسّ الحاجة لما يجسر له العودة إلى القرآن وتلمس إعجازه.

ولعل الباحث انطبع في بحثه بمهنته، فضبط النص بالشكل، وهذه ميزة بدأت تختفي من إنتاجنا العلمي والثقافي، كما أنه أكد على بعض أسرار العربية، وقدرتها على استيعاب حركة الحياة، الأمر الذي أهّلها لتكون وعاء الوحي، فـ: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾.

وجملة القول: إن القرآن خالدٌ على الزمن، فالإعجاز ممتد؛ والتحدي مستمر، فهو تحدٍ لكل جيل وفي كل زمان، لذلك تبقى مجالات الإعجاز وأبعاده في القرآن ملفات مطروحة لمزيد من النظر، والارتقاء باستيعابه من خلال أدوات ومعطيات كل عصر.

ولعل المعادلة الصعبة المطروحة: الإجابة عن كيفية إعادة الصلة بالقرآن وتذوق إعجازه ليقوم بدوره المهيمن على حركة العقل وأنشطة الحياة، واختبار وسائل صلتنا بالقرآن، وإدانتها طالما أنها لم تتحقق بالنتائج المرجوة، فإذا لم يتحقق الارتقاء فلابد من تصويب أبجدية القراءة، وإعادة المراجعة لأبعاد قول الرسول ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»، ذلك أن التعلم والتعليم لا يعني الحفظ فقط، فإن الحفظ هو أولى وظائف العقل، والصغير المميز أقدر عليه من الكبير الراشد؛ والتدبر والادكار أعلى مراتب الرشد العقلي ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

موقعنا على الإنترنت: www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www. Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E. Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

نَحو قِراءَةٍ نصيّةٍ في
بَلاغَةِ القُرآن والحَديثِ

أ.د. عبد الرحمن بودرع

الطبعة الأولى

ربيع الأول ١٤٣٤هـ

كانون ثاني (يناير) – شباط (فبراير) ٢٠١٣م

عبد الرحمن بودرع

نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٣م.

١٩٦ص، ٢٠سم – (كتاب الأمة، ١٥٤)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٧ / ٢٠١٣

الرقم الدولي (ردمك): ٤-٣٣-٩٢-٩٩٩٢١-٩٧٨

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول تعالى:

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

(الشعراء: ١٩٣-١٩٥)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي اصطفى الأمة المسلمة لوراثة النبوة والكتاب، وجعلها محل الوحي الخاتم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (فاطر:٣٢)، وتعهد لها بحفظ خطاب الوحي الإلهي من التحريف والتأويل، ليأتي التكليف صحيحاً، وبذلك جنبها علل وإصابات التدين، التي لحقت بالأمم السابقة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة:١٧)، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة:١٩)، فكان عهد الله بحفظ النص وحفظ بيانه وامتلاك الأمة المسلمة النص السماوي السليم، الذي انتهى إليه وحي الله، وتوفر الإمكانات الحضارية التي يتضمنها يجعل الأمة المسلمة، إن كانت في مستوى إسلامها وعصرها، أن تضطلع بمهمة القيادة الحضارية الإنسانية والشهادة على الناس وإلحاق الرحمة بهم، مصداقاً

لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ (آل عمران:١١٠)، وتقيم في الأرض موازين العدل، وتربي الناس على مسالك الاعتدال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ (البقرة:١٤٣).

وقد يكون من المهم جداً أن نسارع إلى البيان أن المقصود بالأمة هنا هي أمة الفكرة، أمة الإيمان، أمة التوحيد، هي كل من آمن بهذا الوحي وهذه الرسالة، مهما كان جنسه أو عرقه أو لونه، فهي مجتمع مفتوح لاختيار كل إنسان، وليست أمة التجمعات القسرية من الأقوام والأجناس والألوان، لذلك فهي بطبيعتها وامتلاكها الحرية في اختيار إيمانها وأصل تشكّلها بريئة من العنصرية والتمييز والتعصب والانغلاق.

فهي بهذا الاعتبار وهذا التكوين نسيج وحدها، وهي بذلك مختلفة عن عوامل تشكيل الأمم التي يحكمها اللون والقوم واللغة والجغرافيا... إلخ.

لذلك فهي بطبيعة تكوينها وعوامل إخراجها إنسانية مؤهلة للشهادة على الناس وقيادتهم إلى الخير وإلحاق الرحمة بهم، كيف لا يكون ذلك وهي محصلة النبوات وجماع الوحي الإلهي لتاريخ البشرية.

ولا شك أن العامل الأهم في الأمر، أو التميز الأهم لهذه الأمة أنها أمة الفكرة، أمة تشكلت من خلال كتاب (القرآن) الذي شكل محور حياتها،

واحتوى على القيم الضابطة لمسيرتها وخارطة الطريق لحياتها والبوصلة المحددة لوجهتها، وكتاب يتسم دون سواه بهذه الخصائص (إمكان تشكيل أمة الحضارة الإنسانية) من الطبيعي أن يكون معجزة الوحي الخاتم، وأن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأن يكون إعجازه في إحكام آياته وبيانها وتفصيلها، يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)، لذلك تمحورت حياة الأمة تاريخياً حول هذا الكتاب وعطائه الدائم -المأمون من الباطل- للماضي والحاضر والمستقبل، دون أن تلحقه إصابة واحدة، على الرغم من تقدم العلوم والمعارف وتلاقي الأمم والحضارات، فهو الوحي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والصلاة والسلام على إمام البيان، المبيِّن عن ربه ما نزل إليه، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)، الذي اجتمعت في شخصه خصائص وصفات الأنبياء جميعاً، كما اجتمعت في رسالته الخاتمة أصول الرسالات السماوية كافة، وانتهت إلى معجزته واكتملت بها معجزات الأنبياء، التي تدرجت من المعجزات الحسية المادية المجسدة تحقيقاً لسهولة إدراكها وإمكانية استيعابها من قبل الناس، في مراحل الطفولة البشرية، إلى المعجزة الفكرية العقلية البيانية المعنوية المجردة عند بلوغ البشرية مرحلة الرشد والاكتمال في النبوة الخاتمة، فكان القرآن، الذي تحدى البشر أن يأتوا بمثله، هو معجزة نبي الإسلام.

لقد نيطت بالنبي ﷺ مسؤولية الشهادة على الناس وقيادتهم إلى الخير وإلحاق الرحمة بهم: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ (الحج:٧٨)، الذي أعده الله ليكون محل المهمة العالمية الإنسانية الثقيلة، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:٥)، وأوتي جوامع الكلم في أهل الفصاحة والبلاغة والبيان و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ (الأنعام:١٢٤)، فجاء ﷺ خياراً من خيار من خيار.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الرابع والخمسون بعد المائة: «نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث»، للأستاذ الدكتور عبد الرحمن بودرع، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في محاولتها الاجتهاد للإجابة عن سؤال النهضة، والبحث عن مواطن الخلل، والتعرف على واقع الأمة بكل مكوناته وجوانبه، واكتشاف إصاباته، ومعرفة أسبابها، ودراسة علل وإصابات التدين التي تسللت إلى الأمة المسلمة، ودراسة حركات التجديد والإصلاح، وتقويم مسيرتها، وبيان الأسباب المعمقة لعدم بلوغها أهدافها، لأخذ العبرة وتجنب العثار وتحقيق التقوى (الوقاية الحضارية) في سعي دائب لإعادة بناء (الذات)، وتعريفها برسالتها، والتأكيد على أهمية إعادة النظر في

الوسائل وأدوات التوصيل في تعاملها مع قيمها في القرآن والسنة من خلال واقع الناس البائس، وبيان أسباب العطب في هذه الوسائل وعجزها عن تحقيق العطاء المأمول، والدعوة إلى الاجتهاد الفكري، واستشعار مسؤولية التجديد، وبيان الأبعاد الغائبة للفروض الكفائية، وتحديد مفاهيمها، وبيان علاقتها بتوفير التخصصات المطلوبة لتحقيق الاكتفاء الذاتي، وتقسيم العمل، ودورها في بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، وحدود تطبيق الشريعة، ومداه، وعلاقة التكليف بالاستطاعة، وارتباطه بأقدار الاستطاعة، صعوداً وهبوطاً، وكيف أن التكاليف الشرعية تبدأ مع الناس من حيث هم، وتتحدد بمقدار استطاعتهم، والتأكيد على أهمية التوسع في دراسة الفقه المقارن، وتمرين العقل على النقد والمراجعة والمحاجة، وأن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد، لتتحول هذه المقولة إلى فعل يتجسد في حياة الناس، وأهمية التمييز بين قيم الدين في الكتاب والسنة وصور التدين في واقع الحال، وكيف أن النقد إنما يتجه إلى فهم البشر وتنـزيلهم للقيم على حياتهم والذي قد يخطئ وقد يصيب.

والأمر الذي قد يكون من المفيد دائماً حضوره واستدعاؤه إلى ساحة التفكير أن القرآن هو معجزة الإسلام، معجزة الأمة المسلمة الممتدة، وإنه المعجزة الفكرية العقلية البيانية المجردة الخالدة القادرة على العطاء والإنتاج في كل زمان ومكان، والارتقاء بمن يؤمن بها ويتمثلها إلى درجات النهوض والكمال وبناء الحضارة الإنسانية، وهي المعجزة التي جاءت على

خط النهاية في النبوة وتدرج النبوات وتطورها، بحسب أطوار الحياة البشرية، إلى أن جاء القرآن معجزة مجردة، تتناسب مع حالة الرشد واكتمال العقل والكمال، الذي وصلت إليه البشرية، كثمرة لتأهيل النبوات السابقة ومعجزاتها.

ويلمح إعجاز القرآن بما توفر له من وسائل الحفظ والنقل وبما تعهده الله من الحفظ، ولعل هذا من لوازم الخاتمية وتوقف وحي السماء واستحالة أن يُخاطب الناس ويحمّلوا المسؤولية بنصوص منحولة محرفة وقد توقف تتابع الرسل وتوقف التصويب من السماء للتحريف في النص والانحراف بالفهم، وذلك من بعض الوجوه ملمح الإعجاز ودليله.

والقرآن خطاب عام، خطاب أمة، وليس خطاب نخبة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ... ﴾ (الجمعة:٢)، ولقد يسره الله للذكر، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧).

هو خطاب الإنسان في كل زمان ومكان، هو خطاب أمة وليس خطاب نخبة أو فئة أو طبقة أو جنس أو كهنوت، تحتكر فهمه وتتحدث باسم الله وتتصرف بمصائر الناس وبتكاليفهم وتقرير الحل والحرمة أو التحليل والتحريم، كما انتهى حال أهل الكتاب المقدس في تاريخ الأديان إلى طبقة أطلق عليها «حملة الكتاب المقدس»، فهي دون سواها التي تحتكر

فهمه وتفسيره وتمارس على الناس أقداراً من الكهانة وتخلع على نفسها صفات القدسية.

فالقرآن خطاب عام، وكتاب مفتوح لكل البشر، في كل زمان ومكان، وفهمه وتفسيره وتأويله ليس حكراً على طبقة أو جماعة ولو كانت من حملته والمؤمنين به، كما أنه ليس حكراً على زمان ومكان، ولكل إنسان أن يأخذ منه ويفقه آياته وأحكامه حسب مؤهلاته وكسبه العلمي والمعرفي، لذلك فلا يجوز باسم الحيلولة دون التحريف والانتحال إيقاف التلقي القرآني المباشر والتفاعل معه والأخذ منه، ومحاصرته بفهم عصر أو مكان أو شخص أو طائفة وتعطيل خلوده، وإبطال تذوق إعجازه ومحاكاة هذا الإعجاز والترقي به في مدارج النهوض والكمال.

والعلماء العدول والمجددون في كل عصر ومصر هم الذين يردون الأمور في التفسير والتأويل الخارج عن قيم الشرع وقواعد اللغة إلى نصابها، وينفون نوابت السوء، ويتجاوزون بالأمة الإصابات والعلل، ويعودون بها إلى القرآن والبيان النبوي الصحيح؛ لكن خشية التحريف والتأويل والانتحال لا يجوز أن تُتخذ ذريعة لحجب القرآن عن عموم الناس، فالتفاعل والمناقشة والمقارنة والمشاورة والمفاكرة والمناظرة والمجادلة وحتى المماحكة تبلور الحقيقة، وترد الأمر إلى نصابه، وتحول دون جراءة المدّعين القولَ بغير علم، ولنا أن نتصور ما يترتب على هذا الخطاب العام من تفاعل

وتفاكر وتناظر وتجادل وتحاور وما يحقق من كسب لغوي يأتي ثمرة للنص القرآني الخالد.

فإعجاز القرآن لا يحول دون أن يكون خطابه عاماً، وأن يكون لكل تالٍ نصيب من تذوق بعض آفاق الإعجاز، أو أحد وجوهه، ولو حاول كل منا أن يسترجع نصيبه من العطاء القرآني في مراحل عمره المختلفة، من الطفولة إلى الرجولة فالكهولة، ومن الأمية إلى الكسب العلمي العام، إلى مرحلة التخصص، لأدرك أن القرآن المعجز مائدة ممدودة للجميع، ولكلٍ نصيب منها، خاصة وأن الإعجاز ليس بياناً لغوياً فقط وإنما له آفاق لا يحكمها حد ولا عصر ولا حصر، وإن كانت أوضح ما تكون في النظم والبيان، حيث تمحور جهد العلماء حول هذا الأمر، فقد نزل القرآن أول ما نزل لبناء القاعدة البشرية الأولى، التي سوف تشكل خميرة الحضارة الإنسانية، في أهل البيان والفصاحة واللسان، فكان التحدي وكان الإعجاز أوضح ما يكون في هذا المجال.

والأمر الذي أرى أهمية الإشارة إليه وفتح ملفه لمزيد من النظر والدرس والاجتهاد أن مفهوم الإعجاز، وهو من دلائل النبوة وقنطرة الإيمان بالله سبحانه وتعالى والاعتراف بالفرق بين الحق والخلق، بين الله والإنسان، وبناء العبودية لله لا يعني العجز عن الإتيان بمثل القرآن فقط، وهو الأهم في دلالة المعجزة، وإنما يعني أيضاً ضرباً من التحريض والتفكير والحض على الارتقاء والتأهل لإدراك المعجزة بكل أبعادها، ومن ثم التعاطي معها؛ فالإعجاز في

بعض أبعاده ودلائله هو ضرب من التحريض وليس وسيلة للعجز والتعجيز والحجر العقلي، لذلك نجد أن هذا الإعجاز حرض ودفع إلى إبداع الكثير من الأدوات اللغوية والبلاغية والبيانية وقواعد اللغة والصرف...إلخ لتشكل الوسائل والأدوات المساعدة على محاكاة المعجزة وتذوقها وإدراك كامل أبعادها؛ أقول محاكاة المعجزة وليس مضاهاتها ومحاولة الإتيان بمثلها، وبذلك كان هذا الكتاب المعجز محور الحراك الذهني والثقافي والاجتهادي، حيث تضم المكتبة العربية الإسلامية اليوم من الدراسات والبحوث في مجال الإعجاز ووجوهه وأدواته وتطور النظر إليه والتراكم المعرفي حوله ما لم يتحقق لأية كتاب آخر، مقدس أو غير مقدس، ولعل هذا بعض وجوه الإعجاز ومقاصده.

هذا عدا عن الدراسات التي ارتقت باللغة العربية، وعاء هذا القرآن، والعلوم المتعددة التي نشأت لبيان معهود العرب في الخطاب -حيث القرآن نزل بلسان عربي مبين- والقواعد التي وُضعت لحماية اللغة من اللحن، الذي يؤدي إلى التحريف والخروج بالمعنى عما وضع له اللفظ، إضافة إلى كتلة المعاجم، التي تشكل مخازن اللغة بألفاظها ودلالاتها، وتشكل الحصون والقلاع التي تحيط النص القرآني للعون على فهمه والحيلولة دون تحريف دلالاته.

ولعل من بعض ملامح الإعجاز، الذي حرّض على هذا الإنتاج، الذي لم يحظ به أي كتاب آخر في تاريخ البشرية، أن معظم الذين اهتموا

بالموضوع وألّفوا فيه الكتب والمعاجم ونبغوا فيه واشتهروا هم من غير العرب، وقد يُفسر ذلك بحاجتهم إلى ما كان يدركه العرب بسليقتهم، وبذلك يمكن القول: إن القرآن عرّب لسان العالم، وساهم بانتشار العربية (والعروبة اللسان) وجاءت المساهمات اللغوية والعلمية والفقهية والثقافية إنسانية من كل الأجناس والأقوام، إلى درجة يصعب معها تلوينها بلون جنس أو قوم أو جغرافيا، إذا تجاوزنا العربية لغة التنزيل والتي لم تعد تخص العرب وحدهم، فكان القرآن الأساس في تطور وتطوير اللغة ونشرها وبيان شرفها وقدراتها على استيعاب الحضارة الإنسانية ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤).

وإذا كان الإعجاز في النظم والبلاغة والبيان شكّل محرضاً ارتقى بواقع الدراسات اللغوية وتنوعها ووسع دائرتها وجغرافيتها -كما أسلفنا- وبلغ فيها ما أصبح معلوماً للجميع، فأين آفاق الإعجاز الأخرى التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ (الإسراء:٨٨)؟

أين آفاق الإعجاز المحرضة للعقل المسلم لبلوغ ما يوازي أو يحاكي المعجزة في المجالات العلمية والتربوية والأخلاقية والفلسفية والاقتصادية والاجتماعية؟

فلم يعد مقبولاً الحديث عن الإعجاز العلمي للتفاخر ومعالجة مركب النقص ونحن أشد الناس تخلفاً، من الناحية العلمية، ويطاردنا السؤال: أين أنتم من الاكتشافات العلمية إذا كنتم تمتلكون هذا الإعجاز؟ وكذلك الحال في جميع آفاق الإعجاز، إذا اعتبرنا أن ساحة الإعجاز ومجاله أبعد من الإعجاز البياني وعلاقته بالنظم المتميز!!

ولعلنا نقول: إن انصراف كامل الجهود إلى التمحور حول الإعجاز البياني والبحث في أدواته وعلومه -إن صح التعبير- ومحاولة محاكاة المعجزة البيانية بكل متطلباتها اللغوية والبلاغية والمعجمية والضوابط النحوية والصرفية إنما جاء ثمرة للبعد الإعجازي، الذي تعامل معه الجيل الأول، وكان التحدي لأهل الفصاحة والبيان، الذين شكلوا خميرة المجتمع المسلم وقاعدته الأولى، وأدركوا واستوعبوا مسألة الإعجاز وارتقوا في محاكاة المعجزة.

لكن ذلك الإدراك والاستيعاب لمسألة الإعجاز في مرحلة التأسيس والانطلاق وبناء نواة النهوض وحمل قيم الوحي إلى العالم لا يمنع من بلوغ آفاق إعجازية أخرى تُدرك من خلال الزمن وتطور العلوم والمعارف ونمو التخصصات في المجالات المعرفية والعلمية المختلفة، ذلك أن قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨)، لا ينحصر في أفق أو بُعد واحد من أبعاد المقارنة والمماثلة والإعجاز.

لذلك نقول: إن التحدي بالعجز عن مماثلة القرآن لا يقتصر على جانب واحد هو الجانب البلاغي، الذي يتصل بالمبنى والنظم، وإنما يتجاوز إلى الآفاق السياسية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية؛ وكل ما عرض له القرآن تحدى بالعجز عن الإتيان بمثله في كل ما جاء به.

وحيث إن القرآن خالد وخطاب عام لكل إنسان، مهما كانت معارفه ومكاسبه، في كل زمان ومكان، وإنه معجز حتى قيام الساعة وليس للجيل الأول فقط، فإن اكتشاف الجوانب الإعجازية وامتلاك متطلبات اكتشاف ذلك من خلال الأدوات والوسائل المتطورة هو البعد الذي ما يزال غائباً في إمكانية تذوق الإعجاز وإدراك عطائه المتجدد، كلٌ من خلال مكتسباته المعرفية، ومحاولة محاكاته، تلك المحاكاة التي تسهم في الارتقاء بالقرآن في شتى المجالات، فالقرآن منجم الإعجاز والعطاء، الذي لا ينفد، يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف:١٠٩)، ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود:١٠٨)، فأين الاجتهادات والجهود التي تحقق لكل جيل بلوغ الآفاق المتجددة؟ وأين له الوسائل المبتكرة التي تمكنه من تذوق الإعجاز وتجديد الصلة بالقرآن وعدم الاقتصار على الانحياز والانتصار العاطفي؟!

ولعل من بعض ملامح الإعجاز والخلود أيضاً، أن القرآن أكد على القيم والموازين الضابطة للمسيرة والمبادئ العامة، التي تشكل

تحديد الوجهة وسبل الهداية، وتقويم الفعل، وتَرَك وضع البرامج وتنـــزيل هذه القيم على واقع الناس بحسب اســتطاعتهم وأقـــدار تدينـــهم للعقـــل والاجتهاد، في كل زمان ومكـــان، فكـــان بـــذلك محققـــاً الاســتجابة للمستجدات، ومستوعباً لرحلة البشرية في كل عصورها وأمصارها؛ وبذلك يستمر التحدي عن المماثلة في تحريك العقـــل للاضطلاع بوظيفتـــه، وفي تجميع الطاقة، واسترداد الفاعلية، وتجديد العزيمة، فيستمر عطاء الأمة، وتمتد بحضارتها من موقع العطاء، الأمر الذي يمكّنها من الاضطلاع بشهادة العدل على الناس وقيادتهم إلى الخير.

وبعد:

فهذا الكتاب يفتح نوافذ، ويقدم إضاءات حول إعجاز القرآن البياني، ويعرض للوسائل والأدوات والأمثلة، التي تمكّن من تلمس هـــذا الإعجـــاز وتذوقه، بطريقة تعليمية متميزة وموفقة، فهو كتاب معلّم بحق، قدّم دروساً متكاملة في الإعجاز، وشرح وعرف وسائل إدراك إعجاز الـــنص القـــرآني والبيان النبوي، وجاء بالأمثلة التطبيقية، فهو كتاب معلّم عـــرض للقاعـــدة وشرْحِها وتطبيقاتها والتدريب والتحليل واعتمـــاد المراجـــع والتوثيقـــات، واستشهد لبحثه ودراسته بالجهود العلمية السابقة وأعلامها.

ولعل الباحث انطبع في بحثه بمهنته الأكاديمية، فضبط النص بالـــشكل، وهذه ميزة بدأت تختفي من إنتاجنا العلمي والثقافي، على أهميتها وفائدتها في

ضبط اللفظ وتحديد المعنى، كما أنه أكد بشكل مباشر وغير مباشر على بعض أسرار العربية، لغة الوحي، وما تمتاز به من مرونة وخصوبة وخلود وقدرة على استيعاب حركة الحياة والتعبير عنها إلى يوم القيامة، الأمر الذي أهّلها لتكون وعاء الوحي وأداته التعبيرية وأمكنها من القدرة على توصيل المعاني بكل دقائقها وأسرارها وبلاغتها وإعجازها إلى المتلقي، ولعل هذه الإمكانات والمواصفات كانت السبب وراء اختيارها لتكون لغة الخطاب الإلهي الخالد الخاتم فـ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:١٢٤).

والكتاب في الحقيقة يشكل مائدة فكرية وعلمية متعددة ومتنوعة، نجد فيها الفقه والنحو والصرف والحديث والتفسير والبلاغة بكل شعبها، من الكنايات والاستعارات والبديع والبيان والحقيقة والمجاز.

ولئن كان البحث يتطلب مستوى معيناً من الكسب العلمي والمعرفي لاستيعاب طروحاته إلا أنه كتاب معلّم -كما أسلفنا- يتعلم منه القارئ، مهما كان كسبه العلمي، ما يمكّنه من استيعاب نصوص الوحي من القرآن والبيان النبوي، وتذوق إعجازها، والانتصار لها عن علمٍ ومعرفة ودراية وليس عن انحياز عاطفي ورؤية قاصرة؛ وأعتقد أن هذا الجيل بعد أن ضعف كسبه اللغوي أصبح بأمسّ الحاجة إلى مؤلفات ومعطيات ووسائل وبحوث تجسر له العودة إلى القرآن وتلمس إعجازه.

وجملة القول:

إن القرآن خالدٌ على الزمن وللزمن، فالإعجاز ممتد، وبحر عطاءٍ لا ينضب ماؤه، خاصة وأنه تحدى الإنس والجن الإتيان بمثله؛ فالتحدي مستمر وخالد باستمرار الحياة، فهو تحدٍ لكل جيل وفي كل زمان، وليس للجيل الأول فقط، لذلك تبقى مجالات الإعجاز وأبعاده في القرآن ملفات مطروحة لمزيد من النظر والبحث والاكتشاف لتذوق الإعجاز، ومحاولة محاكاته، والارتقاء به من خلال أدوات ومعطيات كل عصر.

ولعل هذا أحد الجوانب الغائبة لتجديد الصلة بالقرآن، والتحقق بفقه التلقي، وإعادة فحص واختبار وسائل التلقي، وما لحق بها من خلل وعطب حال دون تأديتها وظيفتها، وربط الإنسان بالقرآن، وتمكينه من الآليات الصحيحة للتعامل معه وتذوق إعجازه في مختلف المجالات، في محاولة للتعامل مع القرآن من خلال واقع الأمة، والتعامل مع الواقع من خلال قيم القرآن الكريم، ولعل المعادلة الصعبة المطروحة على المفكرين والعلماء والفقهاء والمثقفين والمربين: الإجابة عن كيفية إعادة الصلة بالقرآن وتذوق إعجازه ليقوم بدوره المعجز والمهيمن على حركة العقل وأنشطة الحياة.

من هنا نقول: لا مناص لنا من معاودة اختبار وسائل صلتنا بالقرآن، ومناهج تعليمنا للقرآن، ومؤسسات حفظنا للقرآن، وإدانتها طالما

أنها لم تتحقق بالنتائج المرجوة وتحقق لنا تذوق الإعجاز وتشعرنا بالتحدي، الذي يسهم بالارتقاء: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا» (أخرجه الترمذي، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ)، فإذا لم يتحقق الارتقاء بكل جوانبه فلابد من تصويب أبجدية القراءة، وإعادة المراجعة لأبعاد قول الرسول ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (أخرجه البخاري)، وأن التعلم والتعليم لا يعني بحال من الأحوال الحفظ فقط، ذلك أن الحفظ هو أولى وظائف العقل، والصغير المميز أقدر عليه من الكبير الراشد؛ والفقه والتدبر والادكار هي أعلى مراتب الرشد العقلي ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧).

إن معجزة القرآن، بما ولّدت من التحدي والاستجابة في شتى المجالات، شكّلت أمة، وأنشأت حضارة، وأقامت دولة، وحققت إنتاجاً ثقافياً ومعرفياً، وعندما أصيبت علاقة الأمة بالمعجزة القرآنية والقدرة على تمثلها في حياتها وحركتها تراجعت وتخلفت وانكفأت!!

فكيف السبيل للعودة إلى استشعار التحدي، وتذوق الإعجاز، والتجديد في أدوات تحقيق الاستجابة ومعاودة النهوض؟

والله غالب على أمره.

بَلاغةُ النّصّ في القرآن
مُقارَبَة من زاويةِ علم لغة النّصّ

يَعْرِضُ هذا البحثُ لتطْبيقِ قَواعِدَ ونَظَراتٍ مِنْ لسانياتِ النّصّ وتَحْليل الخِطابِ، عَلى نُصوص القُرآنِ الكَريم من خلالِ رؤيَة عُلماءِ القُرآنِ وبلاغيّيه القُدَماء، وذلكَ لإخْراجِ المَعْرِفَة اللُّغَوِيَّةِ مِنْ إطارِها النَّظَريّ المَسْطورِ في مُصنَّفات النَّحْوِ واللّغَة والبَلاغَة إلى مَيْدانِ التّطبيقِ عَلى نُصوصٍ بَليغَةٍ لَها قيمَةٌ عَمَليّةٌ وقُوَّةٌ إنجازِيّةٌ واقعيّةٌ.

ومن أجلِ ذلكَ فقَد عمدَ البحثُ إلى استنطاقِ أحدَثِ مَناهِجِ اللسانياتِ وهو «لسانياتُ النّصّ وتَحليلُ الخطابِ»، بخصوص ما يُمكنُ أن تُقدّمَه من جَديدٍ في تحليلِ النصّ واستكشافِ بنياته الدّاخليّة والوُقوفِ على بَلاغَة تَماسُكِه وجَمالياتِ انسجامِ عناصرِه، والوُقوفِ على مَعانيه الكلّيّةِ التي لا يَقْوى نحوُ الجُملِ وحدَه على استكشافِها وبيانِها. وذلكَ لما وُصِفَت به هذه المَناهجُ اللّسانيّةُ النّصّيّةُ من اكتشافِ بعضِ خُصوصياتِ النُّصوصِ، فلَم يعُد الاهتمامُ في تحليلِ النّصّ مَحصوراً في البَحثِ في الأصواتِ والمُفْرَداتِ المُعجميّةِ والتّراكيبِ والجُمَلِ، ولكنّه جاوزَ ذلكَ إلى اقْتحامِ مُستوىً أكبرَ هو

البنيةُ العامّةُ للنّصّ، وتكمُنُ أهمّيةُ مَنْهجِ تَحليلِ هذا المُستوى الأكبَرِ، في أنّه يُقدّمُ مَعاييرَ «العلميّة» و«المَوضوعيّة» في الدّراسة؛ لأنّه ينبثقُ من الموضوعِ المَدْروسِ؛ وهذا لا يتوفّرُ إلاّ إذا كانَ المنهَجُ نفسُه نصّياً، أي إذا كانَ المنهجُ من جنسِ الموضوعِ ومن مادّته، وفي ذلكَ نوعٌ من التّفاعُلِ المعرفيّ بين المنهجِ والنّصّ، فالنّصّ يحكُمُ على المنهجِ بالانفتاحِ والحَركيّةِ والاستجابَةِ الموضوعيّةِ لَه. وفي ذلكَ أيضاً إثْباتٌ لسيادةِ النّصّ وهيمَنَتِه على المَنْهَجِ القارئِ وأداةِ القِراءَةِ ومُصطَلحِ الوَصْفِ والتّفسيرِ.

ميزةُ «نحو النّصّ» أو «لسانياتِ النّصّ» أو «علمِ النّصّ»، في أنّه أفادَ من نحو الجُملَة، مَبْنىً ومَعْنىً، ومن الدّراساتِ الأسلوبيّةِ، ومن المناهجِ والمَعارِفِ السّابقَةِ، ولكنّه أضافَ إلى تلك المناهجِ ما يُثبتُ نصّيةَ النّصّ وبَلاغةَ الخطابِ، من غيْرِ أن يقتصرَ على المناهجِ التي كانَت تُجزّئ النّصّ ثُمّ تقفُ عندَ الأجزاءِ فقط، فكُلُّ ما ساعَدَ على تَصوُّرِ النّصّ كياناً لغوياً متعدِّدَ المُستوياتِ، مُكوَّناً من أجزاء مُترابطةٍ، أو أنظمةٍ مُتشابكةٍ، فإنّه يدخلُ في علم النّصّ؛ فإنشاءُ علمٍ للنّصوصِ هو المَنهجُ الأنْسَبُ للخطابِ المَدْروس؛ لأنّه مَنهجٌ يستمدُّ مادّتَه وقَوانينَه ومَفاهيمَه من تشابُكِ الأنظمة. وما ذلكَ إلاّ لأنّ النّصّ نظامٌ واقعيٌّ فَعّالٌ، «على حين نَجدُ الجُمَلَ عناصرَ تَنْتسبُ إلى نِظامٍ افتراضيّ أُنْشئَ لأغراضٍ مَنهجيّة، والجُملةُ كيانٌ «قَواعديّ» خالصٌ يتحدَّدُ على مُستوى النّحوِ فَحَسب، أمّا النّصُّ فحقُّه أن يُعرَّفَ تَبعاً للمَعاييرِ

الكاملة للنّصّية Textuality»[1]، ومنها سِياقُ الموقف أو دَوافــع المَوْقــفِ (Contextual motivation)[2].

وينبَغي للنّصّ «أن يتّصلَ بموقفٍ يَكونُ فيه، تَتَفاعلُ فيه مَجموعةٌ مــن المُرتكَزاتِ والتّوقُّعاتِ والمَعارفِ، وهذه البيئةُ الشّاسعَةُ تُسَمّى سِياقَ المَوْقِــف Context، أمّا التّركيبُ الدّاخليُّ للنّصّ فهو سِياقُ البنيَة Co-text.

ولكنَّ صلةَ علم لُغة النّصّ بالدّراساتِ اللّسانيّة الحَديثَة لا يَعْني أنّه وُلدَ في كَنفها حَصراً؛ فهو -أولاً وقَبْلَ كلّ شيْءٍ- علمُ الطّبْعِ والتّذوُّق للعربيّة، ولهذا فلا يُقتَصَرُ على علم لغة النّصّ في نُسختِه الأعجميّة من أجلِ تَحليــلِ النّصّ العربيّ البَليغ؛ لأنّه لا يَقودُ بالضّرورَةِ إلى فَهمِ أسرارِ النّصّ إلاّ علــى وَجه الاسْتئنــاسِ المنهــجيّ دونَ العــلمِ بكُنه النّصّ في أصله العربيّ المُبين. أمّا تَحليلُ النّصّ في العُلومِ العربيّةِ والإسْلاميّةِ فقَد داخَلَ كلَّ فُروعِ المعْرفَــةِ

(١) روبرت دي بوجرلند، النّصُّ والخطابُ والإجْراء، ترجمَة تمّام حسّان، عالَم الكُتُــب، القاهِرَة، ط.٢، ٢٠٠٧م، ص:٨٩-٩٠.

(٢) أوْرَدَ روبيرت دبي بوجرانْد المَعاييرَ السّبْعَةَ التي تَجعلُ من النّصّ نصّاً وأساساً لإنتاجِ النّصوصِ واستعْمالِها، وهي السّبْكُ (أو التّرابُطُ النّحــويّ)، والالْتحــامُ (أو التّــرابُط المَفهوميّ والمَعْنَويّ)، والقَصدُ (قصدُ المتكلّم لِيصالَ رسالةٍ إلى المُخاطَب)، والقَبــول (قَبول المُخاطَب للنّصّ من حيثُ هو كيانٌ مُنسبكٌ مُتَلاحمٌ)، ورعايَة المَوْقف (ويتضمّنُ العَواملَ التي تجعلُ النّصَّ مرتبطاً بموقفٍ سائد)، والتّناصّ (ويَتضمّنُ العَلاقاتِ بــين نصٍّ ما ونُصوصٍ أخْرى مرتبطةٍ به)، والإعْلاميّة (الإخْبار). انظُرْ: النّصُّ والخطابُ والإجْراء، ص:١٠٣-١٠٥.

منذُ أن نشأ في كَنَفِ القُرآنِ الكَريم؛ وتَطوَّرَ مع تَطوُّرِ أدواتِ التّحليلِ وعُلومِ الآلة، بَلْ واكَبَ الدّرسُ اللّغويُّ العربيُّ القَديمُ بفُروعه المُختلفَة الدّرسَ اللّسانيَّ الغربيَّ من غيْرِ تبعيّةٍ أو استْلاب، وللمُواكبَة دلالةٌ عَميقةٌ في تاريخِ تطوُّرِ المَعرِفَةِ الإنسانيّة؛ إنّها تَعْني قُوّةَ الدّرسِ اللّغويّ والنّصّيّ العَربيّ القَديم، وقُدرتَه على التّواصُلِ مع المُنجَزِ اللّسانيّ الغربيّ.

بَلْ تدلُّ المُواكَبَةُ على قُدرَة العَقْلِ اللّسانيّ العربيّ على التّواصُلِ مَعَ المُنْجَزِ اللّسانيّ الغَرْبيّ؛ فَقَد استَوْعبَ العربُ قَديماً الإنجازاتِ العلميّةَ للحَضارَةِ الإغريقيّة، لكنَّ وَعيَهُم نمطَ حَياتِهمْ الذي يختلفُ عن نَمَطِ حَياةِ الإغْريقِ جَعَلهُم يُجرونَ كتاباتِهم النّحويّةَ بطريقةٍ خاصّةٍ بِهِم وبلُغتِهم، دون تبعيّة[1]...

فعلمُ النّحوِ في مَقاصدِه تحليلٌ للنّصّ في مرحلةٍ أولى من مَراحله لا تستقلُّ بنفسِها؛ وهو في هذه المرحلَة نَظَرٌ في العلاقاتِ والرّوابطِ بين الكَلمات، للوقوفِ على بنيةِ الكلامِ ونَظمِه، ويستعينُ به الفُقهاءُ وعُلماءُ الدّرايةِ والمُفسّرونَ والنّقّادُ لضبطِ دلالاتِ النّصّ ومَقاصدِه، فإذا غابَتِ العلاقاتُ والرّوابطُ تفكّكَ النّصّ وداخَلَه الغُموضُ والاضْطرابُ وفَقَد شُروطَ البناءِ اللّغويّ. أمّا البَلاغَةُ فهي أدخَلُ عُلومِ الآلَةِ في تَحليلِ النصّ؛ لأنّ «كُلّ

---

(١) يُنظَرُ: عَبد الفَتّاح أحمد يوسُف، لسانيّاتُ الخِطاب، وأنساقُ الثّقافَة، ط١ (بيروت: الدّار العربيّة للعُلوم؛ الجزائر: منشورات الاختلاف، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م) ص١٢.

مُفردات هذا العلمِ في صَميمِ علمِ تحليلِ النّصّ، ابْتداءً من مُقدّمة الفَصاحة والبلاغَة، وانتهاءً بأصغرِ فنّ بَديعيّ، كلّ هذا وسائلُ وأدواتٌ تُعينُ على استكشافِ جوهَرِ النّصّ... واعلمْ أنّ كلّ نظرٍ في المَباني لا غايةَ له إلاّ النّفاذ إلى المَعاني»[1]، وليسَت عُلومُ الآلَة التي هي في الحقيقة أدواتٌ وتقنياتٌ لتحليلِ النّصوصِ، إلاّ كيفياتٍ وأحوالاً وأوعيةً دَقيقةً تحملُ مَعاني النّصّ وعَوالِمَه. وتدخلُ في هذه الكيفياتِ والأحوالِ[2] والهَيْئاتِ البَلاغةُ القُرآنيّةُ التي هي الطّريقةُ العاليةُ في العبارَة عن المَقاصد.

بناءً على المَنْهجِ المُشارِ إليه أعلاه، يركنُ الباحثونَ إلى تَحليل الخطاب بمنهجٍ نَصّيّ واقعيّ يستندُ إلى سياقِ الموقفِ وبِساطِ الحالِ ومرجعيّة النّصّ، ويقفونَ عندَ الإعْرابِ ثُمّ يتجاوَزونَه ولا يلتزمونَ به وحدَه؛ لأنّ منهجَ صناعة الإعرابِ وحدَه قاصرٌ عن التّحقيقِ، ولا يلزَمونَ منهَجَ التّحليلِ بالجُمَلِ؛ لأنّ الجُملَ كيانٌ لغويّ مَحْدودٌ، وفيه الممكنُ وفيه المُفترَضُ؛ إذ يُمكنُ تصوُّرُ جُملٍ مُتكلّفة، إمّا لكونِها أطوَلَ أو أعقدَ أو أكثرَ تَوابعَ أو أكثرَ ابْتذالاً مما يُمكنُ قَبولُه، أو لكونِها فارغةً من المَعْنى، أو غيرَ

---

(1) محمّد محمّد أبو موسى، قِراءَة في الأدب القَديم، ط3 (القاهِرَة: نَشر مَكتَبَة وَهْبَة، 1427هـ/2006م) ص14.

(2) عبارَةُ الكَيفيّات والأحوال، أورَدَها ابنُ خلدون في المُقدّمَة، في الفصل السادس والأربعين: فصل في أنّ اللغةَ مَلَكةٌ صناعيةٌ.. مُقدّمَة ابنِ خلْدون (بيروت: دار الكُتُب العلميّة، 2002م).

ذاتِ أثرٍ عَمَليّ في الأداءِ... ولذلكَ فتحليلُ الخطابِ بنحوِ الجُمَلِ يبتعدُ بالنّصّ عن سياقِه الواقعيّ وأبعادِه التّداوليّة ويركنُ بِه في زاويةِ التّجريدِ والشّكلانيّة.

وسيُحاولُ هذا البحثُ لتحقيقِ الغرضِ المُشارِ إليه، أن يَستدعيَ بعضَ «المُعالجاتِ النّصّيّة» العربيّةِ القَديمَةِ المتفرّقَة، للقُرآنِ الكَريمِ، ويجمَع بينَها في بناءٍ عامٍّ لإعادَةِ قراءَتِها في ضوءِ تصوّراتِ علمِ لُغَةِ النّصّ ومناهجِه وأدواتِه، وليُمحّصَ مَدى قُدرةِ تلكَ المُعالجاتِ النّصّيّة القَديمَة على كشفِ بنيةِ النصّ ودلالاتِه الكلّيّة ووظيفتِه التي تُوافقُ مقاصدَ واضعِه، ولكن من غَيْرِ اعْتقادٍ بأنّ مَعاييرَ عُلماءِ النّصّ المُحْدَثينَ صالحةٌ مُطلَقاً لتَحليلِ النّصّ القُرآنيّ؛ إذ إنّ تلكَ المَعاييرَ الجُزئيّةَ الحَديثةَ إنّما استُخرِجَت في الأصلِ من نُصوصٍ مَحدودةٍ مُقيَّدةٍ بقُيودِ الزّمانِ والمَكانِ والظّروفِ المُحيطَةِ والأخطاءِ البشريّة. وإنّما الشّأنُ في ذلكَ بتَصحيحِ ما يَعْتري المَعاييرَ الحَديثَةَ من نَقصٍ، وتَسْديدِه بما استنبطَه عُلماءُ البَلاغَةِ والتّفسيرِ وعُلماءُ عُلومِ القُرآنِ الكَريمِ، من النّصّ القُرآنيّ، من مَعاييرَ نصّيّةٍ وافيةٍ. فنحصُلُ، من اتّحادِ عُلومِ النصّ العربيّة وعلمِ لُغةِ النّصّ الحَديثِ على علمٍ موحَّدٍ يكشفُ غَوامضَ النّصوصِ ويفكُّ رُموزَها ويستكنهُ أسْرارَها، فلا بدّ أن يأخذَ العلمُ القَديمُ بيدِ العلمِ الحَديثِ، ليزدهرَ المنهجُ النّصّي ويتَطوَّرَ وتتفتَّحَ أمامَه أبوابُ التّحليلِ، فلا يغرقَ النّصُّ في لُججِ العُجمةِ فتمّحي مَعالمُه.

ومن المَعلومِ أنّ النّصّ القُرآنيّ تَناوَلَه بالبَحْثِ والتّفسيرِ والتأويلِ عُلماءُ الفقه والأصولِ والتّفسيرِ والبَلاغةِ والنّحْو[1]، ولكنَّ عُلماءَ «عُلوم القُرآن» والمُفسِّرينَ البلاغيّينَ للقُرآن الكَريم، كان لهم النّصيبُ الأوْفرُ في مُقارَبَة النّصّ القُرآنيّ، وذلكَ بتوظيفِ كثيرٍ من العُلومِ والآلياتِ والأدَواتِ التي تُحيطُ بالنّصّ الكَريم، من جَوانبَ متعدّدَةٍ وتستكشفُ قيمَه الدّلاليّةَ وجوانبَه الجَماليّةَ وعلاقاتِه الكلّيّةَ، فكان هذا العلمُ مُؤهّلاً لأن يكونَ أقربَ إلى النّهجِ الذي نَهَجَته لسانياتُ النّصّ وتحليل الخطابِ، وهو صالحٌ لأن يُصاغَ منه أنموذَجٌ تحليليٌّ يستخرجُ أعماقَ النّصّ ويكشفُ قِيَمَه الجَماليّةَ، بَل ليُكْتَشَفَ به مَزيدٌ من المَزايا الجَماليّةِ التي تنطوي عليْها اللغةُ العربيّةُ ذاتُها.

- المُصْطَلَح:

وسيتعرّضُ البحثُ لتعريفِ المُصطلَحاتِ المتعلّقَة بلسانياتِ النّصّ وتحليلِ الخِطابِ (نص، خطاب، لسانيات النص، تَحليل الخطاب) وينتقي من بعض المصادرِ التي أُلِّفَت في علوم القُرآن ما يَتناسَبُ والمنهَجَ اللسانيَّ النّصّيَّ، من مَفاهيمَ وأدواتٍ، لبناءِ مُقاربةٍ نصّيّةٍ متكاملةٍ تُثبتُ مَدى التّقارُبِ والالتقاءِ

---

(١) وإلى ذلكَ أشار د.تمّام حسّان، عندَما بيّنَ أنّ فهمَ النّصّ القُرآنيّ الفهمَ الصّحيحَ لا يحصُلُ إلاّ: «في نطاقِ ما أنشأه عُلَماءُ العربيّة واللّغة والبَلاغة وغيرِها من مَناهج وطُرُقٍ للبَحث. وإذا الْتزَمَ الباحثُ بجُهودِ العُلَماءِ السّابقينَ... فلا بُدّ أن يَتناولَ النّصّ القُرآنيّ الكَريمَ بمُصطلَحِ هؤلاءِ العُلَماءِ؛ لأنّه لا يستطيعُ أن يستخرِجَ حقائقَ التّحليلِ العلميّ إلاّ بواسطةِ المُصطلَحاتِ المَذكورَةِ». انظُرْ: تمّام حسّان، مَفاهيمُ ومَواقفُ في اللّغة والقُرآن، ط١ (القاهرة: عالَم الكُتُب، ٢٠١٠م) ص ٢٧٤.

بين كثير من الأنظار اللّغويّة العربيّة القَديمَة والمَفاهيم اللّسانيّة الحديثَة، وذلكَ لأنّ «مناهجَ التّحليلِ اللّسانيّ» تُعدُّ قاعدةً كُبرى من قَواعد المعرِفَة، وأساساً مَكيناً من أسُسِ استكشاف أعماق النّصّ ودلالاته البادِيَة والخَفيّة.

مُصطَلَح «النّصّ» لَه دلالاتٌ، تَتفاوتُ بينَ العُمومِ والخُصوصِ، فهو عندَ عُلَماءِ الأصولِ نوعٌ من أنواعِ دلالة اللّفظ عَلى مَعْناه، والأصلُ فيه أنّه مَصدرٌ للفعلِ نصَّ يَنُصُّ بِمَعنى الرّفعِ والإظهارِ والإسْنادِ، ونَصُّ القُرآنِ ونَصُّ السنَّة أي ما دَلَّ ظاهرُ لَفظِهما عَليه مِن الأحْكامِ.

أمّا عندَ المحدَثينَ فالنّصُّ النّسيجُ العامُّ الذي يتألّفُ من خُيوطٍ متناسقة عَلى هيئةٍ مَخصوصةٍ، ويتعدّى الجملةَ باعتبارِه سلسلةً من الجُمَلِ يضبطُها مَبدآن: مبدأ الوحدَة ومبدأ الاتّساق والتّناسُق. وقد استُعملَ مُصطلحُ النّصّ في الأدبياتِ اللّسانيّة تارةً مُرادفاً للخطاب (بوصف الخطابِ نصاً وظروفَ إنتاجٍ)، وتارةً باعتبارِه سلسلةً جمليّةً مُجرّدَةً معزولةً عن ظروفِ إنتاجِها[1]. فالتعريفاتُ التي ورَدَ عليْها النّصُّ حديثاً، كثيرةٌ ومختلفةٌ[2]؛ فبعضُها يقصرُ النّصَّ على المُنجَز كتابةً، وبعضٌ آخَر يجمعُ في تعريفِ النّصّ بين

---

(١) يُنظرُ في الفرقِ بين النّصّ والخطاب: أحمد المتوكّل: الخطاب وخصائص اللّغة العربيّة، دراسَة في الوَظيفَة والبنيةِ والنّمَط، ط١ (لبنان: الدّار العربيّة للعُلوم؛ الجزائر: منشورات الاختلاف؛ الرباط: دار الأمان؛ ١٤٣١هـ/٢٠١٠م) ص٢١-٢٢.

(٢) يُنظرُ في إشكالِ كثرةِ التّعريفاتِ واختلافها: محمود حسَن الجاسم: مَفهوم النّصّ في العربيّة بينَ القَديم والحَديث، مجلّة جذور، النّادي الأدبي الثّقافي بجدّة، ع:٣١، جمادى الأولى ١٤٣٢هـ/أبريل ٢٠١٠م، ص:٤٥-٦٤.

المَكتوبِ والمَلفوظِ، ومنها ما يُراعي في التّعريفِ جانبَ الوظيفةِ التّواصليّة، ومنها ما يهتمُّ بعنصرِ التّتابُعِ بين ألفاظِ النّصّ، ومنها ما يركّزُ على الوظيفةِ الدّلاليّة للنّصّ[1].

وسيستخدمُ هذا البحثُ مصطلَحَ النّصّ بمعْناه الحديثِ لِما فيه من الشّمولِ والعُمومِ، ولِما فيه من مُراعاةِ الخَصائصِ الرّئيسَة التي لا يكادُ يَخلو منها نصٌّ من النُّصوصِ.

أمّا مُصطلَح «الخِطاب» فيُشارُ به إلى كيانٍ لغويّ يتعدّى الجملةَ من حيثُ الحجم، ويُلابسُ خصائصَ غيرَ لغويّة، دلاليّة وتداوليّة وسياقيّة، ويندرِجُ في حيّزِ الإنجازِ أكثرَ من اندراجِه في حيّزِ القُدرةِ اللغويّة، ويُتّخَذُ موضوعاً لدرسٍ لسانيّ منفصلٍ يُدعى بلسانياتِ الخطابِ أو تحليلِ الخطابِ في مُقابِلِ لسانياتِ الجُملة. فيدخُلُ في الخِطابِ الكَلامُ والمُتكلِّمُ وبيئةُ التّنزيل وسياقُه وأساليبُ التّخاطُب. والخطابُ القُرآنيّ يتوجّهُ إلى وَعْيِ المُخاطَب لتغْييرِ شأنه وحالِه والتأثيرِ فيه وإقناعِه بالمضمونِ الجَديدِ والرّسالة الجَديدَة، ويَمتازُ الخطابُ القُرآنيّ عن الخطاب البَشريّ، في أنّه خطابٌ ربّانيٌّ مُتَعالٍ يحملُ وَحْياً وإعجازاً وقُدسيّةَ نصٍّ يُتعبَّدُ به.

---

(١) يُنظرُ في الفُروقِ بين تعريفاتِ الباحثينَ للنّصّ: سعيد حسن بحيري: علم لغة النّصّ، وإبراهيم خليل: في نظرية الأدب وعلم النّصّ، والأزهر الزّنّاد: نسيج النّصّ، وصَلاح فضل: بَلاغة الخطاب وعلم النّصّ، ولُحْمَد عَفيفي: نحو النص، اتّجاه جديد في الدّرس النّحويّ....

منهجُ لسانياتِ النّصّ وتَحليل الخِطاب

- تحوّلُ الأنساقِ المعرفيّة:

لقَد اقْتَضى تَحوُّل الأنْساق المعرفيّة[1] وتطوُّرُها وحركيّتُها الانتقالَ من نحو الجُملَةِ إلى علم لُغَةِ النّصّ أو لسانياتِ النّصّ، ومن النظرَةِ الجُزئيّة للخطابِ وما يُرافقُ ذلك من هيْمَنَة الوُقوفِ عندَ حُدود الكلمةِ المُفرَدَة والحالَةِ المُبْتسَرةِ إلى النّظرَةِ الكلّيّةِ الشّاملةِ للنّصّ المكتوبِ والخطابِ المُنجَز، وإلى التّحليلِ النّقديّ للخطاب، وأصبحَ تَجاوُزُ الجُزئيٍّ إلى الكُلّيّ طريقةً في التّناوُلِ ومنهجاً في التّحليلِ، وسمةً من سماتِ الفكرِ والثّقافَةِ في هذا العصرِ، يكشفُ الأدبَ بأجناسِه وإبداعاتِه ونُصوصِه، ويُبرهنُ على نصّيته وكلّيته وتَناسُقِ أجزائه وانْسجامها. فقَد أحرزَت اللسانياتُ النصّيّةُ وتحليلُ الخطاب والأسلوبيّةُ والشّعريّةُ الحَديثَةُ والتّحليلُ التّداوُليّ للخطابِ تقدُّماً معرفياً ومنهجياً؛ إذ أتاحَت للباحثينَ والقُرّاءِ أن يقفوا في النّصّ المَدْروسِ على عناصرَ وخَصائصَ وعلاقاتٍ لم يكنْ بوُسعهِم الوُقوف عليْها بنحو الجُملَة

---

(١) في مسألة تحول الأنساق المعرفيّة يُرجَعُ إلى: صلاح فضل: بَلاغة الخطاب وعلم النّصّ، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالَمية للنّشر - لونجمان، ط.١، ١٩٩٦م. ص:٢-٦، ص:٧-١٣.

أو لســانياتِ الجُملَة. وهكذا أصبحْنا في الوقتِ الرّاهنِ أمامَ ظاهرَةٍ جَديدةٍ أو سمة فارقة تميزُ البَحْثَ النّصّيَّ اليومَ، إنّها ظاهرةُ تعدُّدِ المَعارِفِ أو التّداخُلِ المعرفيِّ على مُستَوى التّركيبِ والدّلالةِ والتّداوليّات، التي تستلزمُ من المُحلّـلِ درايةً واسعةً في فُروعٍ معرفيّةٍ كثيرةٍ، وتفرِضُ بناءَ بنيةٍ تحليليّــةٍ مُتماســكةٍ ومنسجمةٍ تُدرجُ تعدّدَ المَعارفِ وتَداخُلها، أي تفرْضُ «الحاجَةَ المُلحّــةَ إلى علمٍ جَديدٍ أو اتّجاهٍ بَحثيٍّ يُمكنُه احتْواءُ هذا التَّداخُلِ المَعرفيِّ الشّديد»[1].

لسانيات النّصّ تُؤدّي إلى اكتشافِ بلاغَةِ الخطابِ والوُقــوفِ علــى جمالياته وقيَمِه البَلاغيّةِ المُتجدّدةِ، التي لا يَقْوى نَحوُ الجُملِ المَحْــدودُ علــى استخْراجِها، وأتاحَت لسانياتُ النّصّ الانفتاحَ على مجالاتٍ معرفيّةٍ وثقافيّــةٍ مُختلفةٍ، ولم تَعُد دراسةُ اللّغَةِ منحصرةً في دائرَةِ الأصــواتِ والتّركيــب؛ ولكنّها في ظلِّ لسانياتِ النّصّ وتَحليلِ الخطابِ انفتَحَت علــى الأنــساقِ المعرفيّة؛ لأنّ اللّغاتِ الإنسانيّةَ تمثّلُ مرتكَزاً رئيساً للثّقافَةِ ومرآةً حقيقيّةً لها[2]. فانفتاحُ النّسقِ اللّسانيّ على مَيادينَ معرفيّةٍ مُختلفةٍ، يُمكّنُ مــن اسْــتيعابِ النُّص وتَناوُلِه بالدّراسَةِ الشّاملَةِ التي تُحيطُ بأجْزائه ومُؤلّفاته.

---

(١) سَعيد حَسَن بحيري: علمُ لُغَة النّصّ، المَفاهيمُ والاتّجاهاتُ، مكتبة لبنــان ناشــرون، الشركة المصرية العالَمية للنّشر-لونجمان، ط.١، ١٩٩٧م. ص: ٩٩.

(٢) في عَلاقَة اللّسانيات بالثّقافَة والمعرفَة وأهميّة البُعد الثّقافيّ في البَحثِ اللّسانيّ، يُنظر: عبد الفتّاح أحْمَد يوسُف، لسانياتُ الخطاب وأنساق الثّقافَة، ط١ (بيروت: الدّار العربيّة للعُلوم ناشرون، الجزائر: منشورات الاختلاف، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م) ص٩-٢٨.

- النَّسقُ والبنيَةُ، في دراسةِ النَّصّ:

يَبْدو أنّ الاتّجاهَ النَّسَقيّ في التّفكيرِ العلميّ، يَميلُ إلى تَحليلِ النّصّ بَدلاً من الجملَةِ والعبارَةِ في ذاتها، ويَميلُ إلى البَحثِ عن العللِ والأسرارِ وَراءَ الألفاظِ والظّواهرِ[1]. وقَد صرّحَ حازمٌ القرطاجنّيُّ بشيْءٍ من هذه المَلامحِ المنهجيّةِ في الصّناعَةِ البَلاغيّة؛ إذْ قالَ: «فإنّي رأيتُ النّاسَ لم يتَكلّموا إلاّ في بعضِ ظَواهرِ ما اشتمَلَت عليه تلك الصّناعَةُ، فتَجاوزْتُ أنا تلكَ الظّواهرَ بعدَ التّكلُّمِ في جُملٍ مُقنِعةٍ ممّا تعلّقَ بها إلى التّكلُّم في كَثيرٍ من خَفايا هذه الصّناعة ودَقائقها...»[2].

وعليْه، فإنّ العنايةَ بالنّسَقِ والنِّظامِ والعَلاقاتِ الّتي تربطُ أجزاءَ النّصّ بعضَها ببعضٍ، ليسَت وليدةَ هذا العصرِ، عصرِ اللّسانيّاتِ والعُلومِ الإنسانيّة، ولكنّها وُجدَت من قَبلُ في اهتماماتِ عُلَماءِ التّفسيرِ وعُلومِ القُرآنِ، المنهجيّةِ

(١) أشارَ الباحثُ البلاغيُّ محمّد العُمَريّ في كتابه: البَلاغة العربيّة، إلى أنّ الاتّجاه النّسقيّ في منهَجِ عُلَماءِ اللغةِ والبلاغةِ والنّحوِ تَجلّى في التّوجّه نحو التّأليفِ في الأسرارِ، نحو: سرّ صناعةِ الإعْرابِ لابنِ جنّي وسرّ الفَصاحَةِ لابنِ سِنان الخفاجيّ وأسْرار البَلاغَة لعَبْد القاهِر الجُرجانيّ، والأصول، ككُتب أصولِ الفقه وأصولِ النّحو وغيْرها.

يُنظَرُ: محمّد العُمَريّ، البَلاغةُ العربيّةُ، أصولُها وامتِداداتُها، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٩م، ص١٣.

(٢) حازم القرطاجنّي: منْهاج البُلَغاءِ وسراج الأدباء، تَحقيق محمّد الحَبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسْلاميّ، بيروت، ص:١٨.

وفي طرُقِ تَناوُلِهم للنّصِّ القُرآنيِّ. فَجاءَت عُلومُ القُرآنِ بوصفِها آلياتٍ معرفيّةً وُضعَت في الأصلِ لإعادَةِ إنتاجِ النّصوصِ في التّراثِ وقِراءَةِ تلكَ النّصوصِ بها، وهي آلياتٌ مُتَكاملةٌ مُتفاعلةٌ لا تعرِفُ الحُدودَ الفاصلَةَ بينها.

- لِماذا النّصُّ القُرآنيُّ والنّصُّ الحَديثيُّ، بالذّاتِ؟:

ولِماذا نَصيّةُ القُرآنِ ونصيّةُ الحَديثِ؟ الجَوابُ القريبُ: أنّ النّصّيْنِ عِمادُ الحَضارةِ الإسلاميّة، ومُؤسِّسُها، أمّا التأويلاتُ المُعاصرَةُ التي تَحومُ حولَ القُرآنِ الكَريمِ ثُمّ الحَديثِ الشّريفِ، ولا تقرَبُ النّصَّ، فَلا تُتّخذُ بالضّرورةِ منهجاً لقراءةِ النّصّيْنِ الكَريمَيْنِ؛ لأنّها لا تتمتّع بمرجعيّةٍ شَرعيّةٍ تُبوِّئُها المَقْعَدَ اللاّئقَ في تَفسيرِ دلالاتِ النّصّ وتأويلِها، إلاّ بالقدرِ الذي تلتزمُ بخُصوصيّةِ هذا النّصّ، وتُوظّفُ المناهجَ الحديثَةَ بالقدرِ الذي يُلامسُ المَقاصدَ التي يُصرّحُ بها ويقومُ عليْها.

وقدْ تعرَّضَ النّصُّ القُرآنيّ على وجه الخُصوصِ لحَمْلَةٍ تأويليّةٍ[1] واسعةٍ من قِبَلِ المذاهبِ والفِرَقِ والاتجاهات المُختلفَة منذ القَدِيم، ووَصلَ الاختلافُ بينَها في هذا الأمرِ إلى دَرجةِ التّعارُضِ والانقسامِ، ويعودُ هذا

---

(١) لا شكّ أنّ المعنى الحديثَ الذي أصبحَ يدلُّ عليْه للتأويلِ، له دخلٌ كبيرٌ في هذا العَرض، لما لَه من ارتباطٍ بطُرُقِ الفَهْمِ والإدراكِ والتّفسير، الحَديثَةِ للنّصّ القُرآنيّ، وهي طرُقٌ ومناهجُ حديثةٌ انطلَقَت في قِراءَةِ النّصوص الأدبيّةِ واللغويّةِ والإبداعيّةِ على وجه العُمومِ، من خلفياتٍ نظريّةٍ ومَناهجَ لسانيّةٍ ومَفاهيمَ فلسفيّةٍ أثّرَت في هيئةِ التّعامُلِ معَ النّصوصِ وفي توجيهِها.

الاختلافُ في جُزءٍ كَبيرٍ منه إلى اختلافٍ في مَنهجِ فَهمِ النّصِ والآلياتِ المُعتمَدَة، وهي آلياتٌ جاهزةٌ تُسقطُ فهماً خاصّاً على النّصّ القرآنيّ، وتكونُ في الغالبِ بعيدةً عن مَنظومةِ مَقاصدِ الشريعةِ الإسلاميّة[1]، لأنّها مُستمَدّةٌ من نَظريةٍ عامةٍ في الفهم، واستُخدِمَت هذه النظريةُ في الغَربِ تحتَ مُصطلحِ «الهرمنيوطيقا»، الذي ارتَبطَ في بدايةِ نَشأتِه بالنّصوصِ المقدَّسَة...

وتَبوّأ تأويلُ النّصّ القُرآنيّ في الفكرِ العَربيّ، في عَصرِ النّهضَة وما بَعدَه، مَوضعَ الصّدارة، حيثُ أثيرَت تَساؤلاتٌ حَولَ النّصّ وطريقةِ التّعامُلِ معه والنّظرِ فيه، وما هي المُقدّماتُ المعرفيّةُ والمنهجيّةُ لفَهمِ النّصّ الشّرعيّ وقراءَته قراءةً تأويليّةً جَديدةً. والغالبُ على هذه القِراءاتِ التأويليّة أنّها تُشكّكُ في المقولاتِ الفكريةِ الموروثَة وتَستخدمُ مَقولاتٍ فكريةً ومنهجيةً غربيّةً جَديدةً، أو تَستخدمُ مقولاتٍ قَديمَةً بعدَ إفراغِها من محتواها ومَنحِها دلالةً جَديدَةً كمَقاصدِ المتكلّم وتأويلِ المُخاطَب؛ فهذه القِراءاتُ التأويليّةُ الحديثَةُ تستخدمُ مفهومَ المقاصد على غيرِ ما وُضعَ له في علمِ أصولِ الفقه، وتربطُه بنسبيةِ الأحكام وبتاريخيةِ النص، وتتوسّلُ بمَفاهيمَ تتذرَّعُ بها لإعادَةِ القِراءَة والتّصحيحِ، وكأنّ الطّعْنَ والهَدمَ عندَ أصحابِها ضرورةٌ علميّةٌ وواجبٌ حضاريٌّ.

---

(١) انظر: خالد بن عبدالعزيز السيف: ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر-دراسة نقدية إسلامية، نشر: مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط.١، ١٤٣١ هـ/٢٠١٠م.

بَلاغةُ النّصّ القُرآنيّ

- النّصّ القُرآني والسّمْت النّظميّ:

مِنْ مَزايا الكَلامِ الجَيّدِ البَليغ، تَميُّزُ صاحِبه ببعضِ العباراتِ الأدبيّةِ أو النّماذجِ الخاصّةِ التي تقترنُ باسمه، فإن اسْتعمَلَها أحدٌ بَعدَه فَعلى سَبيل النّقلِ والتأثّر أو الاستفادَة، وتتميّزُ هذه النّماذجُ المتفرِّدَةُ بدقّة النّظرِ وغُموضِ المسلَك، في توخّي الصّورِ والمعاني، وهذا هو الذي عبّر عنه شيخُ البلاغة عبدُ القاهر بقولِه: «واعلمْ أنّ الاحتذاءَ عندَ الشعراءِ وأهلِ العلمِ بالشعرِ وتقديره وتمييزِه أن يبتدئَ الشاعرُ في معنى له وغَرضٍ أسلوباً، والأسلوبُ الضَّربُ من النّظمِ والطّريقةُ فيه، فيعمدُ شاعرٌ آخر إلى ذلكَ الأسلوب، فيجيءُ به في شعره»، وما من شاعرٍ مُجيد إلاّ وله أنموذجٌ يُعْرَفُ به ويُحتَذى، وهو ما يُعْرَف في لغة العلم بالأسلوب أو النّمط أو الأنموذَج الخاصّ Paradigm أو النّسَق أو الطّريقَة أو الضّرْبِ أو المَذْهَبِ أو النّحْوِ أو المَنْحى... ونستطيعُ أن نُحْصيَ مئات النّماذِج لأجاوِدِ الشّعراءِ لأنّها معانٍ مبتَكَرةٌ وأوضاعٌ غيرُ مَسْبوقَة، ولو تأمّلْنا لَوَجَدْنا القرآنَ الكريمَ سبّاقاً إلى الأوضاعِ الجديدة والنّماذِجِ الأسلوبيّة المُتفَرِّدَة التي يجمَعُها قولُك «النَّظْم القُرْآنيّ» أو النَّظْمُ المَخْصوصُ ولوَجَدْنا الحديثَ النّبويّ الشّريفَ مُحْتَذياً كتابَ الله تعالى، من خلالِ ما يُعْرَفُ في البَلاغَة النّبويّة بجَوامِعِ الكَلِم، كَقولِه ﷺ: «**الآنَ حَمِيَ الوَطيس**»[1]... ولَوَجَدْنا لكلّ عصرٍ مِئات النّماذِج المُنْتَقاة. ونَضرِبُ على

(١) أخرجَه مُسلم في صَحيحِه، كتاب الجِهاد، باب في غَزْوَة حُنَيْن، عن عبدِ الله بنِ عبّاس.

ذلك مثـالاً من القرآنِ الكَريم، مِـن قـوله تَعـالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ...﴾ (الأعراف:١٤٩)، (الفعلُ: سُقطَ فِي يَدِه، يُضرَب لمن نَدم)، قـال أبو القاسِـمِ الزّجّاجيُّ: «سُقِطَ في أيديـهِمْ نَظمٌ لم يُـسمعْ قبـلَ القرآن، ولا عَرَفَتْه العربُ، و لم يوجَدْ ذلكَ في أشعارِهم، والذي يدلُّ علـى ذلكَ أنّ شعراءَ الإسلامِ لَمّا سَمعوا هذا النظمَ واستعمَلوه في كلامهِم خَفيَ عليهم وجهُ الاستعمالِ لأنّ عادَتَهم لم تَجرِ بـه»[1].

وممّا يجذبُ الانتباهَ في هذا البابِ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر:٤٣)، والمعـنى: لا يَنـزِلُ المكرُ ولا يُجـاوِزُ ولا يُحـيطُ إلا بأهله. ومثْلُ هذه الآيَة في القرآن الكَريم كثير ممّا يجري مجرى الأمْثـال، وهذا هُوَ النّوعُ البَديعيّ المُسمّى بإرسالِ المَثَل، مِن ذلك قولُه تَعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾،

(١) أبو الفَضل الميدانيّ النيسابوري، مَجْمَع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (بيروت: نشر دار المعرفة).

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

فما أجملَ هذه الآياتِ وما أبدَعَها وما أخصّها بـالقُرآنِ الكـريمِ ذي النّظمِ البديعِ والأسلوبِ الفريدِ المتميّز.

وهكذا فإذا قلنا: إنّ الشّعرَ متفرِّدٌ بنظمه وأساليبه وعباراته ونَماذجه الفذّة؛ فإنّ القرآنَ الكَريم من بابِ أوْلى وأحْرى أنْ نَتحدّثَ فيه عن الْتباسِ (ترابط) المَعاني فيما بَيْنَها في العبارَةِ الواحدة، وتماسُكِها واتّساقِها وكأنّها صُبّتْ في ذلك القالَبِ اللّغويّ إصبابَةً واحدةً وسُبكتْ سَبْكاً واحداً، و لم يعُدْ للفظِ الواحدِ وجودٌ إلاّ بسابقِه وتاليه، ولو أبدلْتَ لفظاً مكانَ لفظ لارتَبكَ التّعبيرُ واضطَرَبَ ولَخرَجَ من بابِ البلاغَة إلى بابِ الكلامِ المألوف، فلَمّا أخْرجَت عباراتُ القرآنِ العظيمِ ذلكَ الإخْراجَ الكَريمَ تميّزَ بناؤه اللّغويُّ والبلاغيُّ وتفرّدَت عباراتُه البَديعةُ، وأصبحتْ أمثالاً تُضْرَبُ ونَماذِجَ تُحتَذى، ممّا لَم يُسْمَعْ مثْلُها في بلادِ القولِ.

فتبيّنَ من هذه الجهَة أنّ أخصّ أسبابِ ارْتقاء النّظمِ القرآنيّ والعبارةِ القُرآنيّة، في الظّهورِ والغَلَبَة، والتّميُّز والتّفرُّد، «فَلَو جاءَ القُرآنُ مثلَ كلامِ

العربِ في الطَّريقةِ والمَذهَبِ، وفي الصِّفةِ والمَنزلةِ لَمَا صَلحَ أن يَكونَ سَبَباً لِما أحدَثَه، ولَذَهَبَ مَع كلامِ العربِ، ثمّ لَتَدافعتْه العُصورُ والدّوَلُ إن لم يَذهبْ، ثمّ لَبَقيَ أمرُه كبعضِ ما تَرى من الأمورِ الإنسانيّة؛ لا ينْفردُ ولا يستعْلي»[1].

ففي القرآنِ الكَريمِ وحَديثِ النبيّ صلّى الله عليه وسَلّمَ، من العبارات النّوابغِ، والكَلِمِ الجَوامعِ، والنِّعَمِ السَّوابغِ، ما أنْعَمَ به الله على هذه الأمّة، فاقتفَتْ آثارَ العباراتِ البليغَةِ، ونَسجَتْ على مِنْوالِها ما بِه يَسْمو كَلامُها، وهذا مَبحثٌ طويلٌ وبابٌ واسعٌ لِمَنْ أرادَ أن يَلجَه.

وسنتحدّثُ في هذا العرضِ عن النّصّ القُرآنيّ بوَصفه كَلامَ الله سُبْحانَه وتَعالى من أوّله إلى آخرِه، ليسَ فيه حرفٌ مُقحمٌ ليسَ منه، ولا حرفٌ مُسقَطٌ هو منه، ولا حرفٌ مُغيّرٌ عن مَكانه، ولا حرفٌ زائدٌ يُستغْنَى عَنه، ولا حرفٌ وُضعَ في غيْرِ مَوضعه وغيْرُه أوْلى منه في ذلكَ المَكان.

وإذا كانَ كلُّ ذلكَ منفياً عن القُرآنِ الكريم، بدَليلٍ من نُصوصِ القُرآنِ الكَريمِ وتَراكيبِها ودلالَتِها، انتَهَيْنا بالعَقلِ والنَّقلِ إلى أنّ القُرآنَ الكريمَ من أوّله إلى آخرِه نصٌّ واحدٌ كاملٌ مُتكاملٌ، مُتماسكٌ مُؤتلفٌ، ليسَ فيه فَراغٌ ولا زيادةٌ ولا نُقصانٌ ولا تَغْييرٌ ولا تَبْديلٌ ولا تَحْريفٌ. فمن أيْنَ جاءَ هذا الائتلافُ وهذا الانْسجامُ وهذا التّماسُكُ، أو هذه النّصّيّةُ البليغةُ؟ ومن المَعْلومِ أنّ عُلَماءَ عُلومِ الآلَةِ (النّحو والبَلاغةِ والأدبِ) وعُلَماءَ عُلوم القُرآنِ الكريمِ (التّفْسير وعلم أسبابِ النّزولِ والنّاسخِ والمَنسوخِ والوَقْف والابْتداء

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجازُ القُرآن والبَلاغةُ النبويّة، ط٨ (بيروت: دار الكتاب العربيّ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص٢٤٠.

والقراءات...) وعُلَماءَ الأصولِ والفقهِ، حاوَلوا، على تَفــاوُت بيــنَهُم، أن يُثبتوا لَنا صفات الكَمالِ والإعْجازِ والتّماسُك والانتظامِ في النّصّ القُــرآنيّ، وأن يُثبتوا لَنا أنّ هذه الوحدَةَ إنّما هي وحدَةُ البُنيان. فَما هي مَظاهِرُ هــذا الجَمال في هذا البُنيان المَشيد؟

الحَقيقةُ أنّ نُصوصَ القُرآنِ الكَريمِ تُعالِجُ من جهتَيْن:

- من جهةِ كونِ الإعْجازِ القُرآنيّ حقيقةً عقَديّةً وشــرعيّةً وعلميّــةً، وليسَ مَقْصوراً على الإعجازِ البيانيّ والنّظميّ، عَلى نحو ما فَهِمَه كثيرٌ مــن القُدَماءِ والمُعاصرينَ الذينَ ركّزوا على جانبِ النّظمِ وحَصَروا فيــه مَزايــا الإعْجاز وقَصَروها عليْه، وغَفَلَ كثيرٌ منهُم عن أســرارِ أخْــرى للإعْجــاز كأمورِ الغيْبِ وحَقائقِ التّاريخِ والفَهْم الدّقيقِ لمكنونِ النَّفْسِ البَشريّة وحُسن مُخاطَبَتِها في الإرشادِ والهــدايَة، وعَجــائبِ آياتِ الله في خَلْقه وغيْرِ ذلكَ مّما اكتَشَفَه وما زالَ يكتشفُه المُتخصّصونَ في كلّ حَقلٍ من حُقولِ المعرِفَة[1]، وما زالَت جَوانبُ الإعْجازِ تَظهَرُ وتّسعُ باتّساعِ دائرةِ المعرِفَــةِ الإنــسانيّة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٧-٨٨).

- ثمّ من جهةِ كوْنِ القُرآنِ كلّه وَحدةً بنائيّةً بكــلّ سُــوَرِه وآياتــه وأجزائِه وأحزابِه وكَلِماتِه، كالجُملةِ الواحدَةِ أو البِناءِ المُحكَمِ الــذي يمتنــعُ

---

(١) زَغلول راغِب محمّد النّجّار، مَدْخَل إلى دراسَة الإعْجاز العلميّ في القُرآن الكَــريم والسنّة النّبويّة المُطهّرَة، ط١ (بيْروت: دار المَعْرفة للطّباعَــة والنّــشرِ والتّوزيــع، ١٤٣٠هــ/٢٠٠٩م) ص٧٧.

اختراقُه لمتانَته وقُوّته[1]، ولا يَقبلُ بناؤُه وإحكامُ آياته التّعدُّدَ فيه أو التّجزئةَ في آياته، ولَولا هذه الوَحْدَةُ البنائيّةُ لَما استوعَبَ القُرآنُ «خَبَرَ ما بَعْـــدَنا» حيثُ استوعَبَ مُستقبَلَ البشريّة[2].

وعليه، جاءَ هذا العرضُ ليضعَ اليَدَ على أهمّيّة المُقاربَة النصّيّة اللّـــسانيّة في مُعالجَة دلالاتِ النّصوصِ وبنياتها، حتّى يبلُغَ هذا المنهجِ اللسانيّ النّـــصّي درَجَةً من الدّقّة في فهمِ النُّصوصِ، ويتجنّبَ المَزالقَ في الفهمِ ومواطنَ الخَلــلِ فيه، وهي مَزالقُ ناتجةٌ عن إخراجِ النصِّ عَن مواضعه ومَقاصــده، والــنّصّ القُرآنيّ الكَريمُ أوْلَى النّصوصِ بالعنايَة والاهتمامِ، وهذا بابٌ كبيرٌ من أبوابِ العلمِ ينبَغي أن تُصرَفَ إليه العنايةُ، ويبلُغَ في ذلك العُلَماءُ الغايةَ، وفي ذلــك قالَ الحافظُ أبو الفَرج ابنُ الجَوْزيّ: «لَمّا كانَ القُرآنُ العَزيزُ أشْرَفَ العُلــومِ كانَ الفهمُ لمَعانيه أوْفى الفُهومِ؛ لأنّ شرَفَ العلْمِ بشَرَفِ المَعْلوم»[3]. وقَد بدأ يظهرُ في ساحةِ المَناهجِ مُقارَباتٌ نصيّةٌ حَديثةٌ تَقومُ على الْتمـــاسِ مَـــواطنِ الانسجامِ والتّماسُك في بناءِ النّصِّ القُرآنِي والبَحث عن كلّ عَناصرِ التّسانُد في البنيةِ اللفظيّةِ والمَضمونِ الدّلاليّ والمَقاصد الشّرعيّة، التي تَقودُ إلى طريـــقٍ نَهْجة في النّظرِ السّديدِ والتأويلِ المُفيد، بعدَ أن نالَ التّفْسيرَ ما نالَه من شَططٍ في الفَهمِ وابْتعادٍ عن روحِ النّصّ ومَقاصده العُلْيا.

---

(1) طه جابر العلواني: الوَحْدَة البنائيّة للقُرآنِ المَجيد ، سلسلة دراسات قرآنية (٣)، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، ط.١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(2) انظر بتوسع ص ٤٦-٤٨.

(3) ابْن الجَوزيّ، زادُ المَسير في علْم التّفْسيرِ، تحقيق أحمد شَمْس الدّين (بيـروت: دار الكُتُب العلميّة، ٢٠٠٢م).

ففي المُقاربَة النصّيّة ما يخدمُ الغرَضَ ويُفيدُ في الاستدلالِ على أســرارِ النّصّ القُرآنيّ وأعماقه الجَماليةِ والنّصّيةِ، التي ترتكزُ على الاستمدادِ من بنيته النّصّية نفسها، التي تتوافقُ وسياقَه الخارجيّ ومَقاصدَه العُلْيا ولا تُعارضُــها، وفي هذه المُقاربةِ النّصّيّة أيضاً ردّ حجاجيٌّ بُرهانيٌّ على الأقاويلِ التاريخانيّــة والأباطيلِ التأويليّة والنّظريّات الفــلسفيّة المُستــوْرَدَة التي تعْتسفُ الطّريــقَ إذْ تتّخذُ من النّصّ القُرآنيّ، قَسْراً، مطيّةً لشحذ أسلحَتها وتُحمِّلُه وُجوهاً من الفهمِ وأفكاراً بعيدةً لا يُؤيِّدُها السياقُ الخارجيُّ الذي أحاطَ بنــزولِ النّصّ ولا يُؤيِّدُها الخطابُ العلميُّ الذي رافقَه وبيّنَ مَنهجَ فهمه وتنزيله والاستنْباطِ منه، من سيرةٍ نبويّةٍ وسنّةٍ وسِيَرِ صَحابةٍ واجْتهادِ عُلَماء وتَفْسيرِ مُفــسِّرينَ واستنْباط فُقَهاء، معَ التأكيد أنّ الاعتمادَ على تلكَ العَتبــاتِ أو النّــصوصِ المُوازِيَة والمُرافِقَة، لنْ يُسقِطَ عن النّاظرِ في النّصّ القرآنيّ، العارِفِ بــشروطِ الفهمِ والتّفْسيرِ وقَواعدِ الاستنباطِ، الإقْرارَ بأنّ بَسطَ الدّين على واقع النّــاس لا بدّ أن يأخذ بعين الاعتبارِ قَضايا العَصر ومُشكلاتِ النّاس الذين هم مَحلّ الحكم الشّرعيّ، وهي أمورٌ وقَضايا تستلزمُ البحثَ في عُلوم الآلة الجديــدة، المُسمّاة اليومَ بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، فإنّ هذه العلومَ المُستحْدَثَة تُعــدُّ إلى جانبِ الأدواتِ القَديمة المألوفَة، أدواتٍ ضروريّةً لفهــم الواقــع وإدراك أبعاد الإنسان. وتُقدّم من المعارف والنّتائج ما تُصبح معه ضرورةً شرعيّة.

إنّ تنــزيلَ أحكام الشّريعة المستنبَطة من النّصّ القرآنيّ على واقع النّاس إنّما يُراعَى فيه هذا الواقعُ بأعرافِه وتقاليدِه ونُظُمه وأسْلوبِه في الحياة وثَقافتِه

وفكرِه، وهي خُصوصياتٌ جديرةٌ بأن تُراعَى في فَهمِ النصّ والاستنباطِ منه لتنزيل الأحكام، إذا كانت تستحقُّ ذلك ولا تُعارِضُ صريحَ الدّينِ والقَطعيّ من الأحكامِ، فيكونُ هذا الاجتهادُ في فهم النّصّ واستيعاب حقيقته مَبنيّاً على أدَب خاصّ وقواعدَ تتناسبُ وطبيعتَه، وتُستخدَم فيه وسائطُ آليةٌ للتّحليل والتّصنيف والرّصد، قائمةٌ على أسُسٍ علمية غير مَتروكةٍ للتلقائيّة والعفويّة.

- نَماذج من القِراءات النصية:

١- القراءَة التّناسُبيّةُ:

التّناسُبُ قانونٌ كَوْنيٌّ كُلّيّ، دلّ عَليْه قولُه تَعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (المُلك: ١-٤).

والقراءةُ التّناسُبيّةُ دراسةٌ تتَناولُ أوجُهَ التّناسُب المَعنويّ واللّفظيّ والصّوتيّ في البَيانِ القُرآنيّ، بطريقة تجمَعُ بينَ النّظريّة والتّطبيقِ[١]، ومفتاحُ دراسَة التّناسُبِ في النّصّ القُرآنيّ قولُه تَعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

---

(١) التّناسُبُ البَيانيّ في القُرآنِ، دِراسَة في النّظم المعنَويّ والصّوتيّ، أحمَد أبو زيد، منشورات كليّة الآداب والعُلوم الإنسانيّة بالرّباط، سلسلة رَسائل وأطروحات رقم: (١٩)، ١٩٩٢م، ص: ٦.

﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (الزُّمَر:٢٣)، فالتّشابُه في الآيَة يُشيرُ إلى ذِكْرِ الشّيءِ مَع نَظيرِه، والمَثاني ذِكْرُ الشّيءِ مَعَ مُقابله؛ فالقُرآنُ مَثاني مِن وَجْه ومُتَشابه من وَجْه. وقَد استَفادَ الكاتبُ مِنْ هذا المفتاحِ في دِراسة أوجُه التّناسُب المَعنويّ في البَيان القُرآنيّ، فأوضَحَ كَيفَ تنْتظمُ فيه المَعاني المُتوافقَةُ المُتشابهةُ، وكَيْفَ تنتظمُ المَعاني المُتقابِلَةُ، وبيّنَ كَيْفَ تُراعي وحدَةُ السّورَةِ في إيرادِ المَعاني وانتقاءِ المَباني، وكَيْفَ تأتي الكلمةُ المُفرَدةُ بمَعناها ومَبْناها مُتمكّنةً في مَوقعِها لا يسدُّ مَسدَّها شيءٌ.

فالقُرآنُ أحسَنُ الحَديثِ مِنْ حَيثُ تناسُب المَعاني وتَناسُب المَباني والأصْواتِ؛ فَهُوَ حَديثٌ يَروقُ الأسماعَ ويبعثُ اللّذّةَ في النّفوسِ، وذلكَ لِتَناسُبِ ألفاظه ومَبانيه ومَقاطعه وأصْواته.

وقَد بيّنَ الكاتبُ أنّ هذه الدّراسَةَ التّناسُبيّةَ، لَيْسَت مُنحَصرةً في عِلْمٍ واحد من عُلومِ القُرآن، ولا في جانبٍ واحد من بَلاغَة القُرآن، بَل هي دراسَةٌ تَركيبيّةٌ تَقومُ عَلى الْتقاطِ ثَمراتِ عُلومٍ كَثيرةٍ وتَسخيرِها في تَدبُّرِ خَصائصِ البَيان القُرآنيّ[1].

وقَد ألّفَ في علمِ التّناسُبِ أو علمِ المُناسبَةِ من القُدَماءِ ابنُ الزّبَيْر الغَرناطيّ كتابَ «البُرهان في تَرتيبِ سُوَر القُرآن» وألّفَ بعدَه البقاعيُّ

(١) التّناسُبُ البَيانيّ في القُرآنِ، ص: ٥-٩.

كتابَ «نَظْم الدُّرَر في تَناسُبِ الآياتِ والسُّوَر»[1]، ثُمّ ألَّفَ السّيوطيّ كتابَ «قَطْف الأزْهار في كَشْفِ الأسْرار» وكتابَ «تَناسُق الدُّرَر في تَناسُبِ السُّوَر» وكتابَ «مَراصد المُطالع في تَناسُبِ المَقاطِع والمَطالِع»[2].

وكَتَبَ فيه منَ المُحْدَثينَ مُصطَفى صادق الرّافعيّ، فقَد خَصّ حَديثَه عَن الإعْجازِ القُرآنيّ في كتابِه «إعْجاز القُرْآنِ والبَلاغةُ النّبويّة»، وبيّنَ فيه القيمةَ الجَماليّةَ لتَرْكيبِ الأصواتِ وتَلاؤُمِها وتَناسُبِ الألفاظِ وحُسنِ ائتلافِها وتَناسُبِ الفَواصِلِ وتَناسُبِ المَعاني[3].

وكَتَبَ فيه أيضاً سَيّد قُطْب، في كتابِ «التّصوير الفَنّي في القُرآن»، ومحمّد عَبْد الله دَرّاز، في كِتابِه «النّبأ العَظيم».

وممّا لَه صِلةٌ وَثيقَةٌ بالتّناسُبِ في النّظمِ القُرآنيّ عِلْمُ تَوجيهِ مُتَشابِهات القُرآن[4]، وهو عِلمٌ يَبحثُ في تَوجيه ما تَكرَّرَ من الآياتِ لَفظاً أو اختَلَفَ بتَقديمٍ أو تأخيرٍ، أو بَعضِ زيادةٍ في التّعبيرِ، عَن عِلَلِ الائتِلافِ والاختِلاف. ووجهُ الصِّلَةِ بينَ المُناسَبَة والمُتَشابِه، أنّ المُتشابِه يبحثُ في تَركيبِ الآياتِ

---

(١) البُرْهان في تَرتيبِ سُوَرِ القُرآن، لابنِ الزُّبَيْر الغَرناطيّ، تحقيق محمد شعباني، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢) ذَكَر السّيوطي بَعضَ هذه الكُتُبِ في الإتْقان، ٩٧٦/٢.

(٣) إعْجاز القُرآنِ والبَلاغَة النّبويّة، مصطَفى صادِق الرّافعيّ، ط٨ (بيروت: دار الكِتاب العربيّ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص ٢٣٦-٢٤٨.

(٤) التّناسُبُ البيانيّ في القُرآنِ، ص: ٣٧.

وألفاظِها، ويُبيّنُ وَجْهَ مُناسبَةِ كُلِّ تَركيبٍ للسِّياقِ الذي وَرَدَت فيه الآيَــةُ. والمُشتَبِهاتُ نَوعٌ يَتداخلُ مَعَ نَوعِ المناسَباتِ[1].

أمّا صــاحبُ كتاب «التّناسُــب البَيانيّ في القُرآن» فقَد قسّمَ دراستَه إلى قسْمَين: قسْــم للتّناسُبِ المَعْنويّ وقِسمٍ للتّناسُبِ اللّفظِيّ والإيقــاعيّ. فأمّا التّناسُبُ المَعْنويّ ففيه تَناسُبُ المَعاني المُتوافقَة، وهو الــذي يَكــونُ في وَحْدَةِ السّورَة، كأن تكونَ الوَحْدَةُ بينَ مطلَعِ السّورةِ ومَوضوعِها أو بَــيْنَ مَطْلَعِها وختامِها أو بيْنَ الحَلقاتِ القَصَصيّةِ ومَوضوعِ السّورَة. وقَد يَكــونُ تَناسُبُ المَعاني في آياتِ العَقيدَة، أو في التّعْقيباتِ التي تَرِدُ في خَواتِمِ الآيــاتِ أو في أعْقابِ القَصَصِ القُرآنيّ. وقَد تَكونُ تلكَ المَعاني مُتَناسِبَةً تَناسُبَ تَقابُلٍ وطِباقٍ. وقَد تَكونُ المُناسَبَةُ المعنويّةُ في اختيارِ المُفرَداتِ واختيارِ التّراكيب.

وأمّا التّناسُبُ اللّفْظيُّ الإيقاعيُّ فيَظهَرُ في قيمَةِ التّناسُبِ بَيْنَ أصْــواتِ القُرآنِ، وأثَرِ ذلكَ في جَمالِ الإيقاعِ ورَوْعَةِ القُــرآنِ وتــأثيرِه في نُفــوسِ السّامعينَ وإنْ لَم يَكونوا غيرَ ناطقينَ بالعربيّة. ومنَ التّناسُبِ اللّفظيّ أيــضاً تَناسُبُ المُشاكَلَة وتَناسُبُ المُجاوَرَةِ والإتْباعِ. ومنْ مَظاهِرِ تَناسُبِ الأصْواتِ القُرآنيّة أيضاً التّوازُنُ في النّظمِ الصّوتيّ وتَناسُبُ الفَواصلِ.

وهكَذا فقَد كَشَفَ منهَجُ الكتابِ أنّ التناسُبَ البيانيّ في القُرآنِ الكَريمِ مَبْنيٌّ على نظمٍ عَجيبٍ تألَفَت دُرَرُه وتَناسَبَت عَناصرُه، فَلا تَفاوُتَ ولا تَنافُرَ ولا تَبايُنَ ولا اختِلافَ في شيْءٍ منه، وهو نَظمٌ مُتَناسبٌ في مَعانيه ومَبانيــه، في ألفاظِه وأصْواتِه، في إيقاعِه وفَواصلِه. والسّورَةُ منه بنيةٌ مُحكَمَةُ البِنــاءِ،

---

(١) الإتقان، ٢/٩٩٦.

مَطلعُها يُناسبُ مَوضوعَها ومَقاصدهَا وخاتمَتَها، ومَعانيها الجُزئيّةُ ومَقاطعُهـا مُتناسبةٌ تناسباً يرتكزُ عَلى التّوافُقِ ومُراعاةِ النَّظيرِ، وعلى التّقابُـلِ ومُراعـاةِ التّضادِّ. ويَبدو أنّ التّوافُقَ المَعْنويَّ أبرزُ عَناصرِ الوحدَةِ في كلِّ سورة، ومـن مَظاهِرِ التّوافُقِ افْتتاحُ السّورةِ بما يُناسبُ غَرَضَـها وروحَهـا وخَتْمَهـا، واخْتتامُها بما يُناسبُ فاتحَتَها.

ومن مَزايا هذه الدّراسَةِ أنّها استطاعَتْ جَمعَ ما تَناثَرَ مـن أطـرافِ مَوضوعِ التّناسُبِ القُرآنيّ في دراسةٍ واحدَةٍ بعدَ أن كانَت موزّعَةً في كثيرٍ مِنْ فُروعِ الدِّراساتِ القُرآنيّةِ والبَلاغيّة.

وقَد دَعا الباحثُ إلى تَعْميمِ مُصطَلَحِ التّناسُبِ للـتّخلُّصِ مـن كثـرةِ المُصطَلَحاتِ المُرهِقَة. وتَخْليص البَحْثِ في إعْجازِ القُرآنِ مّما عَلِقَ به من آثارِ الخلافِ في قضيّةِ اللّفظِ والمَعْنى[1].

٢- القِراءَةُ البِنائيّةُ:

- التّأويلُ البِنائيُّ المُتَكامِلُ أو الوَحدَةُ البِنائيّةُ للقُرآنِ الكَريمِ:

مِنَ الدِّراساتِ الجادّةِ التي سَعَتْ إلى وَضعِ تصوُّرٍ مَنْهَجيٍّ لقِراءةِ القُرآنِ الكَريمِ وفهمِه الفَهمَ السّليمَ الذي يُوافِقُ مُرادَ مُنزِّله، كتابُ «الوَحْدَةِ البنائيّـةِ للقُرآنِ المَجيد»[2]، وهو كتابٌ دَعا فيه صاحبُه إلى مُعالَجَةِ نُصوصِ القُـرآنِ

(١) التّناسُبُ البَيانيّ في القُرآنِ، ص: ٣٧٣-٣٧٦.

(٢) الوَحْدَةُ البِنائيّة للقُرآنِ المَجيد د.طه جابر العلواني، سلسلة دراسات قرآنية (٣)، ط١ (القاهِرة: مكتبة الشّروق الدّوليّة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

الكَريم مِن جهةِ كونِه وَحدةً بنائيّةً بكلّ سُوَرِه وآياتِه وأجزائِه وأحزابِه وكَلماتِه، كالجُملةِ الواحدَةِ أو البِناءِ المُحكَمِ الذي يمتنعُ اختْراقُه لمتانتِه وقُوّتِه، ولا يَقبلُ بناؤُه وإحكامُ آياتِه التّعدُّدَ فيه أو التّجزئةَ في آياتِه، ولَولا هذه الوَحْدَةُ البنائيّةُ لَما استوعَبَ القُرآنُ «خَبَرَ ما بَعْدَنا» حيثُ استوعَبَ مُستقبَلَ البشريّةِ. وبمَنهجِ التّعامُلِ بهذه الوحدةِ البنائيّةِ لَن نستطيعَ أن نهتمَّ بجانبٍ من جَوانبِ القُرآنِ الكَريمِ كالأحْكامِ الفِقْهيّةِ أو الفوائدِ البلاغيّةِ، ونُهمِلَ الجَوانبَ الأخرى؛ لأنّ مَعانيَ الآياتِ لَن تُسفرَ عن وَجهِها حتّى تُقرأَ في سِياقِها ومَوقعِها وبيئتِها، وتُدْرَكَ العَلاقةُ بينَ الآيةِ والقُرآنِ الكريمِ كلِّه؛ لأنّ القرآنَ بناءٌ مُحكَمٌ واحدٌ، ونَظمٌ مُتفرّدٌ واحدٌ، تَسري فيه كلِّه روحٌ واحِدةٌ تحوّلُه إلى كائنٍ حيٍّ يُخاطبُك كِفاحاً ويَشتبكُ مَعك في جَدَلٍ شاملٍ يُجيبُ بِه عن أسئلتِكَ[1].

كَيْفَ ظَهَرَت بُذورُ القولِ بالوَحدَةِ البِنائيّةِ للنّصّ القُرآنيّ؟

لَقَد شُغِلَ جيلُ التّلقّي بالتّعلّمِ للعَمَلِ والتّطبيقِ، وشُغِلَ جيلُ الرّوايَةِ بتتبُّعِ الرِّواياتِ وتَمْحيصِها، وشُغِلَ جيلُ الفقهِ بإنتاجِ الفقْهِ للاستجابَةِ لمُسْتجدّاتِ الحَياةِ، وانْتَشَرَ مع مَناهجِ الفُقَهاءِ النّظَرُ الجُزئيُّ في الآياتِ والمُسارَعَةُ إلى الدّليلِ الجُزئيِّ.

(١) انظُر تفصيلَ الفكرَةِ في كتابِ «الوَحْدةِ البِنائيّة»، ص: ١١-٢٠.

ولكنّ المُفسّرِين بالرّغمِ من اقْتنـــاعِهِم بأنّ القُرآنَ يُفسّرُ بعـــضُه بَعضاً لم يُؤدِّ انشغالُهُم بالتّفسيرِ إلى الكَشْفِ عن الوَحدةِ البنائيّة للقُرآن الكَـــريم، وقَد ذمّ الله عزّ وجلّ المُقْتَسِمينَ الذينَ جَعَلوا القُرآنَ عِضينَ أي مُفرَّقاً، وآمَنوا ببعضِ الكتابِ وكَفَروا ببعضٍ، وقَد كانَ الذّمُّ كافياً للــدّفعِ إلى اكتــشافِ مَنْهَجٍ للقراءَةِ الواحدَةِ غير المُجَزّئَة لاكْتِشافِ الوَحْدةِ البنائيّة.

والحَقيقَةُ أنّ الذين وُجِدَتْ عِندَهُم بُذورُ القَولِ بالوَحْدَةِ البنائيّـــةِ هُـــم أهـــلُ البَلاغَةِ والبَيانِ وأصحابُ نَظريّةِ النّظمِ، وعَلـــى رأسِـــهم الجـــاحظُ وعبدُ القاهرِ الجُرجانيّ.

ونَظريّةُ الوَحدَةِ البِنائيّة لا تقلُّ خَطَراً عَن نظريّةِ النّظمِ، وهُما مَعاً حجَرُ الزّاويةِ في المَنظومةِ الدّاخليّة للكتابِ المَجيد، التي تَحفَظُه وتَجْمَع أجزاءَه من الدّاخلِ، أمّا الوَسائلُ الخارجيّةُ الحافظةُ ففي مُقدّمتها عُلومُ المَقاصد، وهـــي التّوحيدُ والكَلامُ والتّفسيرُ والفقْهُ وأصولُه وعُلومُ الحَديث. لكنّ كثيراً مـــن المُتكلّمَة تَجادَلوا في اليقينيّاتِ العَقَديّة فصارَت هذه مادّةً جَديدةً للجَدَل، فبدأ علمُ الكَلامِ يُفكّكُ الأمّةَ التي بَناها القُرآنُ ليجعَلَ منها فِرَقاً وشيَعاً، واستُعملَت الأحاديثُ الضّعيفةُ والمَوضوعَة لتأصيلِ الأحوالِ الشّاذّة، وأقاموا علماً جَديداً سَمّوْه علمَ المِلَلِ والنِّحَل، واقْتَطَعوا آياتٍ من القُرآنِ عَن سياقِها وبَتَروها مِن نَظمِها ووَحْدتِها ونَسَقِها ليتّخذوها مَوضِعَ شاهد، وليَحْملوها عَلى ما أرادوه.

والحَقيقةُ أنّه لا مَخْرجَ من هذا التُّراثِ المَعْطوبِ المُفَكّـــكِ إلاّ بعَرْضِـــه كاملاً على القُرآن في وَحدته البنائيّة.

٣- القِراءَةُ التّساندِيّةُ[1]:

- القِراءَةُ التّساندِيّةُ وآلِياتُ المُؤوِّل:

القِراءَةُ التّساندِيّةُ إجْراءٌ تأويليٌّ ناظِمٌ لمُعْطَياتِ النّصِّ ومُعْطياتِ سياقه بطَريقة مَقبولَة ومُنسجمَة، تَستَندُ إلى الانْتقالاتِ المُمْكنة التي تَسمحُ بها بَلاغةُ المُؤوِّلِ بَيْنَ النّصِّ وامْتِداداته، ويَهدفُ التأويلُ التّساندِيُّ إلى تَحويلِ التّصوُّراتِ المُقْتَرَحَة إلى آلياتٍ قابلة للتّجريب، وإنْجازِ قراءاتٍ تأويليّة مَبْنيّة على قاعدة نَظَريّة تَنقُلُ المُقارَباتِ من أحاديةِ المنظورِ التّحليليّ وانْحباسه في مَنْحىً ضَيّقٍ؛ لإعادَةِ الاعْتبارِ لِتَساندِ الأدَواتِ والمُعطَياتِ وتَعاوُنِها في بُلوغِ الفَهْمِ وبِناءِ المَعاني، والإفْهامِ.

فَلَيْسَ التّأويلُ التّساندِيّ بَحْثاً في مَقاصدِ المؤلِّف أو صاحبِ النّصِّ، ولكنّه تَنظيمٌ للمُمارَسَةِ القِرائيّةِ والإقرائيّةِ، مَشروطٌ بقَوانينَ ومُحدِّداتٍ وأُطرٍ ومَرجعيّاتٍ. وتُراهِنُ تأويليّةُ التّساندِ عَلى جَعلِ القارئِ مُنتجاً بَليغاً للمَعْنى، يَنتَهي إلى مَعانٍ مَقبولة ومُنسَجمة، اعتماداً عَلى مَساراتٍ وَضوابطَ مُحدَّدة، ويَلزَمُ المُؤوِّلَ امتِلاكُ عَددٍ منَ المُدوَّناتِ الذّهنيّة والمَعرفيّةِ والمَنهجيّةِ والتّنسيقيّة

---

(١) محمّد بازي، التأويليّةُ العربيّةُ، نَحو نَموذَجٍ تَسانُديّ في فَهْم النُّصوصِ والخِطابات، منشوراتُ الاختلاف، ط١ (بيروت: الدّار العربيّةُ للعُلوم ناشرون، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

ومَهارات البَحث في عُلوم الآلَة وصناعة النّصّ. إنّ المُؤوّلَ البَليغَ يُجري تَعاوُناً حَقيقيّاً بينَ القَنوات الدّلاليّة النّصّيّة وموازياتها السّياقيّة، وفهم يمزجُ بينَ المُعطيات الجاهزَة والمَعرفَة الخَلفيّة وبَيْن الحَقائق التي تتكوّنُ في مَسار التأويل، فللمُؤوِّل البَليغ قُدرةٌ على دَمج عَناصر النّصّ بعضها في بعض؛ وهو قارئٌ ذو كفاية افتراضيّة وتصوُّريّة، مُتتبِّعٌ لجُمل النّصوص وعَلاماتها ورموزها، وذو كِفاية موسوعيّة تُمكّنُه من إشْباع الدّلالَة، وذو كِفاية استْدلاليّة وإقْناعيّة، وذو كِفاية تَنسيقيّة وتَحريريّة وإبْلاغيّة، تَسْمَحُ بتَركيب عَناصر فَهمه في خِطاب تأويليٍّ مُتّسق ومُنْسَجم.

وقد اعْتَمَدَ الباحثُ في عَرض مَساراته التّأويليّة عَلى ما دَعاهُ بالدَّوائر النّصّيّة التي تتمثّلُ في المَدخَل اللّغويّ والاشْتقاقيّ والتّراكيب النحويّة والبَلاغيّة والقِراءات، ثُمّ الدّوائر الكُبْرى التي تُغني القِراءَة، وتتمثّلُ في مَجموع العُلوم الأنْسجة الثّقافيّة التي ترفدُ التأويلَ وتَدْعمُه، وكُلُّها تَتسانَدُ وتتعاوَنُ في فَهم المَعنى وتَفْهيمه.

قَدَّمَ الباحثُ نَموذجَيْن لتأويل نَصّ سورة الفاتحَة، هُما تَفْسيرُ الكَشّاف وتَفْسيرُ ابن كَثير، وبيّنَ أنّ من مَهارات المُفسِّر مَوهبَة الأخذ والحفظ وكَثْرَة الاطّلاع والجَمْع بَيْن عُلوم آلية مُساعِدَة كَثيرة، وموْهِبَة التّحقيق والدّراسَة والبَحث عَن المُمْكنات الدّلاليّة في النّصّ المَوضوع للتأويل، ومَوهبَة التأليف والتّركيب والتّنسيق، ومَوهبَة التّيقُّظ والتّنبُّه

للإشاراتِ الظّاهِرَةِ والخَفيّةِ. ومَن اقْتَصَرَ عَلى فنٍّ واحدٍ فلَيس مُؤهَّلاً لبِنـــاءِ مَعاني النّصِّ القُرآنيّ.

إنّ القِراءَةَ التّفســـيريّةَ البانيةَ للمَعْنى ولَمقاصـــدِ النّصِّ القُـــرآنيّ فعـــلٌ شُموليٌّ توليفيٌّ بيْنَ موادَّ مُختلفةٍ مُتَسانِدَةٍ، يَستخرِجُه الُمفسِّرُ الُمؤوِّلُ لتَبْليغِـــه وبَيانِه للنّاسِ[1].

- مَظاهرُ «بناءِ النّصّ» في القرآن الكَريم:

يَحلو لِبَعْضِ الباحثِينَ الُمعاصرينَ أن يَنفوا عَن القُرآن الكَريمِ كُلَّ مَظاهِرِ النصّيّةِ الُموحَّدةِ للقرآنِ الكريمِ[2]، وأنه ليسَ نصاً منسجماً بالَمعْنى الحَـــديث، الذي يستلزمُ درجةً كبيرةً من التّرابُط في مُستوى التأليفِ اللّغويّ، فليسَ في القُرآن -بزعْمهِم- نَصٌّ مترابطٌ ولا مُنسَجمٌ بل لا يوجَدُ ذلـــكَ حتّـــى في السّورةِ الواحدةِ على الرّغمِ من الُمحاولاتِ الجادّة لبعض الدّراساتِ حـــولَ التّفسيرِ الموضوعيِّ للقرآن، والدّراسات الجادّة في الُمناسَبَة الموضـــوعيّة بـــينَ السّوَر، بَل ذهبَ هؤلاءِ الباحثونَ أيضاً إلى أنّ القُرآنَ الكَريمَ مجموعـــةٌ مـــن المدوّناتِ كمدوّنَة العَقيدَة ومُدوَّنَة الشّريعَة ومُدوَّنَة الوَعظِ ومدوَّنَة الغَيْـــب

---

(١) محمد بازي، التأويليّةُ العربيّةُ، نَحو نَموذَج تَسانُديّ في فَهْم النُّصوصِ والخِطابـــات، ص: ١٥٩، وما بَعْدَها.

(٢) انظُر: المصطفى تاج الدّين، التّحليل اللّسانيّ وعالَميّة القيم الدّينيّة، مجلّـــة الإحيـــاء، الرابطة المحمّديّة للعُلَماء، ع:٣٢-٣٣، رمـــضان ١٤٣١هـــ/أغـــسطس ٢٠١٠م، ص:١٦٨-١٨٣.

ومُدَوَّنةِ القصَص، ولكلِّ مدوَّنةٍ أسلوبُها وعباراتُها، وباستثناء مدوَّنة الشَّريعَة، يُمكنُ أن نتصوَّرَ درجاتٍ من الغُموضِ الدّلاليِّ تُتيحُ للتأويلِ مَكاناً في فهمِ النّصِّ والاجتهادِ فيه.

وهذا الرأيُ يفتقرُ إلى الأدلّةِ التي تُثبتُ خُلوَّ النّصِّ القُرآنيِّ من عَناصرِ التّماسُك والانسجامِ النّصّيّين، وهي عناصرُ اجتهَدَ عُلماءُ البلاغةِ وعُلومِ القُرآنِ لإثباتِها والبرهنَةِ عليْها بالشّواهدِ الكَثيرَة من الآياتِ والسُّوَر، وبسْطِها وبيانِها في كُتُبهِم.

النّصُّ القُرآنيُّ بناءٌ مُحكَمٌ مُتماسكٌ، يُفيدُ مَعْنىً مُحدّداً؛ قالَ اللهُ تعالى في مَطْلَعِ سورةِ هود، عن القُرآنِ الكَريم: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١). القُرآن الكَريم نصٌّ أتْقَنَه صانعُه، والإحْكامُ إتْقانُ الصُّنع، بحيثُ يَكونُ سالماً من الأخْلالِ التي تعرِضُ للنّصوصِ في اللّفْظ والمَعْنى. ومن المَعْلومِ أنّ الكَلامَ في الشّأنِ الواحدِ إذا انفرَطَ عقدُه و«ساءَ نظمُه انحلّتْ وحدَةُ مَعْناه، فتفرَّقَ من أجزائها ما كانَ مُجتمعاً، وانفَصَلَ ما كانَ مُتّصلاً... فَلا بُدَّ إذاً لإبْرازِ تلكَ الوحدَة «الطّبيعيّة» المعْنويّةِ من إحْكامِ هذه الوحدَةِ الفنّيّةِ «البيانيّة»، وذلكَ بتَمامِ التّقريبِ بين أجْزاءِ البيانِ والتأليفِ بينَ عَناصرِه حتّى تتماسَكَ وتتعانَقَ أشدَّ التّماسُكِ والتّعانُق»[1].

---

(١) محمّد عبد الله درّاز: النّبأ العَظيم، نَظرات جَديدَة في القُرآن، دار الثّقافَة، الدّوحَة- قَطَر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص:١٤٢-١٤٣.

١- انْسِجامُ النَّصِّ القُرآنيِّ وتَماسُكُ بِنائِه:

عندَما نتحدّثُ عن الانْسِجامِ والتّماسُكِ في النّصِّ، فإنّما نَتحَدّثُ عَن مِعْيارَيْن رَئيسَيْن من مَعاييرِ بناءِ النّصِّ أو ما يُدْعى بالنّصّيّة (Textuality)[١]؛ فالتّماسُكُ أو الاتّساقُ (Coherence) مَفهومٌ يُعْنى بخَصائصِ الرّبطِ النّحويِّ بينَ الجُمَلِ والعباراتِ لتأليفِ بنيةٍ نصّيّةٍ مُتَماسكةٍ مُتَرابطَةٍ، ويعتَمدُ الرّبطُ النّحويُّ على الإحالةِ والتّكرارِ والربطِ بحروفِ العطفِ والفَصلِ والوَصْلِ وغيْرِ ذلِكَ. أمّا الانْسِجامُ (Cohesion) فيدْخُلُ

---

(١) تُراجعُ المُؤلّفاتُ التي عُنِيَت بلسانيات النّصّ وتَحليل الخطاب، ومنها:

- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط٢ (الدار البيضاء: المركز الثّقافي العربي، ٢٠٠٦م).
- حسَن خَمري، نظرية النص، من بنيَة المَعنى إلى سيميائيّة الدّالّ، الدّار العربيّة للعُلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م،
- في نظرية الأدب وعِلْم النّصّ، بُحوث وقراءات، إبراهيم خَليل، الدّار العربيّة للعُلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط١، ٢٠١٠م،
- مدخَل إلى عِلم النّصّ ومجالات تطْبيقه، محمّد الأخضر الصّبيحي، الدّار العربيّة للعُلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط.١، ٢٠٠٨م،
- بَلاغة الخطاب وعلم النّصّ، صلاح فَضل، مكتبة لُبنان ناشرون، الشركة المصريّة العالَميّة للنّشر، لونجمان، بيروت، ١٩٩٦م
- علم لُغَة النّصّ، المَفاهيم والاتّجاهات، سَعيد حَسَن بحيري، ، مكتبة لُبنان ناشرون، الشركة المصريّة العالَميّة للنّشر- لونجمان، بيروت، ١٩٩٧م.
- المُصطلَحات الأساسيّة في لسانيات النّصّ وتَحليل الخطاب، دراسَة مُعجميّة، نعمان بوقرة، عالَم الكتُب الحديث، جدارا للكِتاب العالَميّ، الأردنّ، ط.٢، ٢٠١٠م.

فيه التّرابُطُ الموضوعيّ[1] للنّصّ، الذي يجعَلُ من النّصّ وَحدةً دلاليّةً. ومن مَظاهِرِه أيضاً اشْتمالُ النّصّ على سَيْرورةٍ واستمراريّةٍ وتطوّرٍ واتّجاه نحو غايةٍ محدّدةٍ تَضمنُ لَه التّدرُّجَ والانتقالَ وتَنْفي عَنه الانتقالَ غيرَ المُسَوَّغِ، ووجودُ مثلِ هذه العَلاقاتِ المعْنويّةِ داخلَ النّصّ يُيسِّرُ فهْمَه فَهماً مَنطقياً[2].

٢- جَمالُ الانسجامِ في النّصّ القُرآنيّ في كَونِه جُملةً مُوَحّدةً تَقومُ عَلى قاعدةِ التّناسُق:

بيّنَ الأستاذ سيّد قُطب، رَحمه الله، في كتابه «التّصوير الفنّيّ في القُرآن»، أنّ جَمالَ القُرآن الكَريمِ ليسَ في كَونه أجزاءً وتفاريقَ، وإنْ كانَ للأجْزاءِ جَمالٌ وسِحرٌ، ولكنّ جمالَه في كَونه جملةً موحّدةً تقومُ على قاعدةٍ خاصّةٍ فيها مِن التّناسُق العَجيب ما لا يُدرِكُه إلاّ مَن عَرفَ قيمَتَه وعانى قِراءَته ومُدارسَته، ووَقفَ على صَميمِ النّسَق القُرآنيّ الذي هو مَنبعُ التأثيرِ والسّحر[3]. ولهذا فإنّ القُرآن الكريمَ حَكى لنا من خلال قول الكُفّار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ (فُصّلَت:٢٦)، ما أصيبوا بِه من ذُعرٍ كان يضطربُ في نفوسِهِم، من تأثيرِ القرآن في نفوسِهِم ونفوسِ أتباعِهِم، فهُرِعوا لتحذيرِ قومِهِم عندَما أحسّوا في أعماقِهِم روعةَ هزّتْهُم هزّاً عنيفاً، فقالوا مستكبِرينَ متظاهرينَ بالغلبَة والظّهور

---

(١) مَدخَل إلى علمِ النّصّ ومجالات تَطبيقه، محمّد الأخضر الصّبيحي، ص ٨٢.
(٢) تَحليل الخطاب، براون ويول، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، الرّياض، منشورات جامعة الملك سَعود، ١٩٩٧م، ص٢٣٤.
(٣) يُنظرُ: سيّد قُطب، التّصوير الفني في القرآن.

على سحر القرآن، وهم يُخفون العَجـز: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال:٣١)، ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء:٥).

٣- انْسِجامُ الأداةِ التأويليّة:

من مَظاهرِ الانسجامِ تَفسيرُ القُرآنِ بالقُرآنِ، أي تفسيرُ النّصِّ بالنّصِّ من داخلِ النّسَقِ القُرآنيِّ نفْسه:

مِن أهمِّ مَزايا بَيانِ القُرآن بالقُرآن أنّه يضعُ اليَدَ على مظاهرِ التّماسُـك والانْسِجامِ في النّصِّ الكَريم، ويُكوِّنُ للمُفسِّرِ مَلَكَةً يُدرِكُ بها أساليبَ القُرآن ودَقائقَ نظمه، وفي ذلكَ قالَ ابنُ كَثيرٍ في خُطبةِ تَفسيره: «إنّ أصَحَّ الطُّـرُق في ذلكَ أنْ يُفسَّرَ القُرآنُ بالقُرآنِ، فما أُجْمِلَ في مَكانٍ فإنه قـد بُـسِطَ في مَوْضِعٍ آخرَ»[1]، وقالَ العُلَماءُ: «مَن أرادَ تفسيرَ كتابِ الله العَزيزِ طَلَبه أوّلاً من القُرآنِ؛ فَما أُجْمِلَ في مَكانٍ فقَد فُسِّرَ في مَوضعٍ آخرَ منه، فَمِن ذلكَ أنّه قد يَقعُ تَبْيينُ الآيَة مُنْفصلاً عَنْها أيْ يُلتَمَسُ في آيةٍ أخْرى نحو قوله تَعـالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ (البَقَرَة: ٢٣٠)، بَعدَ قَوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ (البَقَرَة:٢٢٩)؛ فَقَدْ بَيّنتْ أنّ المرادَ به الطّلاقُ الذي تملكُ الرّجْعَة بَعْدَه، ولَوْلا الآيَةُ المُبيِّنَةُ لَكانَ الأمرُ مُنْحصِراً في الطّلقَتَيْنِ. وقدْ أخْرجَ

(١) أبو الفِداء إسماعيلُ بنُ عُمَرَ بنِ كثير، تَفسير القُرآن العَظيم، تَحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

أحمدُ وأبو داوُدَ عَن أبي رزين الأسديّ قالَ: قالَ رجلٌ: يا رَسولَ الله أرأيتَ قولَ الله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾، فأيْنَ الثالثةُ؟ قالَ: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾. ومن ذلكَ قولُه تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة:١)، فَسَّرَ ما بعْدَه[1]: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ (المائدة:٣).

ويُلحَقُ بِبيانِ القُرآنِ بالقُرآن، بَيانُه بالسّنّة؛ فَكُلُّ ما حَكَمَ به رَسولُ اللهِ ﷺ فهو ممّا فَهِمَه مِن القُرآنِ، لقَولِه تَعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء:١٠٥)، وقالَ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)، وقالَ تَعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل:٦٤)، وقالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «ألا إنّي أوتيتُ القُرآنَ ومثلَه مَعَه»[2]، يَعني السّنّةَ. وقَدْ فَسّرَ النّبيُّ ﷺ قولَه تَعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩)، بقولِه: «مَفاتحُ الغَيْبِ خمْسٌ: إنّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَة، ويُنزِّلُ الغَيْثَ، ويَعْلَمُ ما في الأرْحامِ، وما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا، وما تَدْري نَفْسٌ بِأيِّ أرْضٍ تَموتُ، إنّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ»[3].

---

(١) جَلال الدّين عبْد الرّحمن السّيوطي: الإتقان في عُلوم القُرآن، تحقيق مُصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، دمشق/بيروت، ط.٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ج:٢، ص:٦٩٤-٦٩٥.

(٢) عَن المقْدَام بْن مَعْديكَرب: سُنن أبي داوُدَ، الحديث:٤٦٠٦، باب في لُزُوم السُّنّة.

(٣) صَحيح البُخاري، كتاب التّفسير، باب (وعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاّ هُوَ) والحَديثُ عَنْ سالِمِ بْنِ عَبْدِ الله عَنْ أَبيه.

فَقَــد بَيّنت السُّنّةُ أفعــالَ الصّلاةِ والحــجِّ ومَقاديرَ نصبِ الزَّكَــواتِ في أنواعِها.

أمّا إنْ لم يَجِد المُفسِّرُ في السّنّة رَجعَ إلى أقْوالِ الصّحابة؛ فَــإنّهُم أدْرى بذلكَ لِما شاهَدوه مِنَ القَرائنِ والأحْوالِ عِندَ نُزولِه، ولِما اختصّوا به مِــن الفَهمِ التّامِّ والعِلمِ الصّحيحِ والعَملِ الصّالحِ. وقد رَوى الحاكمُ في المُــستَدركِ أنّ تَفسيرَ الصّحابيِّ الذي شَهِدَ الوَحيَ والتنــزُّلَ له حُكمُ المَرْفوعِ(١).

وهكذا فإنّ شرحَ كلمةٍ قُرآنيّةٍ بأخرى أو جُملةٍ بأخرى أو آيةٍ بآيَــةٍ، من القُرآنِ الكَريــمِ لَــيُعَدُّ مَظهراً من مَظــاهرِ انْسِجــامِ النّصِّ القُــرآنيِّ، أمّا شَرحُها بأخرى من خارِجِ القُرآنِ فَلَنْ يُؤدّيَ المَعْنى المرجُوَّ، ويظلُّ شَرحاً تقريبيّاً لأنّ العبارَةَ اللُّغويَّةَ الشّارِحَةَ لا تَزنُ قيمَةَ العبارَةِ المُنزّلة وَحْياً. ولكنّــه على كلِّ حالٍ يظلُّ خاضعاً لمبدَأ التّرابُطِ بين مُكوِّناتِ النّصِّ، سواء أكــانَ ترابُطاً رَصفياً (نظمياً) أم كانَ ترابُطاً مَفْهومياً للأفكارِ، ويدخُلُ هذا الارتباطُ أو هذه العَلاقاتُ في باب «التّناصِّ»(٢)، بمَعْنى أنّ بينَ النّصّ وشَرْحه أو بيْنَــه وبيْنَ تَفْســيرِهِ وتأويلِه، أو بينَه وبينَ ترجمتِه أو تَرْجمَةِ مَعانيهِ إلى لغةٍ أخــرى

---

(١) الإتقان: ج:٢، ص:١١٩٧.

(٢) هذا نوعٌ من التّساندِ التّأويليّ بينَ نصوصِ القُرآن الكَريمِ يُعبّرُ عنه أهلُ لسانياتِ النّصّ بالتّناصّ [Intertextuality]، ومعنــاه أنّ مَعْنى نصٍّ ما يوجَدُ في نصٍّ آخرَ من داخله أو من خارجِه، يُنظَرُ: تمّام حسّان: مَفاهيمُ ومَواقفُ في اللّغةِ والقُرآن، ص: ٤٤٣. وقد سَمّى د.تمام حسّان هذا المَبْدأ التحليليّ بمبدأ التّكافُل بينَ أجزاءِ النّصّ الواحِدِ.

أو مُحاكاته، أو أيّ شيءٍ من هذا القَبيلِ، رابطة تُسَمّى «التّناصّ»، فمن التّناصّ تَفْسيرُ القُرآنِ بالقُرآنِ، وتَخْصيصُ السُّنّة لعُمومِ القُرآن... »[1].

٤- تَناسُبُ أجزاء النص:

مِنْ مَظاهرِ انْسجامِ النَّصّ القُرآنيّ وتَماسُك بنائه: تَناسُبُ أجْزائه:

يَدخلُ في هذا البابِ كلُّ المَباحث اللّغويّة والنّحويّة والبلاغيّة التي تُعْنى بالعلاقات الكُبْرى بينَ أجزاءِ النّصّ، ومن شأن هذه الدّراسَة النّصّيّة أنْ تُجنّبَ النّصّ القُرآنيّ القِراءةَ التّجزيئيّةَ، وتُقدّمَ قِراءةً جامعةً تنتظمُ فيه الكَلماتُ والآياتُ والسّورُ في سلك واحد، وتَنتظمُ فيه المَعاني والدّلالاتُ والمَقاصدُ في أصلٍ واحد، فيَبْدو النّصُّ القرآنيّ كلُّه قطعةً واحدةً يَكونُ فيها الكَلامُ مُتحدّراً تَحدُّرَ الماءِ المُنسَجِم، سُهولةَ سَبك وعُذوبةَ ألفاظ، وجَمْعَ مَعانٍ، وهذا الجامعُ بين الأجزاءِ هو الذي سَمّاه الإمامُ البقاعيّ بالأمْرِ الكُلّيّ المفيدِ لعرفانِ مُناسَباتِ الآياتِ في جَميعِ القُرآن[2]، وهو أنّكَ تَنظرُ الغَرضَ الذي سيقَتْ له السّورةُ، وتَنظرُ ما يَحتاجُ إليه ذلكَ الغَرضُ مِن المقدّمات، وتَنظرُ إلى مَراتبِ تلكَ المقدّماتِ في القُربِ والبُعدِ منَ المطلوبِ، وتَنظرُ عندَ

---

(١) للتوسّع في مبدأ التّناصّ، يُنظَرُ: تَمّام حَسّان، البَيان في رَوائعِ القُرآن، مَنشورات عالَم الكتب، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م، ج:١، ص:٤٠٣ و٤٥٧.

(٢) وهذا ما يُعرَفُ بعلمِ التّناسُبِ أو علم المُناسباتِ، وهو علمٌ تُعرَفُ منه عِلَلُ التّرتيب، وموضوعُه أجزاءُ الشّيءِ المَطلوب علمُ مُناسبتهِ من حيثُ التّرتيب، وثَمرَتُه الاطّلاعُ على الرّتبة التي يستحِقُّها الجُزْءُ بسَبَبِ ما لَه بِما وَراءه وما أمامَه منَ الارتباطِ والتّعلّق، بناءً على أنّ اسمَ كلّ سورةٍ مُترجِمٌ عَن مَقصودها، ومقصودُ كلّ سورةٍ هادٍ إلى تَناسُبها؛ الإمام إبراهيم بن أبي بكر البقاعي: نظمُ الدُّرَر في تَناسُب الآياتِ والسُّوَر، تحقيق: عبد الرّزّاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، انظر مُقدّمَة الكتاب.

انجرارِ الكَلامِ في المقدِّمات إلى ما يَستَتْبِعُه من استْشراف نَفْسِ السّامعِ إلى الأحْكامِ واللّوازمِ التّابعةِ لَه، فَهذا هو الأمْرُ الكُلّيّ المهيْمنُ عَلى حُكمِ الرّبط بين جَميعِ أجْزاءِ القُرآن، وإذا فَعلتَه تَبيّنَ لكَ إنْ شاءَ اللهُ وَجهُ النّظمِ مُفصَّلاً بين كُلّ آيةٍ وآيةٍ في كُلِّ سورةٍ سورةٍ. وقد أشارَ الإمامُ فَخر الدّين الرّازي إلى أنّ أكثَرَ لَطائفِ القُرآن الكَريم مودَعَةٌ في التّرْتيبات والرّوابط[1].

ويَدخُلُ في بابِ المناسَبةِ **التّذييلُ** وهو بابٌ من أبوابِ البَديع، وهو ضَربٌ من التّعقيبِ على ما سَبَقَ في الآية؛ وهو أن يُؤتى بَعدَ تَمامِ الكَلامِ بكلامٍ مُستقلٍّ في مَعنى الأوّلِ تَحقيقاً لدلالةِ مَنطوقِ الأوّلِ أو مَفهومِه؛ ليكونَ معه كَالدّليل ليظهرَ المعنى عندَ مَن لا يَفهمُ ويَكْملَ عندَ مَن فَهِمَه، كَقولِه تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ﴾ (سبأ:١٧)، ثمّ قالَ تَعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ (سبأ:١٧)؛ أي لا يُجازى ذلكَ الجزاءَ الذي يَستحقُّه الكَفورُ إلاّ الكَفورُ[2]، ومثلُه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ﴾ (الإسراء:٨١)، وبَعْدَه: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء:٨١).

فالمُلاحَظُ أنّ بينَ مَضمونِ الآية ومَضمونِ التّذْييلِ انسجاماً وتآلُفاً وتَناسُباً؛ فَلا تجدُ آيةَ عقابٍ تُذيَّلُ بآيةِ رِضوانٍ، فإنّ البَيانَ القُرآنيَّ بقيَمِه وأدواته يتّجِه نَحوَ رِعايَةِ مَطالبِ المَعْنى وتَناسُبِ الصّدورِ والخَواتيم؛ ومن الشّواهدِ على عِباراتِ التّذييلِ، قَولُه تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو

---

(١) البقاعي: نَظمُ الدُّرَر في تَناسُب الآيات والسُّوَر، المقدّمة.

(٢) البُرهان، ج:٣، ص:٦٨-٦٩؛ والإتقان: ج:٢، ص:٨٦٩.

﴿فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٥٢)، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (آل عمران:١٥٣)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (آل عمران:١١٩)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ (آل عمران:١٥٥)، كلُّ آيةٍ من هذه الآياتِ وَرَدَت في سِياقِ التّذييلِ لما قبلَها، بَعْدَ تَمامِ المَعْنى.

ويدخُلُ في المُناسَبَةِ أيضاً بابٌ من أبوابِ البَديعِ، وهو التّتْميمُ؛ وهو إرْدافُ الكَلمةِ بأُخرَى تَرْفَعُ عنها اللَّبْسَ وتُقَرِّبُها من الفَهْم، و تُتِمُّ المَعْنى إما مُبالغة أو احْترازاً أو احْتياطاً، نَحو قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ (البَقَرَة:٢٠٦)، تمّ المَعْنى بقولِه ﴿بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾؛ وذلك أنّ العزَّةَ تكونُ محمودةً ومَذمومةً؛ فَمِنْ مَجيئِها مَحمودةً: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (المنافقون:٨)، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (المائدَة:٥٤)، فلو أُطْلِقَتْ كلمةُ العزّةِ لَتَوَهَّمَ فيها بعضُ مَنْ لا عنايةَ له العزّةَ المحمودةَ، لِذلكَ قيلَ: ﴿بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ تتميماً للمرادِ فَرَفعَ اللَّبْسُ بها[1].

ففي اللّفظِ المُتَمِّمِ اللاحقِ يَكْملُ به المَعْنى؛ إذْ يأتي المعنى غَيرَ مَشروحٍ وربما كان السامع لا يتأمَّله ليعودَ المتكلّمُ إليه شارحاً، نحو قَولِه تَعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان:٨)، فالتّتميمُ

(١) أحمَد بن يوسُفَ السّمينُ الحَلَبيّ: الدّرّ المَصون في عُلوم الكِتابِ المكْنون، تحقيق أحمد محمّد الخرّاط، دار القَلَم، دمَشق، ١٩٩٤م، ج:٢، ص: ٣٥٤-٣٥٥.

في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ جُعلَ الضّميرُ الهاءُ كِنايةً عن الطّعامِ مَــع اشْــتِهائه. وكذلك قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ (البقرة:١٧٧)، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ (النساء:١٢٤)، فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتمــيمٌ في غايةِ الحُسنِ[1].

ويدخُلُ في المُناسبَةِ أيضاً تَجانُسُ الألفاظِ والمُزاوجَةُ بينَهــا؛ كَقَولــه تعـــالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقــرَة:١٩٤)، ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقــرة:١٤-١٥)، ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ (النــساء:١٤٢)، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (الطّارق:١٥-١٦)، ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ (آل عمران: ٥٤)، ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشّورى:٤٠)، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ (الرّحمن:٦٠)، ومنْ قَبيلِ المناسبةِ أيْــضاً: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ (التوبـــة:١٢٧)، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[2] (النور:٣٧).

---

(١) البُرْهان، ج:٣، ص:٧٠.

(٢) وانظُر تَفصيلَ الكَلامِ عن المُناسبَة في كتاب: مجد الدّين الفيْروزابادي: بَصائر ذَوي التّمييز في لَطائف الكِتابِ العَزيز، تحقيق محمّد عليّ النّجّار، المكتبة العلميّة، بيروت، ج:١، ص٧٠.

ولقَد أشارَ الجاحظُ إلى نَظمِ القُرآنِ واستمرارِه واطّراد أساليبه على الصّفةِ العاليةِ في البَلاغةِ والفَصاحَة، فَقالَ: «وقَد يستخفُّ النّاسُ ألفاظاً ويَستعملونَها وغيرُها أحقُّ بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكُرْ في القُرآنِ الجوعَ إلاّ في مَوضعِ العقابِ أو في مَوضعِ الفَقر المُدْقِع والعَجْزِ الظّاهرِ، والنّاسُ لا يَذكُرونَ السَّغَبَ ويَذكُرونَ الجوعَ في حالِ القُدْرة والسّلامةِ، وكَذلكَ ذِكْرُ المطرِ؛ لأنّكَ لا تجدُ القُرآنَ يلفظُ به إلاّ في مَوضعِ الانتقامِ، والعامّةُ وأكثرُ الخاصّةِ لا يَفْصلون بين ذِكْرِ المطر وبَينَ ذِكرِ الغَيث، ولفظُ القُرآن الذي عليه نَزَلَ أنّه إذا ذَكَرَ الأبصارَ لم يقُل الأسماع، وإذا ذَكَرَ سَبعَ سَمواتٍ لم يَقُل الأرَضينَ، ألا تَراه لا يجمعُ الأرْضَ أرَضينَ، ولا السَّمْعَ أسماعاً، والجاري عَلى أفْواه العامّة غَيرُ ذلكَ، لا يَتفقّدونَ مِنَ الألفاظِ ما هو أحقُّ بالذكر وأولى بالاستعمال...»[1].

وفرّقَ في مَوضعٍ آخرَ بينَ نَظْمِ القُرآن وتأليفِه وبيْن نَظمِ سائرِ الكَلامِ وتأليفِه؛ فليْسَ يعرِفُ فُروقَ النّظمِ واختلافَ البحثِ والنّثرِ إلاّ مَن عرَفَ القَصيدَ من الرّجزِ، والمُخمَّسَ من الأسجاعِ والمُزاوَجَ من المَنْثورِ والخُطَبَ من الرّسائلِ... فإذا عرَفَ صنوفَ التّأليفِ عرَفَ مُبايَنةَ نَظمِ القُرآنِ لسائرِ الكلامِ[2].

---

(١) أبو عثْمان الجاحِظ: البَيان والتّبيين، تحقيق عبد السّلام مُحمّد هارون، مط. المَدَنيّ، القاهِرَة، ط٧ (القاهِرَة: نَشر مَكتَبَة الخانجي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م) ٢٠/١.

(٢) أبو عثْمان الجاحِظ، كتاب العُثْمانيّة، تحقيق عبد السّلام مُحمّد هارون، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ص ١٦.

والدّليلُ على هذا الأمرِ الكُلّيّ عَلى سَبيل المثالِ لا الحَصرِ سورةُ الفاتحة التي تُعدُّ أمَّ الكتاب؛ فقَد «اشتَمَلتْ عَلى أمّهاتِ المطالبِ العاليةِ أتمَّ اشتمالٍ، وتَضمّنتْها أكْملَ تَضمُّنٍ...»[1]، ثمّ أخبرَ تعالى بهذا المَعْنى في قولِه سُبحانَه: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)، فالإحكامُ إحْكامٌ لبناءٍ مَتينٍ حتّى لا يَخرقَه خارقٌ، «القُرآنُ محفوظٌ ومُغلقٌ بإحكامٍ أمامَ كلِّ مُحاولاتِ الاختراق»[2]، فهُو بناءٌ واحدٌ مُتماسكٌ لا يقبلُ التّجزُّؤَ أو التّعدّدَ، فَلا يقبلُ كتابُ الله أن نهتمَّ بجانبٍ منه ونُهمل الجَوانبَ الأخرى، فَلا تفتَحُ الآياتُ والسورُ مَعْناها لقارئها حتّى يعرِضَها على سياقِها ومَوقعِها من النّصّ القُرآنيّ كلّه.

والنّصُّ القُرآنيّ نَصّ مُتماسكٌ تَترابطُ ألفاظُه تَرابُطاً لغوياً نحوياً مَتيناً، ويُنشئُ التّرابُطُ نظاماً ومعماراً مُحكَماً لا يقبلُ التّجزيءَ، حتّى قالوا: إنّ القُرآنَ الكَريمَ كلّه كالسّورةِ الواحدَة، يذكُرُ الشيءَ في سورةٍ ويأتي بالجَوابِ في سورةٍ أخرى[3]، نحو: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ

---

(١) ابنُ قيّم الجوزيّة: مَدارج السّالكينَ بينَ مَنازلِ إيّاكَ نَعبدُ وإيّاكَ نَستعينُ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م) خطبة الكتاب.

(٢) طه جابر العلوانيّ: الوحدة البنائيّة للقُرآن المَجيد، سلسلة دراسات قُرآنيّة (٣)، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، ط.١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص:١٣.

(٣) ابن هشام الأنصاريّ: مُغني اللّبيب عَن كتُب الأعاريب، تحقيق عبْد اللّطيف محمّد الخَطيب، نشر المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، السلسلة التّراثيّة، ط.١، الكُويت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٣/٣٣٦-٣٤٠.

لَمَجۡنُونٞ﴾، وجوابه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ (القَلَم:٢)، فالكَلامُ القُرآنيُّ كلُّه في جرَيانٍ كالماءِ المُنسجِم؛ وكلّما قَويَ الانسجامُ حسبْتَ فقراته موزونةً بلا قَصدٍ[1]، نحو قولِه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ (الكهف:٢٩)، وقولِه: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ (هود:٣٧)، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ (البقرة:٢١٣)، وقوله: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ (الحجر:٤٩-٥٠).

تختلفُ ألفاظُ القُرآن الكريمِ و لا تَراها إلاّ مُتّفقةً، وتفترِقُ ولا تَراها إلاّ مُجتمعةً، وتذهَبُ في طَبَقاتِ البيانِ وتَنتقلُ في مَنازلِ البلاغة، وأنتَ لا تعرِفُ منها إلاّ روحاً تُداخلُك بالطَّرب، وتُشربُ قلبَكَ الرّوعَةَ... فأنتَ في القُرآن حتّى تفرُغَ منه، لا تَرى غيرَ صورةٍ واحدةٍ من الكَمالِ وإن اختلَفَت أجزاؤُها في جهاتِ التّركيبِ وموضِعِ التأليف وألوانِ التّصويرِ وأغراضِ الكَلامِ، كأنّها تُفضي إليكَ جُملةً واحدةً حتّى تُؤخَذَ بها[2].

---

(١) جلال الدّين السّيوطي: مُعتَرك الأقران في إعجاز القُرآن، تحقيق أحمد شمس الدّين (بيروت: دار الكُتُب العلميّة) ٢٩٥/١...؛ والإتقان، ٩٠٨/١-٩١٠.

(٢) انظرْ التّفصيل في: مصطفى صادق الرافعي: إعجازُ القُرآن والبَلاغَةُ النبويّة، ص٢٤٠-٢٤١.

٥- الجمعُ بينَ غرَضيْنِ مُختلفيْن:

ومن مَظاهرِ الانسجامِ أيضاً الجمعُ بينَ غرَضيْنِ مُختلفيْن، كالجمعِ بينَ التّعزيةِ والفَخرِ في قولِه تعـالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرّحمن:٢٦-٢٧)، فقَد عزّى جميعَ المخلوقاتِ وتمـدَّحَ بالبَقاءِ بعْدَ فَناءِ الموْجوداتِ، مَع وصفِ ذاته بالجَلالِ والإكْرام.

٦- المُلاءَمَةُ والائتلافُ بينَ اللّفظِ واللّفظِ، وبيْنَ اللفْظِ والمَعْنى:

ومِن مَظاهرِ الانْسِجامِ أيضاً المُلاءَمَةُ والائتلافُ بينَ اللّفظِ واللّفـظِ، وبيْنَ اللفْظِ والمَعْنى، لتَتعادَلَ في الوَضعِ وتتناسَبَ في النّظْم:

- تكلَّمَ المُفسِّرونَ في ائْتلافِ الألفاظِ ومُلاءمةِ بعضِها بعضاً وتَرْتيـبِ اللفظةِ مع اللفظةِ التي تَصلُح أن تَليَها أو تسبِقَها فيحْسُن مَعها المَعْنى، فَمـن ذلك ما جاءَ في تَفْسيرِ ابنِ عطيّةَ للآية ٣٤ من سـورةِ الطّـورِ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطّور:٣٤)، قال: «والمُماثَلةُ المَطلوبةُ منهُم هي في النّظمِ والرّصفِ والإيجازِ [...] فإذا تَرتَّبَت اللّفظةُ في القُـرآنِ علِمَ -بالإحاطة- التي تَصلُحُ أن تليَها ويَحسُنُ مَعها المَعْنى، وذلكَ مُتعذّرٌ في البشرِ»[1]. ثُمّ ذَكَرَ في تَفْسيرِ مَقْطعٍ من الآية ٣٨ من سورةِ يونُسَ: ﴿فَأْتُوا

---

(١) ابنُ عطيّةَ الأندلُسي: المُحرَّرُ الوَجيزُ في تَفْسيرِ الكتابِ العزيز، تحقيـق: الرّحّالـة الفاروق، عبد الله بن إبراهيم الأنصاريّ، السيد عبْد العال الـسّيّد إبـراهيم، محمّـد الشّافعيّ الصّادق العناني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بقَطَر، طبعة دار الخَيْر، دمشق، ط.٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج:٨، ص:٩٨.

﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أنّ التّحدّي في هذه الآيَةِ وقَع بجِهَةِ الإعْجازِ التي في القُرآن؛ وهي النّظمُ والرّصفُ والإيجازُ والجَزالَةُ، كلٌّ ذلك في التّعريف بالحَقائق، فالبَشَرُ مُقصِّرٌ عن نَظمِ القُرآنِ إذ الله تَعالى قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً؛ فإذا قَدّر الله اللّفظةَ في القُرآنِ علمَ بالإحاطَة اللّفظةَ التي هي ألْيَقُ بها في جَميع كلامِ العربِ في المَعْنى المَقصودِ حتّى كمُل القرآنُ على هذا النّظام، الأوْلى فالأوْلى... «ونحنُ نجدُ العربيَّ يُنقّحُ قَصيدَتَه، وهي الحَوليّاتُ، يُبدِّلُ فيها ويُقدّمُ ويُقدّمُ ويؤخّرُ، ثمّ يدفَعُ تلكَ القصيدةَ إلى أفْصَحَ منه فَيَزيدُ في التّنقيحِ... وميَّزَت فُصَحاءُ العَرَبِ هذا القَدرَ من القُرآنِ وأذْعَنَت لَه لصحّةِ فطْرَتِها وخُلوصِ سَليقَتِها... والقَدرُ المُعجزُ من القُرآنِ ما جَمَعَ الجهتَيْنِ: اطّرادَ النّظمِ والسَّرْدِ، وتَحْصيلَ المَعاني وتَرْكيبَ الكَثير منها في اللّفظِ القَليلِ»[1].

– فَمن ائْتلاف الألفاظ مُلاءَمَةُ بَعضِها بَعضاً في الغَرابَة، نحو قَوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ (يوسُف:٨٥)، فقد أقسَم بأغربِ ألفاظِ القَسَم وهي التّاء، وبأبعَد صيغِ الأفعالِ النّاسخَة وهي ﴿تَفْتَؤُا۟﴾؛ فإنّ ﴿تَفْتَؤُا۟﴾ أغربُ من «تَزالُ» وأقلُّ استعمالاً منْها، ثمّ جاءَ بأغربِ ألفاظِ الهَلاكِ وهو «الحَرَضُ»، فاقتضى حُسنُ الوَضعِ في النّظمِ أن تُجاوَرَ كلُّ لفظةٍ بالتي من جِنْسِها في الغَرابةِ وتُقْرَنَ بها توخّياً لحُسنِ الجوارِ ورِعايةً لائتلافِ المَعاني بالألفاظِ.

---

(١) ابنُ عطيّةَ الأندلُسيّ: المُحرّرُ الوَجيزُ في تَفْسيرِ الكتابِ العَزيز، ٤/٤٨٢.

- ومن مُلاءَمة الألفاظ لمعانيها التّناسُبُ بين اللّفظِ والمعنى في الفَخامَة أو الجَزالَة أو الغَرابَة أو التّداوُل أو التّوسُّط والاعْتدال، ومن شواهده قولُـــه تَعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (هــود:١١٣)؛ فالرّكونُ إلى الظّالمِ دونَ مُشاركَته في الظُّلم، يُعاقَبُ عَليْه بالمَسِّ بالنّارِ فقط، دونَ الإحــــــراق، وقولـــــــه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البَقَرة:٢٨٦). فقَد جاءَ بلفظِ الاكتسابِ الذي يُشعرُ بالكُلفة والمُبالغَــة في جانبِ السّيِّئة لثقلها[1]، ومن ذلكَ أن الفعلَ ﴿فَكُبْكِبُواْ﴾ في قولِــه تعــالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ (الشّعراء:٩٤) أبلغُ من الفعلِ «كُبّوا» لأنّها في الأوّل معنى الكَبِّ العنيف، و﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ في قَولِــه تعــالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (فاطِر:٣٧)، أبلغُ من «يَصْرُخون» لأنّهُم يَصرُخونَ صُراخاً مُنكَراً خارِجــاً عن الحدّ المُعتادِ، واصْطَبرْ أبلغُ من «اصْبِرْ».

٧- حُسْنُ النّسَق:

ومن مَظاهرِ الانسجامِ أيضاً حُسْنُ النّسَق:

وهو أن يأتيَ المتكلّمُ بكلمات مُتتاليات مَعطوفاتٍ مُتلاحمات تلاحُمــاً سليماً مُستحسَناً، بحيثُ إذا أُفْردَت كلُّ جملةٍ منه قامَت بنفــسِها واســتقلّ معناها بلفظِها؛ ومن أجمَلِ ما ذكَرَه أهلُ البلاغةِ والتّفسيرِ وعُلومِ القُــرآنِ في

(١) السيوطي: الإتقان: ج:٢، ص:٩١١، مُعترك الأقران: ج١، ص:٢٩٥....

الآيةُ الرابعةُ والأربَعونَ من سورةِ هود ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، وما تحدّثَ عنه ابنُ مَعصوم المَدَنيّ في باب «حُسن النَّسَق»[1] حيثُ بيّنَ تَنسيقَ الصّفاتِ وهو ذكْرُ كَلماتِ مَعطوفات مُتلاحمات تَلاحُماً سَليماً مُستحْسَناً، بحيثُ إذا أُفردَت كلُّ جُملة منه قامَت بنفسِها، واستَقلّ مَعناها بلَفظِها، وأكبَرُ شاهدٍ على ذلك فاتحةُ الكِتاب، وقد بيَّنَ الإمامُ البقاعيّ وجهَ الانسجامِ والتّماسُك في نصّ أمّ الكِتابِ، بقولِه: «وكانَتْ سورةُ الفاتحة أمّاً للقُرآنِ، لأنّ القُرآنَ جَميعَه مُفصّلٌ من مجمَلِها، فالآياتُ الثّلاثُ الأولُ شاملةٌ لكلّ مَعنىً تَضمّنته الأسماءُ الحسنى والصّفاتُ العُلى، فكلّ ما في القُرآنِ من ذلكَ فهو مُفصّلٌ من جَوامعِها، والآياتُ الثلاثُ الأُخَرُ مِن قَولِه: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ شاملةٌ لكلّ ما يُحيطُ بأمر الخَلْق في الوُصولِ إلى الله والتّحيُّزِ إلى رَحمةِ الله والانقطاعِ دونَ ذلكَ، فكلُّ ما في القُرآنِ منه فَمن تَفصيلِ جَوامِعِ هذه، وكلُّ ما يَكونُ وُصْلةً بَين ما ظاهرهنّ هذه من الخلق ومبدؤه وقيامه من الحق فمفصّلٌ من آية ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾»[2].

ونَعودُ إلى آيةِ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود:٤٤)، لنلحَظَ أنّ جُمَلَ الآيةِ مَعطوفٌ بَعضُها عَلى بَعضٍ بواوِ النَّسَق، عَلى التّرتيبِ الذي تَقتَضيه البَلاغةُ مِن الابتداءِ بالأهمّ الذي هو انحسارُ الماءِ

(١) نقلاً عن السّيوطيّ في الإتقان.
(٢) نَظم الدُّرَر في تناسب الآيات والسُّوَر، ج:١، ص:٢٣.

عن الأرضِ المُتوقِّف عليْه غايةُ مطلوبِ أهلِ السَّفينةِ من الإطلاقِ من سجْنِها، ثمّ انقطاعِ ماءِ السَّماءِ المتوقِّفِ عليْه تمامُ ذلكَ مِن دفْعِ أذاه بعدَ الخُروجِ ومنع إخلافِ ما كانَ بالأرضِ، ثمّ الإخبارِ بذهابِ الماءِ بعدَ انقطاعِ المادّتيْنِ الذي هو متأخِّرٌ عنه قَطعاً، ثمّ قَضاءِ الأمرِ الذي هو هلاكُ مَن قُدِّرَ هلاكُه ونجاةُ مَن سبقَ نجاتُه، وأُخِّرَ عمّا قبلَه؛ لأنّ عِلْمَ ذلكَ لأهلِ السَّفينةِ بعدَ خُروجِهم مَوقوفٌ على ما تَقدّمَ، ثمّ أخبرَ باستواءِ السَّفينةِ واستقرارِها المُفيدِ ذهابَ الخَوفِ وحُصولَ الأمنِ مِن الاضْطِرابِ، ثمّ ختمَ بالدّعاءِ على الظّالمينَ لإفادةِ أنّ الغَرقَ وإنْ عَمّ الأرضَ فلَم يَشملْ إلاّ مَن استَحقَّ العذابَ لظُلمِه(١).

---

(١) عليّ صدر الدّين بن مَعْصوم المَدَنيّ (ت١١٢٠ هـ): أنوار الرّبيع في أنواع البَديع، تحقيق شاكر هادي شكر، مط. النّعمان، النّجف الأشرف، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م ج٦، ص١٣٣. وهذا الكلامُ مأخوذٌ عن السّيوطي بتصرّفٍ يسير: الإتقانُ في عُلوم القرآن: ج٢، ص٩٢٥. وقد سبقَ أنْ بيّنَ عبدُ القاهر الجُرجانيّ مزيّةَ ألفاظ آيَة ﴿وقيلَ يا أرضُ ابْلَعي﴾ في ارتباطِ بعضِها ببعضٍ وائتلافِها فيما بينَها، وبرْهَنَ على أنّه لا يقعُ في وَهمٍ أن تتفاضلَ كَلمتانِ مُفردَتانِ مِن غيرِ أنْ يُنظرَ إلى مَوقعِهما مِن التّأليفِ والنّظمِ، ولا تَجدُ أحداً يقول: هذه اللفظةُ فصيحةٌ، إلاّ وهو يَعتبرُ مَكانَها مِن النّظمِ وحُسنِ مُلاءَمةِ مَعناها لمعنى جاراتِها، وفَضلِ مُؤانَستِها لأخَواتِها. ولا يقولون: لَفظةٌ مُتمكّنةٌ ومَقبولةٌ، أو قَلقةٌ ونابيةٌ ومُستكرَهَةٌ، إلاّ وغرضُهم أنْ يُعبّروا بالتّمكّنِ عن حُسنِ الاتّفاقِ بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقَلقِ والنّبوِّ عن سوءِ التّلاؤمِ. ولا يشكُّ النّاظرُ في قوله تَعالى: ﴿وقيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ويا سماءُ أقلِعي وغيضَ الماءُ وقُضيَ الأمرُ واستَوَتْ على الجوديِّ وقيلَ بُعداً للقومِ الظّالمين﴾، أنّ ما وَجَدَه مِن المزيّةِ الظّاهرة، إلاّ لأمرٍ يَرجِعُ إلى ارتباطِ هذه الكَلِمِ بَعضِها ببعضٍ، ولَنْ لمْ يَعرِضْ لها الحُسنُ والشّرفُ إلاّ مِن حيثُ لاقَت الأولى بالثّانيةِ والثّالثةَ بالرّابعةِ، وهكذا، إلى أنْ يَستَقريَها إلى آخرِها. انظرْ رأيَ عبدِ القاهرِ بتفصيلٍ في كتابِه: دَلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص: ٤٤-٤٦.

ومنه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠)، وَعظَ في ذلك بألطف مَوعظة، وذَكَّرَ بألطف تَذكِرة، واستَوعَبَ جَميعَ أقسامِ المَعروفِ والمُنكرِ، وأَتى بالطِّباقِ اللّفظيِّ والمعنويِّ، وحُسنِ النَّسَق وحُسنِ البَيانِ والإيجاز، وائتلافِ اللّفظ معَ معناه.

ومنه: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ (النّازعات:٣١)، وهي آيةٌ مُحتويةٌ عَلى حاجاتِ الحيوانات كافّةً، وهذا ما يُسمّى بالكلمَة الجامعَة أو جَوامع الكَلِم، ومن ذلكَ قولُه تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ (الأنعام:١٥١)، إلى آخر الثلاث الآيات الجامعَة لجميعِ الأوامر والنَّواهي، ومصالح الدُّنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (القصص:٧)، يَشتمِلُ عَلى أمرَينِ، ونَهيَينِ، وخبَرَينِ، وبِشارتَينِ[1].

---

(١) بَصائر ذوي التّمييز في لَطائف الكِتابِ العَزيز، مجد الدّين الفيروزابادي، ج:١، ص٧١-٧٢.

٨- اللّفُّ والنّشْرُ:

ومن مَظاهرِ الانسجامِ أيضاً اللّفُّ والنّشْرُ[1]:

وهو أن يُذكَرَ شيئان أو أكثرُ، إمّا إجمالاً، أو تفصيلاً بالنّصّ على كلّ واحد، فَمن الإجمالِ قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ (البَقَرة:١١١)؛ أي قالَت اليهودُ لن يدخُل الجنّةَ إلاّ مَن كانَ هوداً، وقالَت النّصارى لن يدخُلَ الجنّةَ إلاّ مَن كانَ نصارى، والّذي سوّغَ الإجمالَ في اللّفّ ثُبوتُ العنادِ بين اليهودِ والنّصارى؛ إذ يقصرُ كلُّ فريقٍ دُخولَ الجنّةِ على فريقِه وملّته، فعُرِفَ عقلاً أنّه يُرَدُّ كلُّ قولٍ إلى فريقِه لأمنِ اللّبْس. ومن التّفْصيلِ قولُه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصَص:٧٣)، فالسّكونُ راجعٌ إلى اللّيلِ وابتغاءُ الفَضلِ راجعٌ إلى النّهارِ، ومن التّفْصيلِ أيضاً: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء:٢٩)، فاللّومُ راجعٌ إلى البُخلِ، وكونُه محسوراً راجعٌ إلى الإسْرافِ.

٩- المُشاكلَةُ أو التّشاكُلُ:

ومن مَظاهرِ الانسجامِ أيضاً المُشاكلَةُ أو التّشاكُلُ[2]:

وهو ذِكْرُ الشيءِ بلفظِ غيرِه لوقوعِه في سياقِه، فَكَلماتُ النّصّ تدخُلُ

---

(١) الإتقان: ج٢/ص:٩٢٩، ومُعتَرَك الأقران: ج١/ص:٣١٠.

(٢) الإتقان، ٩٢٩/٢؛ ومُعتَرَك الأقران، ٣١٠/١.

في علاقة مُشاكلة، فتكونُ كلُّ كلمةٍ من تلكَ الكلِمات مُحمَّلَة بقُيود تُخصِّصُها، فتُرَجِّح خصائصَ وتَستغني عَن أخرى، حتّى تنْسَجمَ أجزاءُ الكلامِ، وذلكَ أنَّ الكلمةَ في ذاتِها تكونُ متعدِّدةَ السِّماتِ والدّلالاتِ، ولا تتخلّصُ من كَثافتِها إلاّ عندَما تندرِجُ في سياقٍ تركيبيٍّ مُعيَّن، وذلك لتحصيلِ التّشاكُلِ الدّلاليّ (Isotopie)[1]، ومن التّشاكُلِ قولُه تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ (المائدة:١١٦)، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (آل عمران:٥٤)، فإنَّ إطلاقَ النّفْسِ في جَنبِ اللهِ سُبحانَه، إنّما وردَ لِمُشاكلَة ما معَه، وكذلك المكرُ. ومثلُه في التّشاكُلِ بين اللّفظيْنِ قولُه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ﴾ (الشّورى:٤٠)؛ لأنّ الجَزاءَ حقٌّ لا يوصفُ بأنّه سيِّئةٌ، ومثلُه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ (البَقرَة:١٩٤)، ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ (الجاثية:٣٤)، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة:٧٩)، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرَة:١٤-١٥).

---

(١) عبد الإله سليم: بنْيات المُشابَهة في اللّغة العربيّة، مُقاربةٌ معرفيّة، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، ط.١، ٢٠٠١م، ص:٩٠.

١٠- المُطابَقَةُ والمُقابَلَةُ:

ومن مَظاهرِ الانسجامِ في النّصِّ القُرآنيّ: المُطابَقَةُ والمُقابَلَةُ:

والمُطابَقةُ الجمعُ بينَ مُتضادَّيْن في النّصِّ، نحو قولِه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة:٨٢)، و﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:٢٣)، ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ (الكَهف:١٨)، ومن أخفى المُطابَقاتِ في القُرآنِ الكَريمِ قولُه تَعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقَرة: ١٧٩)، لأنّ مَعْنى القِصاصِ القتلُ، فَصارَ القتلُ سببَ الحياةِ. ومن الطِّباقِ الخفيِّ قولُه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ (نوح:٢٥)، لأنّ الغرَقَ من صِفاتِ الماءِ، فَكأنّه جَمَعَ بَين الماءِ والنّارِ[1].

أمّا المُقابلَةُ فتكونُ بذكْرِ لفظَيْنِ فأكثَر، ثمّ أضدادها على التّرتيبِ، ومن ذلكَ قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (اللّيل:٥-١٠)؛ قابَلَ بين الإعطاءِ والبُخلِ، والاتّقاءِ والاستِغْناءِ، والتّصديقِ والتّكذيبِ، واليُسرى والعُسْرى، ولمّا جَعَلَ التّيسيرَ في الأوّلِ مُشتركاً بينَ الإعطاءِ والاتّقاءِ والتّصديقِ، جعَلَ ضدَّه وهو التّعسيرُ، مُشترِكاً بَينَ البُخلِ والاستغناءِ والتّكذيبِ.

---

(١) الإتقان، ٢/٩٣٣-٩٣٤.

١١- الوَصْلُ لَفظاً.. الفَصْلُ مَعْنىً:

ومن مَظاهرِ الانْسجامِ أيضاً الوَصْلُ لَفظاً الفَصْلُ مَعْنىً:

هذا بابٌ جَليلٌ عَقَدَ له بَدرُ الدّين الزّركَشيّ فَصْلاً ضمنَ علم المُناسَبات، سَمّاه: «فَصْل في اتّصالِ اللّفظِ، والمَعْنى عَلى خِلافه»[١]، ووَضَعَ له جلالُ الدّين السّيوطيّ باباً في أنواعِ علوم القُرآن الكَريمِ، وسمّاه «بَيان المَوْصول لَفْظاً المَفْصول مَعْنىً»[٢]، وعَدّه نَوعاً مُهمّاً وأصلاً كَبيراً في الوَقْفِ، جديراً بأن يُفرَدَ بالتّصنيفِ، وبه يحصُلُ حلُّ إشْكالاتٍ وكَشفُ مُعْضِلاتٍ كَثيرةٍ[٣].

فمن ذلكَ أنّه قدْ تأتي الكلمةُ إلى جانبِ كلمة أخْرى كأنّها مَعَها، وهي غيرُ مُتّصلةٍ بِها، وَمَن لَم يُنعم النّظرَ حَسبَ جُزأي الكَلامِ مُتّصلَيْن لفظاً ومَعْنىً، لشدّة الانسجامِ بينَهُما. ومن ذلك في كتاب الله: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ (يوسُف:٥١)، هذا من كَلامِ امرأة العَزيزِ، ثمّ أتى بَعدَه كَلامُ يوسُفَ:

---

(١) البُرْهان: ج:١/ص:٥٠.

(٢) الإتقان: ج:١ / ص:٢٨٠-٢٨٣.

(٣) وممّن أفرَدَه بالتّصنيفِ حَديثاً الدّكتورة خُلود شاكر فهيد العَبْدَليّ، في كتابها: «المَوْصول لَفظاً المَفْصول مَعْنى»، في القُرآن الكَريم، من أوّل سورة يس إلى آخرِ القُرآنِ الكَريم، جَمْعاً ودراسةً، قدّمَ للكتاب: مساعد بن سليمان الطّيّار، نشر: مَركز «تَفْسير» للدّراساتِ القُرآنيّة، الرّياض، ١٤٣١هـ.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (يوسف:٥٢)، ومثله: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، هذا مُنتهى قوْلِ ملِكَة سبأ، فقالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النّمْل:٣٤)[1]، ولا يَجوزُ مَعْنىً أن يوصَلَ الآخرُ بالأوّلِ على أن يُجعَلَ من كلامِ متكلّمٍ واحدٍ. ومثلُه: قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ (يس:٥٢)، هنا ينتهي قولُ الكُفار، ويبدأ قولُ أهلِ الهُدى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس:٥٢). وأخرجَ ابنُ أبي حاتم عن قَتادةَ[2] في هذه الآية قالَ: آيةٌ من كتابِ الله أوّلُها أهلُ الضّلالةِ وآخرُها أهلُ الهُدى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ هذا قولُ أهلِ النّفاق، وقالَ أهلُ الهُدى حينَ بُعثوا من قُبورهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس:٥٢).

فتبيَّنَ من الآياتِ السّابقَة أنّ المَوْصولَ لفظاً المَفصولَ مَعْنىً: «هو مَجيءُ الآيةِ أو الآياتِ في السّورةِ الواحدَةِ على نَظمٍ واحدٍ في اللّفظِ، يوهِمُ اتّصالَ المَعْنى»[3]، والمَقْصودُ بالاتّصالِ اللفظيِّ تَجاوُرُ الألفاظ.

---

(١) وإن كانَ في الأمرِ خلافٌ بين المُفسِّرينَ في هذه النّسبَةِ.

(٢) السّيوطي: الإتقان: جزء:١/ص:٢٨٣.

(٣) خلود شاكر فهيد العَبْدَلي: «المَوْصول لَفْظاً المَفْصول مَعْنى»، في القُرآن الكَريم، ص:٢٩.

وهكذا، فإنّ الحديثَ عن مَظاهرِ انسجامِ النّصّ القُرآنيّ وتَماسُكِ أجزائه، يُثبتُ أنّ الوحدةَ المعنويّةَ -وَحْدَةَ المَعْنى وكُلّيّةَ القَضيّة- تؤثّرُ في إحْكامِ الوَحْدةِ البَيانيّة الفنّيّة، وذلكَ بالتّقريبِ بينَ المُؤلّفات، حتّى تَتماسَكَ وتَتعانقَ[1]. وعليْه فإنّ الكلامَ في المَوضوعِ الواحدِ إذا ساءَ نَظمُه انحلّت وَحْدةُ مَعْناه فتَفرّقَ من أجزائها ما كانَ مُجتمعاً، وانفصَلَ ما كانَ مُتّصلاً... فالتّأليفُ بينَ الأجزاءِ حتّى تتعالَقَ وتتعانَقَ مَطلَبٌ كبيرٌ يَستلزِمُ مَهارةً وحِذْقاً ولُطفَ حِسٍّ في اختيارِ أحسنِ المَواقعِ لتلْكَ الأجزاء، أيّها أحقُّ أن يُجعلَ أصلاً أو تَكْميلاً، وأيُّها أحقُّ أن يُبدَأ به أو يُختَمَ أو يَتبوّأ مَوقعاً وسَطاً؟ ثمّ يحتاجُ مثلَ ذلكَ في اختيارِ أحسنِ الطّرُقِ لمزْجها: بالإسنادِ أو بالتّعليقِ أو بالعَطْفِ أو بغيْرِها؟ هذا كلُّه بعْدَ التّلطُّفِ في اختيارِ تلكَ الأجزاءِ أنفُسِها، والاطمئْنانِ على صلةِ كلٍّ منها بروحِ المَعْنى وأنّها نَقيّةٌ من الحَشوِ قليلةُ الاستطْرادِ وأنّ أطرافَها وأوساطَها تستَوي في تَراميها إلى الغرَضِ[2].

تلكَ حالُ المَعْنى الواحدِ الذي تتّصلُ أجزاؤه فيما بينَها اتّصالاً طبيعيّاً، فَما ظنُّك بالمَعاني المُختلفةِ في جوهرِها، المُنفصلَةِ بطبيعتها؟ كَم من المَهارةِ والحِذْق... يتطلّبُه التأليفُ بينَ أمزِجَتِها المُختلفَةِ المُتفاوِتَة، ليَصيرَ لَها مِزاجٌ واحدٌ واتّجاهٌ واحدٌ، وليَلْزَمَ عَنْ وَحداتِها الصُّغْرى وَحدةٌ جامعةٌ أخْرى.

---

(١) للتّوسُّع في قضيّةِ تأثيرِ وحدةِ المَعنى في وحدةِ المَبْنى، يُراجَعُ: النّبأ العظيم، ص: ١٤٢-١٦٣.

(٢) النّبأ العظيم، ص: ١٤٣.

«هذا شأنُ الأغْراضِ المختلفةِ إذا تَناوَلها الكَلامُ الواحدُ في المجلسِ الواحدِ. فَكيفَ لَوْ قدْ جيءَ بها في ظُروفٍ مُختلفةٍ وأزْمانٍ مُتطاوِلة؟ ألا تَكونُ الصِّلةُ فيها أشَدَّ انقطاعًا، والهوةُ بينها أعْظَمَ اتّساعًا؟

فإنْ كنتَ قدْ أعْجبَكَ منَ القُرآنِ نظامُ تأليفه البيانيِّ في القطعَةِ منْه، حَيثُ الموضوعُ واحدٌ بطَبيعَتِه، فهَلُمَّ إلى النّظرِ إلى السّورَةِ منه حَيثُ الموضوعاتُ شتى والظُّروفُ مُتفاوتةٌ، لِترى مِنْ هذا النّظامِ ما هو أدْخَلُ في الإعجابِ والإعجازِ.

ألستَ تَعلمُ أنّ ما امتازَ به أسلوبُ القُرآنِ مِن اجْتنابِ سَبيلِ الإطالةِ والتزامِ جانبِ الإيجازِ بقدرِ ما يتّسعُ لَه جَمالُ اللّغة قد جعَلَه هو أكثرَ الكَلامِ افْتِناناً، نَعْني أكثَرَه تَناولاً لشؤونِ القولِ وأسرعَه تَنقّلاً بيْنها، من وَصْفٍ إلى قَصَصٍ إلى تشريعٍ إلى جَدَلٍ، إلى ضُروبِ شَتى، بَل جَعَلَ الفنَّ الواحدَ منه يَتشَعّبُ إلى فُنونٍ، والشّأنَ الواحدَ فيه تَنْطوي تَحتَه شُؤونٌ وشُؤونٌ؟

أوَ لَسْتَ تَعلمُ أنّ القُرآنَ - في جُلِّ أمْرِه- ما كانَ يَنزلُ بهذه المعاني المختلفَةِ جُملةً واحدةً، بَل كانَ يَتنزّلُ بها آحادًا مُفرَّقةً عَلى حَسبِ الوَقائعِ والدّواعي المتجَدِّدة، وأنّ هذا الانفصالَ الزّماني بَينَها؛ والاخْتلافَ الذّاتي بينَ دَواعيها، كانَ بِطبيعَتِه مُسْتتبعًا لانْفصالِ الحديثِ عَنها عَلى ضَربٍ مِن الاسْتقلالِ والاسْتئنافِ لا يَدَعُ بَينَها مَنْزَعًا للتّواصُلِ والتّرابُطِ؟

أَلَمْ يكُنْ هذانِ السّببانِ قُوّتينِ مُتَظاهرَتَينِ عَلى تَفكيكِ وَحدةِ الكَــلامِ وتَقطيعِ أوْصالِه إذا أريدَ نَظمُ طائفةٍ منْ تلكَ الأحاديثِ في سِلكٍ واحدٍ تحتَ اسمِ سورةٍ واحدَةٍ؟»[1].

لقَد كانت الآياتُ تنــزلُ مُفرَّقَةً على حَسَب الدّواعي وأسبابِ النّزولِ المتجدِّدَة، فكان الانفصالُ الزّمانيُّ بينَها واختلافُ أسبابِ نزولِها يُفتَرَضُ مَعه انفصالُ الحَديثِ عنها عَلى ضربٍ من الاستقْلالِ والاستئنافِ لا يَدعُ بينَهـــا مَنــزِعاً للتّرابُط. فالنّصّ القُرآنيّ مهْما تتعدّدْ قَضاياه فهو كلامٌ واحدٌ يتعلّــقُ آخرُه بأوّلِه وأوّلُه بآخرِه ويَترامى بجملتِه إلى غَرضٍ واحدٍ.

وإنّ ما امْتازَ به النّصُّ القرآنيُّ من إيجازٍ في الأسلوبِ، جعَلَه أكثَرَ تَناوُلاً لشُؤونِ القولِ وأسرَعَه تنقُّلاً بينَها، من وَصفٍ إلى قَــصَصٍ إلى تَــشريعٍ إلى جدَلٍ إلى ضروبٍ شتّى، بل جعَلَ الفنّ الواحدَ منــه يتــشعّبُ إلى فُنــونٍ، والشّأنَ الواحدَ تنطوي تحتَه شُؤونٌ.

وهكَذا فإنّ وراءَ إحْكامِ البُنيانِ القُرآنيّ وتماسُكِه تَدبيراً مُحكماً وتَقديراً مُبرَماً؛ كانَ قد أعدَّ لهذه الموادِّ المتفرِّقَة نظامَها، ووَجَّهَها في مَرحلَة تَــشتُّتِها نَحْوَ وِجْهَتِها البنائيَّةِ الأخيرَةِ التي استقرَّت عَليْها في النّصّ القُرآنيّ، حَتى صِيغَ منها عِقدُ القُرآنِ النَّظيمُ.

---

(١) النّبأ العظيم، ص: ١٤٤-١٤٥.

١٢- ارتباطُ الجُملَةِ بمَوْضوعِ السّورة، وارتباطُها الموضوعيّ بما تفرّقَ في القرآن:

ومن مَظاهرِ الانسجامِ أيضاً ارتباطُ الجُملَةِ بمَوْضوعِ السّورةِ، وارتباطُها الموضوعيّ بما تفرّقَ في القرآن[١]:

ومفادُه أن يُبحَثَ عن ارتباط المَعْنى المُستَفادِ من جُملةٍ قُرآنيّةٍ بما تفرّقَ في القُرآن من مَعانٍ تلتقي لَها صلةٌ بذلكَ المَعْنى، في موضوعٍ واحدٍ، وعن ارتباطه بالمَعاني الأخرى التي اشتَمَلَت عليْها الآيةُ واشتمَلَت عليْها السّورةُ، ومواضعُ الالتقاءِ والترابُط نسَقٌ يكشفُ عن التّناسُبِ بينَ مَعاني جُمَلِ الآيةِ ووحدةِ السّورةِ، وإهمالُ تدبُّرِ هذا النّسَقِ العَظيمِ وعدمُ وَضعه مَوضِعَ العنايةِ والاهتمامِ، يُفوِّتُ على القارئِ المُتدبِّرِ مَعانيَ جمّةً ووجوهاً إعجازيّةً جَليلةً.

وقَد يَكونُ للجُملةِ القُرآنيّةِ التي تَحملُ مَعْنىً عامّاً أو خاصّاً شبَكةٌ من العلاقاتِ بعددٍ من جُمَلِ السّورَة، وبعددٍ آخرَ من جُمَلٍ تُشارِكُها في مَوْضوعٍ عامٍّ في القُرآنِ كلّه. فيتعيّنُ على المُحلِّلِ أن يكتشفَ الرّوابطَ الفكريّةَ بينَ جُمَلِ السّورةِ، وإن كانَت خافيةً في اللفظ. من الشّواهد على ذلكَ ما دَعاه المؤلِّفُ بالتّربيّةِ المُعترِضَةِ[٢]، كتربيةِ الله لرَسوله بأنْ لا يَعْجَلَ بالقُرآنِ مِن قَبلِ أن يُقضى إليْه وحيُه، ويحسُنُ الاعتراضُ حينَما يُرادُ تحقيقُ

---

(١) هذه قاعدةٌ ذكرَها الأستاذ عبْد الرّحمن حسَن حبنّكَة الميدانيّ في كتابه: قواعد التّدبُّر الأمثَل لكتاب الله عزّ وجل، ط٤ (دمشق: دار القَلَم؛ بيروت: الدّار الشّاميّة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) ص١٣.

(٢) قَواعِد التّدبُّر الأمثَل لكِتابِ الله عزّ وجلّ، ص:١٦.

غرَضٍ تربويٌّ، نحو قوله تَعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامَة:١٦-١٩)، فهذا اعْتراضٌ بَينَ ما سبقَ الآيةَ وما جاءَ بعدَها، ولكن مَعَ خَفاءِ وجه المُناسبَة بين الاعتراضِ وباقي عَناصرِ السّورةِ ومَعانيها، ولكن حينَ يُكتشَفُ الغرضُ التّربويُّ الذي سيقَت من أجله آيةُ الاعتراضِ، يتّضِح جَمالُ الانسجامِ في بيانِ الآيةِ وموضعِها، الذي أثبتَ لَنا هذا التّوجيهَ التّربويَّ في سورَة، هي سورةُ القيامَة، حدَثَ فيها حادثُ التّعجُّل وتحريكُ اللّسان بالقُرآن، وقد امتثلَ الرّسولُ ﷺ فالْتزَمَ بما أُمرَ بِه، ثُمّ أنزَلَ الله توجيهاً ثانياً في سورةِ طَه، ولكنّه مُتّصلٌ بما قبلَه وما بعدَه من الآيات: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طَه:١١٤)، وليسَ مُعترِضاً بين كلامَيْن مُتلازِمَيْن.

١٣- بَلاغَةُ التّنويع والتّلْوين:

مِنْ مَظاهِرِ الانسجامِ والتّماسُك في النّصّ القُرآنيّ: بَلاغَةُ التّنويع والتّلْوين:

قالَ ابنُ جنّي: «كَلامُ العربِ كَثيرُ الانحرافاتِ ولَطيفُ المَقاصد والجهات، وأعذبُ ما فيه تَلَفُّته وتَثنّيه»[1]. وقالَ ابنُ المُنيِّر: «طَريقَة العربيّة تَلوينُ الكَلامِ، ومَجيءُ الفعليّةِ تارةً والاسميّةِ أخرى من غيْرِ تكلُّف لِما ذَكَروه»[2].

(١) ابنُ جنّي، المُحتَسَبُ في تَبيينِ وُجوه شواذِّ القراءات والإيضاح عَنْها، تَحقيق: علي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسْماعيل شلَبي (القاهرَة: لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ٨٦/٢.

(٢) السّيوطي، الإتْقان، ٦٣٣/١....

من مَزايا جَمالياتِ النّصّ القُرآنيّ أنه جَمَعَ بين الافْتنــانِ والتّنويــعِ في الموضوعــاتِ، والافتنــانِ والتّلــوينِ في الأسْلوب، في الموضوع الواحــد. فهو لا يستمرُّ طويلاً على نمطٍ واحدٍ من التعبير، كَما أنه لا يستمرُّ طــويلاً على هَدفٍ واحدٍ من المعاني، بَل يتنقلُ في السّورَة الواحدَة من معنى إلى معنى ويتنقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، واسمية وفعلية، ومُضيّ وحُضور واستقبال وتَكلُّم وغَيبيةٍ وخِطاب؛ إلى غير ذلكَ من طُــرق الأداء، على نحو من السُّرعة لا عهدَ لنا بمثله في كَلام غيره قَطُّ. ومعَ هــذه التّحَوُّلاتِ السّريعَة المستَمِرّة التي هي مَظِنّةُ الاخْتلاجِ والاضطرابِ، بل مَظنةُ الكَبْوةِ والعِثار، في داخلِ الموضــوع أو في الخروجِ منه، نَراه لا يَــضطربُ ولا يَتعثّرُ، بل يحتفظُ بتلكَ الطبقة العُليا من مَتانة النّظم وجَودَةِ السّبكِ حتى يصوغَ من هذه الأفانين الكثيرة منظرًا مؤتلفًا[1].

والأصلُ في تلوينِ الخطابِ الأدبيّ يَكونُ بأسلوبِ الالْتفات؛ وهو نَقــلُ الكَلامِ من التّكلُّمِ أو الخطابِ أو الغَيْبة إلى آخرَ منها، بعدَ التّعبيرِ بــالأوّل، وفائدتُه تَطريةُ الكَلامِ وتَجديدُه، وصيانةِ السّمعِ من الضّجرِ والسّآمَة، ولكنّ كلّ موضعٍ يختصُّ بفَوائدَ ولَطائفَ بحسبِ اخْتلافِ محلّه، ونُصوصُ القــرآنِ الكريمِ مَليئةٌ بأسلوبِ الالتفاتِ والتّنويعِ بينَ الضّمائرِ الثّلاثَة، لأغراضٍ تخصُّ

---

(١) النبأ العَظيم، ص ١٤٤، هامش(١).

دلالاتِ النّصّ، ويُشترَطُ في أسلوبِ الالْتفاتِ -لضَمانِ تَماسُكِ النّصِ وعَودِ آخرِه على أوّلِه- أن يكونَ الضّميرُ في المُتنَقَلِ إليه عائداً في نفسِ الأمــرِ إلى المُنتقَلِ عنه، ويُشترَطُ أيضاً أن يَكونَ في جُملتَيْن.

وهُناكَ نوعٌ خاصٌّ من التّلوين يعتمــدُ علــى المُغــايرَةِ والتّنويــعِ في الأسلوبِ؛ والمَيْلِ بالنّصوصِ والأقاويلِ إلى جهاتٍ شتّى من المَقاصدِ وأنحــاءِ شتّى من المآخذِ، ويفتنّ الكلامُ فيها من مَذاهبَ شتّى من المعاني، وضُروبِ شتّى من المَباني النّظميّة، ويكونُ للنّفسِ فيه اســتراحةٌ واسْــتجْدادُ نــشاطٍ بانتقالِها من لونٍ أسلوبيٍّ إلى آخَرَ، ومن مَعْنى إلى مَعْنى آخرَ، وفي ذلك قــالَ حازم القرطاجنّيّ؛ عن الشّعراءِ: «لَمّا وَجَدوا النّفوسَ تسأمُ التّماديَ علــى حالٍ واحدةٍ، وتُؤْثرُ الانتقالَ من حالٍ إلى حالٍ، ووجــدوها تَــستريحُ إلى استئنافِ الأمرِ بعدَ الأمرِ واستجْدادِ الشيءِ بعدَ الشّيءِ، ووجدوها تنفرُ من الشّيءِ الذي لم يَتناهَ في الكثرَةِ إذا أُخذَ مأخــذاً واحداً ساذجاً ولَم يتحيّــلْ فيما يستّجدّ نشاطَ النّفسِ لقَبولِه بتَنْويعه والافْتنانِ في أنحاءِ الاعتمــادِ بــه، وتَسكنُ إلى الشيءِ وإن كانَ مُتناهياً في الكثرَةِ إذا أُخذَ من شتّى مَآخذه التي من شأنِها أن يخرُجَ الكَلامُ بها في مَعاريضَ مُختلفة»[1]، ففي ذلك الخُــروجِ بالكَلامِ من نَوعٍ إلى آخَر، سَرَيانُ التّلوينِ في النّصّ، والوُصولُ بــالكَلامِ إلى إيصالِ المَعْنى بأبلَغِ لفظٍ.

---

(١) حازم القرطاجنّي: منهاجُ البُلَغاءِ وسراجُ الأدباء، تحقيق: محمّد الحَبيب ابن الخوجَة، دار الغرب الإسلاميّ، ١٩٨٦م، ص:٢٩٦.

والسؤالُ في هذا المظهرِ التّرابُطيّ للنّصّ: كيفَ «يَكونُ تنــوُّعُ صُــورِ التّلوينِ»[1] في الأسلوبِ القُرآنيّ طريقةً لترابُطِ النّصّ وتَماسُكه؟

والجَوابُ أنّ أوّلَ شرطٍ لتحقيقِ نصّيّةِ النّصّ حُصولُ التّرابُطِ بينَ أجزائه وجُمَله، والتّرابُطُ شبكةٌ كُبْرى من العَلاقاتِ التي تشدّ أنواعاً مختلفــةً مــن العَناصرِ، ففي النّصّ روابطُ تصلُ مجالاتِ الدّلالاتِ المُعجميّة بعضها ببعضٍ، ورَوابطُ منطقيّةٌ تربطُ بين الجُملِ.

- أسلوب التّلوين في دلالَةِ الفعلِ على الزّمَن:

في إطارِ بَلاغَة التّنويعِ والتّلوينِ في أسلوبِ النّصّ القُرآنيّ، نجدُ القــرآنَ الكريمَ يعتمدُ أحياناً أسلوبَ المُغايرَةِ والتّلوينِ[2] في دلالة الفعلِ على الــزّمنِ الواحدِ، نحو قوله تعــالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الإسْراء: ١٨-٢١)، ووجهُ التّلوينِ ظاهرٌ في الانتقالِ من صــيغةٍ مُركّبَــةٍ للفعلِ الماضي (كانَ يُريدُ) إلى صيغةٍ مُجرَّدَةٍ منه (أرادَ). وفي الآياتِ أيــضاً

---

(١) طه رِضوان طَه رضوان: تَلْوينُ الخِطابِ في القُرآن الكَــريم، مَكتبَــة الدّراســات القُرآنيّة، نَشْر دار الصّحابَة للتّراث بطَنْطا، ط.١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص:٣٤١.

(٢) طه رِضوان طَه رضوان: تَلْوينُ الخِطابِ في القُرآن الكَريم، ص:٣٤٢.

تَلْوينٌ للأسْلوبِ بالانتقالِ من صيغة المُتكلّم (عَجّلْنا-نَشاءُ-نُريدُ-جَعَلْنا-نُمدُّ) إلى صيغَةِ الغائبِ (عَطاء رَبِّكَ) ثُمّ العَوْدَةِ إلى المُتكلّم ﴿فَضَّلْنَا﴾. وفيها أيضاً تَلْوينٌ للأسْلوبِ بالانتقال من المَشيئة إلى الإرادَة وهُما فعلان مُتغايرانِ ولكنّهُما مُتقاربانِ. ثُمّ التّلوينُ بينَ الجملَةِ الفعليّة ﴿عَجَّلْنَا﴾ التي تُفيدُ الحُدوثَ والعُبورَ، للتّعبيرِ عن جَزاءِ حُبِّ العاجلَة، والجُملَة الاسميّة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ التي تُفيدُ الثّبوتَ أي ثُبوتَ جَزاءِ إرادةِ الآخرَة.

ومِمّا يُفيدُ التّلوينَ في أسلوبِ الصّيغِ الزّمنيّة والانتقالَ من زمنٍ إلى آخَر: الانتقال من الماضي إلى المُضارِع، نحو قولِه تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ (فاطر:٩)، ففيه انتقالٌ من المُضيِّ (أرْسَل) إلى الحال (فتُثير) ثمّ عَوْدٌ إلى الزّمَنِ الماضي (فسُقْنا، فأحيينا)، وكأنّ الحالَ أو الاستقْبالَ في الفعلِ (تُثير) لقطةٌ زمنيّةٌ بين لقطتينِ ماضيتَيْن، تدلُّ على حكايةِ الحالِ، ففي تلك اللّقْطة الْتفاتٌ بَلاغيٌّ فَريدٌ.

جاء الفعلُ أرْسَلَ بلفظ الماضي لما أسْنَدَ إلى الله تَعالى؛ لأنّه يُفيدُ الثّبوتَ والاستمْرارَ، وما يفعله تعالى بقوله: كنْ، لا يَبقى زَماناً ولا جُزْءَ زَمانٍ، فلَمْ يأتِ بلَفظِ المستقبلِ لوُجوبِ وُقوعِه وسُرعةِ كَونه، ولأنه فَرغَ من كُلّ شيء، فهو قَدَّرَ الإرسالَ في الأوقاتِ المعلومَةِ وإلى المواضِعِ المعيّنة، ولما أسنَدَ الإثارَةَ

إلى الرّيح، وهي تُؤلّفُ في زمانٍ، قـال: ﴿فَتُثِيرُ﴾، وأسـند ﴿أَرْسَلَ﴾ إلى الغائب، وأسْنَدَ ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾، و﴿فَأَحْيَيْنَا﴾ إلى المتكلّم.

ومن التّلوينِ الانتقالُ من اسمٍ يُقدَّرُ أنّه معمول فعلٍ مُضمرٍ، إلى اسـمٍ ليسَ كذلكَ؛ نحو قوله تَعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود:٦٩) ؛ فانتقلَ من اسمٍ مَنصوبٍ (سَلاماً) إلى اسم مَرفوعٍ (سَلام) لأنّ المنصوبَ إنّما يَكـونُ على إرادةِ الفعلِ الناصِب، أي سَلّمْنا سَلاماً، وذلِكَ يُؤذِنُ بحدوثِ التّـسليمِ منهُم، أمّا سَلامُ إبراهيمَ فإنّه اسمٌ مرتفعٌ بالابتداءِ، فاقتَضى الثّبـوتَ علـى الإطْلاق، فسَلامُ الخَليلِ أبلَغُ من سَلامهِم، وكأنّه قصَدَ أن يُحيّيَهُم بأحـسنَ مِمّا حَيّوه به[1].

١٤- الضّمير ووظيفَة الرّبط:

من أدواتِ القُرآنِ الكَريـمِ الرّابطَةِ لأجزاءِ النّصّ: **الضّمير ووظيفَـة الرّبط:**

من وَظائفِ الضّميرِ في اللغةِ العربيّةِ الاختصارُ، لأنّه يقومُ مَقامَ الظّـاهرِ ويُغْني عن تَكْرارِه، ومن وَظائفِه الرّبطُ ووَصلُ الجُملِ بعضِها ببعضٍ، ومـن وظائفِه أيضاً الإحالَةُ عَلى سابقٍ؛ وهي عودُه على مُتقدّمٍ بِما يُغْني عن ذكْرِه وبِما يَربِطُ آخرَ الكَلامِ بأوّلِه.

---

(١) ذكَرَه السّيوطي في: الإتْقان في عُلومِ القُرآن، ج:١، ص: ٦٣٣....

هذا، ولا بُدّ للضّميرِ من مرجعٍ يَعودُ إليه، ويكونُ المَرْجعُ إمّا مَلفوظاً به سابقاً مُطابقاً لَه، نحو قَولـه تَعـالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ (هـود:٤٢)، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ (طه:١٢١)،

أو مُتضمَّناً لَه، نحو: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة:٨)، فإنّ الفعلَ ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ يتضمَّنُ الاسْمَ المَرْجعَ وهو «العَدْل»،

أو دالاً عليْه بالالْتزامِ نحو: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ (القَدر:١)؛ أي القــرآن، فــإنّ الإنزالَ يدلُّ عليه الْتزاماً،

أو متأخّراً لفظاً لا رُتبــةً نحــو: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ (طه:٦٧)، ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (القصَص:٧٨)،

أو متأخّراً دالاً بالالْتزامِ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ (الواقعــة:٨٣)، فقَد أُضْمِرَت الرّوحُ لدَلالةِ الحُلقومِ عليْها.

وقَد يدلُّ السياقُ على الاسْمِ الذي يَرجعُ إليه الضّميرُ، فيُضمَر ثقةً بفهمِ السّامعِ وعلْمِه، نحو قولِه تَعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرّحمن:٢٦)،

وقَد يَعودُ الضّميرُ على لفظِ المذكورِ دونَ مَعْنــاه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطِر:١١)؛ أي لا يُنقَصُ من عُمُرِ مُعمَّرٍ آخرَ[1].

---

(١) السّيوطي، الإتْقان، ١/٥٩٧-٥٩٩.

والأصلُ في الضّميرِ عَوْدُه عَلى أقربِ مَذكورٍ، نحو: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام:١١٢)، فلكَيْ يَعودَ الضّميرُ على أقربِ مَذْكورٍ في الآيَةِ أُخِّرَ المَفْعولُ الأوّلُ وهو الشّياطين، ليَعودُ الضّميرُ عليْه لقُربه، أمّا إن كانَ مرجعُ الضّميرِ هو المُضافَ عادَ عليْه الضّميرُ وإن حالَ بينهُما المُضافُ إليه، نحْو قولِه تَعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النّحل:١٨).

والأصلُ في الضّمائرِ أيضاً تَوافُقُها في المَرجعِ حَذَرَ التّشتيت، نحو قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ (طه:٣٧-٣٩)، فالضّمائرُ كلُّها راجعةٌ إلى موسى، ولا يصحُّ أن يرْجعَ بعضُها إلى موسى وبعضُها إلى التّابوتِ لما في ذلِك من هجْنةِ التّشتيت وتَنافُرِ النّظمِ[1].

ومثلُ ذلِك قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتْح:٨-٩)، فالضّمائرُ في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾،

---

(١) وهذا ما ردّ به السيوطيّ على الزّمخشريّ. انظرْ الإتقان، ١/٦٠٠.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ لله تعالى، والمرادُ بتعْزيرِه تعزيرُ دينِه ورَسولِه، «ومَن فرَّقَ الضَّمائرَ فقد أبْعَدَ»[1].

وقَد يأتي من الضّمائرِ ما تختلفُ مَراجعُه، كما في قولِه تَعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٌۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدًا﴾ (الكَهْف:٢٢)؛ فإنّ الضّميرَ في الجارّ والمَجْرورِ ﴿فِيهِم﴾ لأصحابِ الكَهفِ، والضّمير في الجارّ والمَجْرورِ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ لليَهودِ[2].

ومن قَواعدِ عَودِ الضّمير، أنّه إذا اجتمَعَ في الضَّمائرِ مُراعاةُ اللّفظِ والمَعْنى، بُدئَ باللّفظِ ثمّ بالمَعْنى، نحو قولِه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ (البَقرة:٨)؛ أفْردَ أولاً ﴿مَن يَقُولُ﴾، باعْتبارِ اللّفظِ، ثُمّ جَمَعَ ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ باعتبارِ مَعْنى الكَلامِ، ومثلُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرًاۚ﴾ (الأنعام:٢٥)، ومثلُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ (محمّد:١٦). ومثلُه: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ (الزُّمَر:٣٣).

---

(١) السّيوطي: الإتْقان، ١/٦٠١.

(٢) ذكَره أبو العبّاسِ ثعْلبٌ والمبرّدُ، انظُرْ: السّيوطي، الإتْقان، ١/٦٠١.

ويبدو أنّ الحَملَ على اللّفظِ يكونُ أوّلاً ثُمّ يأتي بعدَه الحملُ على المَعْنى، وهو أقْوى، والجمعُ بينَ الجهتَيْن يُثبتُ لنا أنّ النّصّ الواحدَ تترابطُ أجْـزاؤُه لفظاً ومَعْنى، أو يُزاوَجُ بين اللّفظِ والمَعْنى، فيُبدأ بالحَمْلِ على اللّفظ ثمّ يُثنّى بالحَمل على المَعْنى.

وقَلّما يُبدأ بالحملِ على المَعْنى ثمّ يُثنّى باللّفظ؛ فقَد ذَهبَ بعضُ النّحْويينَ إلى أنّه إذا حُمل على معنى الجمع لا يجوزُ الرُّجوعُ إلى لفـظِ الواحـد، واعتُرِضَ عليْه بأنّه وردَ في القُرآنِ الكريمِ ما يُفيدُ الرُّجوعَ مـن المَعْـنى إلى اللّفظ[1]، من ذلك قولُه تَعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (النساء:١٣)،

وكذلكَ قوله تَعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ (الطلاق:١١)، فقَد أفْرَدَ في ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ﴾ وجَمَعَ في ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، فرجَعَ بعْدَ الجَمْعِ إلى الإفْراد.

وهذا التّنويعُ في الحَمْلِ على اللّفظِ أو المَعْنى من بَلاغَةِ القُرآنِ الكَـريمِ ومن مَظاهرِ تَماسُك نصّه وانْسجامه.

---

(١) في ما ذكَرَه محمودُ بن حمزة، أبو القاسم الكرماني (ت.٥٠٥هـ)، في كتابه: غرائب التفسير وعجائب التأويل، نشر دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدّة، مؤسّسة علوم القرآن، بيَروت، تفسير سورة البَقَرة: ١/١٢٠.

١٥- نَموذجٌ تَطبيقيٌّ:

نَموذجٌ تَطبيقيٌّ للانْسجامِ والتَّماسُك في النَّسَقِ القُرآني: سورةُ البَقَـرةِ أنموذجًا، عَلى تماسُك البُنيانِ وإحكامه[1]:

وهو أنموذجٌ مِن السُّوَرِ المتجمّعة التي الْتَأمَتْ منها سلسلةٌ واحدةٌ مـن الفكَرِ تَتلاحقُ فيها الفصولُ والحلقاتُ، ونَسقٌ واحدٌ مِن البَيان تَتعانقُ فيـه الجُملُ والكَلماتُ، فقد جَمَعت السّورةُ بضعًا وثمانينَ ومائتي آية، واشتمَلَتْ منْ أسبابِ نُزولها نيفًا وثمانين نجمًا، وكانَت الفَتراتُ بينَ نُجومِها تسعَ سِنينَ عَدداً. ففيها ذِكرُ تحويلِ القِبلة، وذِكْرُ صِيامِ رَمضانَ، وذِكْرُ أوّلِ قتالٍ وقـعَ في الإسلام فنَزَلَ بـسبَبه قولُـه تَعـالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ (البقرة:٢١٧)، وكلُّ أولئكَ كانَ نُزولهنّ في أوائلِ السّنة الثّانية من الهجْرة. وفيها تلكَ الآيةُ الخاتمةُ التي نَزَلتْ في آخرِ السّنة العاشرة من الهجرة، وهـي آخـرُ آيـةٍ مـنَ القُـرآنِ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (البقرة:٢٨١)، وفيها ما بَينَ ذلكَ.

وتشتركُ السّورةُ وباقي سُورِ القُرآن كلّه في الاشتمالِ عَلى جُملة الوَشائجِ اللّفظية والمعنويّة التي تَربطُ أجزاءَ السّورةِ الكَريمة بَعضها ببَعْضٍ، وفي كلِّ قطعـةٍ منْ قطَعِ السّورِ أسبابٌ ممدودةٌ، في شَبكةٍ من العَلائق المُحكَمَة النّسْجِ.

ولِسورةِ البَقَرَة خطٌّ سَيرٍ إلى غايَة، ووَحدةُ نِظامٍ مَعنـويّ في جملتـها،

---

(١) مُستَفادٌ من كتابِ النبأ العَظيم، ص: ١٥٧ وما بعدَها....

تدلُّ عـــليْه ما يُوافقُها من نظامٍ لفظيّ مُوزَّعٍ في سلسلـــةِ ذات حَلقـــات. ولا يُتصوّرُ النّسَقُ العامّ للسّورَة إلاّ بإحكام النّظرِ في السّورةِ كُلِّها أوّلاً، قبلَ البحثِ عنِ الصِّلاتِ الموضعيّةِ بين الجُزْءِ والجُزء، وهي تلكَ الصِّلاتُ المبثوثةُ في مثاني الآياتِ ومَقاطعِها، فَلا بدّ أن يُحْكَمَ النظرُ في السّورةِ كُلِّها بإحصاءِ أجْزائها وضَبطِ مَقاصدِها على وجه يكون عَوْناً على السَّير في تلكَ التّفاصيلِ على بَيِّنة؛ فالسّورةُ مهما تتعَدَّدْ قَضاياها فهي كَلامٌ واحدٌ يَتعلقُ آخرُه بأوّلِه، وأوّلُه بآخِره، ويَترامى بجملته إلى غَرضٍ واحدٍ، كما تتعلق الجمل بعـــضها ببعض في القضية الواحدة. وإنه لا غنى لتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غِنى عَن ذلكَ في أجْزاء القَضيّة.

ويضربُ الإمامُ الشّاطبيّ[1] لذلكَ أمثلةً منْ بَعضِ السُّوَر، منها ســـورةُ البَقَرة، فَهيَ كَلامٌ واحدٌ باعْتبارِ النّظْمِ، واحْتَوتْ عَلى أنْواعٍ مـــنَ الكَـــلامِ بحسبِ ما بثّ فيها، منْها ما هُوَ كَالمقدِّماتِ والتّمهيداتِ بَينَ يَـــدي الأمْـــرِ المطْلوبِ، ومِنْها ما هو كالمُؤَكّدِ والمُتمّمِ، ومِنْها ما هو المَقْصودُ في الإنْـــزالِ، وذلكَ تَقريرُ الأحْكامِ عَلى تَفـــاصيلِ الأبْوابِ، ومِنْهـــا الخَواتمُ العائدَةُ عَلى ما قَبلَها بالتّأكيدِ والتّثبيتِ وما أشْبَه ذلكَ.

والمثالُ عَلى ما تَقدّمَ قولُه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(١) أبو إسحاق الشّاطبيّ: المُوافقات في أصول الشّريعَة، ضبط: محمّـد عبـد الله درّاز، ط.دار المعرفَة، بيروت، ج:٣، ص:٤١٥-٤١٦.

(البقرة:١٨٣) إلى قَولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٧)، فهـذا كَلامٌ واحـدٌ، وإنْ نَـزلَ في أوْقـات شتّى، وحاصلُه بيانُ الصِّيامِ وأحْكامِه وكيفيّةِ آدابه وقَضائه وسائرِ ما يَتعلقُ به منَ الجـلائلِ الـتي لا بُدّ مِنها ولا ينبـنى إلاّ عَليها. ثم جـاءَ قولُـه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ (البقرة:١٨٨) الآية، كلاماً آخَرَ بَيَّنَ أحْكاماً أُخَرَ.

وقولُه: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ (البقرة:١٨٩)، وانْتهى الكَلامُ -عَلى قَولِ طائفة- وعِنْدَ أخْرى أنّ قولَـه: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ (البقرة:١٨٩) الآيـة، من تَمامِ مسألة الأهلّة، وإن انجَرَّ مَعَه شيءٌ آخَـر. وقَولُـه تَعـالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ (الكوثر:١) نازلةٌ في قَضيّةٍ واحدَةٍ.

وسـورَةُ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ نازلةٌ في قَضيّتَينِ: الأولى إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العَلَق:٥) والأخْرى ما بَقيَ إلى آخرِ السّورَة.

وسورَةُ «المؤمنينَ» نازلةٌ في قَضيّةٍ واحدَة وإن اشْتَمَلتْ عَلـى مَعـان كَثيرة فإنها مِنَ المكّيَاتِ وغالبُ المكّيّ أنه مُقرِّرٌ لثَلاثَة مَعانٍ أصـلُها مَعـنىً واحدٌ وهو الدُّعاءُ إلى عِبادَةِ الله تَعالى... وما ظَهرَ بِبادي الرّأيِ خُروجُه عَنها فَراجعٌ إليها في مَحصولِ الأمرِ. ويتبعُ ذلك التّرغيبُ والتّرهيـبُ والأمْثـالُ والقصَصُ وذكْرُ الجنّةِ والنّارِ ووَصفُ يَومِ القِيامةِ وأشْباهُ ذلكَ.

فَمِنَ الخطأ البحثُ في تــلكَ الصِّلاتِ الجــزئيّة مَعَ غَضٍّ النّظرِ عــن النّظامِ الكُليّ الذي وَقعتْ عَليه السّورةُ، ففي هذا الغَضِّ جَورٌ عَن القَــصد، وإغفالٌ لِنواحي الجَمــال في النّظــم، وإغْفــالٌ لحُسنِ التّــشــاكُل بَــين الجُملة والجُملة.

- ومن مَزايا القُــرآنِ الكَريم النَّظْميّةِ في سورَةِ البقَرة: **حُسْنُ التّأليفِ بَينَ المُختلفاتِ:**

ذَكرَ الباقــلاّني أنّ نظمَ القُرآنِ العَجيــبَ وتأليفَه البَديعَ «لا يَتفاوتُ ولا يَتَباينُ، على ما يتصرّفُ إليه من الوُجوه التي يَتصرّفُ فيها، مِــنْ ذِكْــرِ قِصَصٍ ومَواعظَ واحتجاجٍ، وحِكَمٍ وأحكامٍ، وإعْذارٍ وإنْذارٍ، ووعْدٍ ووعيدٍ، وتَبْشيرٍ وتخويفٍ، وأوصافٍ... وغيْرِ ذلكَ من الوُجوه التي يَشتملُ علَيْهــا. ونجدُ كلامَ البَليغِ والشّاعرِ المُفلقِ، والخَطيبِ المِصْقَعِ، يختلفُ علــى حَــسبِ اختلافِ هذه الأمورِ... وإذا تأمّلتَ شعرَ الشّاعرِ البَليغِ، رأيتَ التّفــاوُتَ في شعْرِه على حسَب الأحوالِ التي يتصرَّفُ فيها، فيأتي بالغايــةِ في البَراعَــةِ في مَعْنىً، فإذا جاءَ إلى غيْرِه قَصرَ عنه، ووقفَ دونَــه، وبــانَ الاخــتلافُ في شعْرِه... ثُمّ نجدُ من الشُّعراءِ مَن يُجوّدُ في الرَّجَزِ، ولا يُمكنُه نظمُ القَــصيدِ أصلاً، ومنهُم مَن ينظِمُ القَصيدَ، ولكن يُقَصِّرُ تَقصيراً عَجيباً، ويقَعُ ذلك من رَجَزِه موقعاً بَعيداً... ومن النّاسِ مَن يُجوِّدُ في الكَلامِ المُرسَلِ، فــإذا أتــى بالمَوْزونِ قَصّرَ ونَقَصَ نُقصاناً بيّناً...

وقد تأمّلْنا نظمَ القُرآنِ، فوَجَـدْنا جَميعَ ما يتـصرّفُ فيـه مـن الوُجوهِ على حَدٍّ واحـدٍ، في حُسنِ النّظـمِ وبَديعِ التأليفِ والرّصفِ، لا تَفاوُتَ فيه ولا انحطـاطَ عن المنـزلةِ العُلْيا، ولا إسْـفافَ فيـه إلى الرّتبَةِ الدّنيا.

وكذلكَ قد تأمّلْنا ما يتصرَّفُ إليه وُجوه الخِطابِ، من الآياتِ الطّويلةِ والقَصيرةِ، فرأيْنا الإعْجازَ فيها على حدٍّ واحدٍ لا يختلفُ.

وكذلِك قد يَتفاوتُ كَلامُ النّاسِ عندَ إعادةِ ذكرِ القـصّةِ الواحـدةِ، فرأيناه غيرَ مُختلِفٍ ولا مُتفاوتٍ، بَل هو عَلى نهايةِ البَلاغةِ وغايةِ البَراعـةِ، فَعلمْنا بذلكَ أنّه ممّا لا يقدرُ عليْه البَشَرُ؛ لأنّ الذي يَقدرونَ عليْه قد بَيّنّا فيه التّفاوُتَ الكَثيرَ، عندَ التّكْرارِ وعند تَبايُنِ الوُجوه...»[1].

لَقَد ألّفَ القُرآنُ الكَريمُ كثيراً بينَ المَعاني المُختَلفَةِ في السّورَةِ الواحـدَةِ، وألقى بيْنَهـا تَداعياً معْنويّاً ونَظميّاً، ولَمْ يكُن يَسترْسِلُ في الحَـديثِ عَـن الجِنْسِ الواحِدِ استرسالاً يَبعثُ عَلى المَلَلِ، ولَم يكُن يَنتَقلُ من مَعْنىً إلى آخَرَ انتقالاً يُخرجُه إلى حَدّ المُفارَقاتِ التي تَجْمعُ أشتاتاً من غيْرِ نِظامٍ. فَلَم يكُـن يَدَعُ الأجناسَ المختلفةَ والأضدادَ المُتباعدَةَ حَتّى يُجاورَ بيْنَهـا ويُبرزَهـا في صورَةٍ مُؤتَلِفَةٍ، وحتى يجعلَ من اختـلافِها نَفسِه قوامًا لائتِلافِهـا؛ فَتقـويمُ

(١) أبو بَكر الباقِلاّني، إعْجاز القُرآن، تحقيق السّيّد أحمد صقر، سلسلَة ذَخـائر العـرب (١٢)، (مصر: دار المَعارِف) ص٥٤-٥٦.

النَّسَقِ وتَعديلُ المزاجِ بين الألوان والعناصرِ المُختلِفة أشدُّ عناءً مِن تَعديلِ أجزاءِ العُنصُرِ الواحدِ.

فالعِبْرَةُ في ذلك كلّه: النّظرُ إلى النّظامِ المجْموعِ والسِّلْكِ العامِّ المُنتَظِمِ. وقد ضَربَ الأستاذُ محمَّد بن عَبد الله دَرّاز، رَحمَه الله، مثلاً بسورةِ البقَرَة، فهيَ سورةٌ عَلى طولِها تَتألّفُ وحْدتُها منْ مُقدّمة، وأربَعة مَقاصدَ، وخاتمة. فأمّا «المقدِّمةُ» فَفي التّعريفِ بِشأنِ القرآنِ الكَريمِ، وبَيانِ أنّ ما فيهِ منَ الهدايَةِ قدْ بَلغَ حَدًّا منَ الوُضوحِ لا يَتردَّدُ فيه ذو قَلبٍ سَليمٍ. وإنّما يُعرِضُ عَنه مَن لا قَلبَ لَه، أو مَن كانَ في قَلبِه مَرضٌ.

وأمّا «المَقصدُ الأوّلُ» فَفي دَعوةِ النّاسِ كافّةً إلى اعْتناقِ الإسْلامِ.

وأمّا «المقصدُ الثّاني» فَفي دَعوةِ أهْلِ الكِتابِ دَعوةً خاصّةً إلى تَركِ باطلِهِمْ والدُّخولِ في هذا الدّينِ الحَقِّ.

وأمّا «المقْصدُ الثّالثُ» فَفي عَرْضِ شَرائعِ هذا الدّينِ تَفْصيلاً.

وأمّا «المقصدُ الرّابعُ» ففيه ذِكْرُ الوازِعِ والنّازِعِ الدّينيِّ الذي يَبعثُ عَلى مُلازَمةِ تلكَ الشّرائعِ ويَنهى عَن مُخالَفتِها.

وأمّا «خاتمةُ» السّورةِ فَفي التَّعريفِ بالذينَ اسْتجابوا لهذِه الدَّعوةِ الشّامِلَة لتلكَ المقاصِدِ وبَيانِ ما يُرجَى لهمْ في آجِلِهِمْ وعاجِلِهِمْ[1].

---

(١) وقد بَسَطَ صاحبُ «النّبأ العظيم» بَيانَ نظامِ عِقْدَ المَعاني في سورةِ البَقَرة، في سبعٍ وأربَعينَ صفحةً: ١٦٣-٢١٠.

هذه السّــورةُ تشتملُ على مُقدِّمَةٍ ومَقاصدَ واختتامٍ، مثْلَمـا تــشتملُ باقي السّوَرِ على البِناءِ، ولا شكَّ أنّ أهمَّ ما يَطبعُ النّصَّ القُــرآنيَّ عُنــصرُ الاكتمالِ، آيةً كانَ أم سورةً، وهذا ما يُعبّرُ عنه في لسانيّاتِ النّصّ بعُنــصرِ الاختِتامِ (Clôture)، والنّصُّ الذي لا يُختَمُ بخاتمة يفقدُ اتّــساقَه وغائيتَــه. اكْتِمالُ النّصِّ، مقوِّمٌ من مــقوِّماتِ النّصّيّةِ، وليسَ طــولُ النّصِّ أو حَجمُه أو أبعادُه معْياراً[1].

وما يُقالُ في سورةِ البَقَرةِ يُقالُ في كلِّ سورةٍ من سُورِ القُرآن الكَــريمِ، فلكلِّ سورةٍ وحدةٌ موضوعيّةٌ تشدّ أجزاءَ السّورةِ وتربطُ آياتِهــا ومَعــانيَ جُملِها، وما اشتمَلَت عليْه السّورةُ من مَعانٍ جزئيّةٍ إنّما هــو مــشتقٌّ مــن الموضوعِ الكلّيِّ للسّورة أو موصولٌ بِه بوجهٍ من الوُجوه[2].

(١) صَلاح فَضل، بَلاغَة الخطابِ وعِلم النّصّ، ص٢٩٨؛ وانظــر: محمّــد الأخــضر الصّبيحي، مَدخل إلى عِلم النّصّ، ص٨٤.
(٢) قَواعد التّدبُر الأمثَل، ص٢٧.

بَلاغةُ النّصّ في الحَديثِ النبويّ الشّريفِ
مُقارَبَة من زاويةِ علم لغة النّصّ

امتازَت نُصوصُ الحَديثِ النبويّ الشّريفِ بالفصاحَة العاليةِ التي اختصَّ بها النَبيُّ ﷺ. وقدْ وصَفَ الجاحظُ الْبَيانَ النَّبَوِيَّ بأنّه الكلامُ الذي قلَّ عَددُ حُروفه، وكثُرتْ مَعانيه، وجَلَّ عَنِ الصَّنعَة، ونَزُهَ عنِ التَكلُّف[1]، وبأنَّ صاحبَه «استَعْمَلَ المَبْسوطَ في موْضعِ البَسْطِ، والمَقْصورَ في مَوضعِ القَصْرِ وهَجرَ الغريبَ والوحْشيَّ، ورَغبَ عنِ الهَجينِ والسّوقيّ، فَلمْ يَنطِقْ إلاّ عنْ ميراثِ حكْمَة، ولَمْ يَتكلَّمْ إلاّ بكلامٍ قد حُفَّ بالعصْمَة، وشيدَ بالتّأييد، ويُسّرَ بالتّوفيقِ. وهو الكلامُ الذي ألقى اللهُ عليْه المَحبّةَ وغَشّاه بالقَبولِ، وجَمعَ لَه بَينَ المَهابَة والحَلاوةِ وبَيْنَ حُسنِ الإفهامِ وقلّة عدَدِ الكلامِ... لمْ تسْقُطْ لَهُ كَلمةٌ، ولا زَلّتْ به قدَمٌ، ولا بارَتْ لهُ حُجّةٌ، ولمْ يقُمْ له خصْمٌ، ولا أفْحمهُ خَطيبٌ، بلْ يُذُّ الخُطَبَ الطّوالَ بالكَلِمِ القصارِ.. ولَمْ يسْمعِ النّاسُ بِكلامٍ قطّ أعَمَّ نفعًا، ولا أقْصدَ لَفْظًا، ولا أعْدلَ وزْنًا، ولا أجْملَ مذْهبًا ولا أكْرمَ

---

(١) أبو عُثمانَ عَمْرو بْنِ بحرِ الجاحظ (ت.٢٥٥)، البَيانُ والتّبْيين، تح. عبد السّلام هارون، ط٤ (بيروت: دار الفكر) ١٧/٢.

مَطْلَبًا، ولا أحْسنَ مَوْقِعًا، ولا أسْهَلَ مخْرَجًا، ولا أفْصَحَ مَعْنى، ولا أبْيَنَ فَحْوى، مِن كَلامه ﷺ »[1].

هذه الصِّفاتُ التي أوْرَدَها الجاحِظُ ليْسَت مُجرّدَ تكلُّفٍ في الامْتداحِ والتَّجويدِ ولكنّها مُستنْبَطةٌ فعْلاً ممّا صحَّ مِن حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ. وكُلُّ ما صحَّ منهُ فهوَ مَوْصوفٌ بالبَلاغَة العالية.

إنّ بَلاغةَ النّصّ الحَديثيّ قد بلغَت كَمالَ البَيانِ البَشَرِيّ[2]، ولهذا النّوعِ مِن البيانِ موْقعٌ عظيمٌ؛ لأنّه يَعتمدُ على كشْفِ المَعْنى وإيضاحِه حتّى يَصلَ إلى النُّفوسِ على أحسَنِ صورَةٍ وأسهَلِها.

ولا تَقِفُ «بَلاغةُ النّصّ» عنْدَ حُدودِ النّظْمِ البَليغِ والصُّوَرِ البديعة، ولكنَّها تَتعدّى ذلك إلى المَعاني أيْضًا[3]؛ لأنّ كلّ حَديثٍ من الأحاديث الصّحيحة يَشتمِلُ عَلى فَوائدَ كَثيرَةٍ ومَعانِيَ مُركّزة. ولا أدلّ على ذلكَ من أنّ عُلَماءَ الفقه والدِّرايةِ بالحَديثِ استَنبَطوا أحكامًا كثيرَةً من الحَديث الواحدِ، بلْ صنّفوا الكتبَ المُفصَّلَةَ في الحَديثِ الواحِدِ؛ لأنّ أحاديثَ النّبيِّ ﷺ

---

(1) المَصْدَر نفْسُه، ١٧/٢.

(2) اُنظُرْ في تعريفِ كَمالِ البيانِ ومُراعاة حُسْنه: كتاب الطِّراز المُتَضمّن لأسْرار البلاغة وعُلومِ حقائقِ الإعجاز، ليحْيى بْن حمزةَ العَلَويّ اليَمَنيّ (ت٧٤٩)، مُراجعة جَماعةٍ من العلماءِ (بيروت: دار الكُتب العلميّة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ٩٩/٣..

(3) انْظر: خَصائصَ مَعاني الحديثِ النّبويّ كتابَ الحَديث النّبَويّ، مُصطَلَحُهُ، بَلاغَتُه، كُتُبُه، محمّد لطفي الصبّاغ، ط٤ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص٥٩.

البَليغةَ الجامعَةَ لم تترُكْ معْنى مِن المعاني إلاّ وفصّلَتْ فيه القولَ وبيّنَتْ فيه الحُكمَ.[1]

فصفةُ البَلاغة النّصّيّةِ في ما صَحَّ من كَلِمِ الرّسولِ ﷺ، تَصدُقُ على تَراكيبِ الجديد وصُورِه وهَيْآتِ بنائه، مِثْلما تَصْدقُ على مَعانيه وقَضاياهُ وأحكامِه. وتَدخُلُ هذه المَعاني في ما دَعاهُ أهلُ البلاغة بالمَعاني العقْليَّة التي تُقابلُ المعاني التّخْييليّةَ؛ ذلك أنّ المعاني تَنْقسِمُ إلى قِسميْنِ: عَقْليّ وتَخْييليّ، قالَ الشَّيْخُ عَبْدُ القاهِرِ الجُرْجانِيّ في بيانِ المَعاني العَقْلِيَّة:

«فالذي هوَ العقليّ على أنواع: **أوّلُها عقليّ صَحيحٌ، مُجْراه في الشّعرِ والكتابة والبيانِ والخطابة، مجْرى الأدلّة التي يَسْتَنْبِطُها العُقَلاءُ، والفوائد التي تُثيرُها الحُكَماءُ، ولذلك نجدُ الأكْثرَ من هذا الجِنْسِ مُنتزَعًا من أحاديثِ النَبيّ ﷺ، وكَلامِ الصّحابة رَضِيَ اللهُ عنهُم، ومَنْقولاً من آثارِ السّلَفِ الذينَ شأنُهُم الصِّدْقُ وقصْدُهُم الحَقُّ، أو تَرى له أصْلاً في الأمثالِ القديمَة والحِكَمِ المأْثورة...** «ففي هذه الأقوال» **مَعنىً صَريحٌ مَحْضٌ يشْهَدُ لَهُ العقْلُ بالصِّحَة، ويُعْطيه مِن نفسِه أكْرَمَ النّسْبَة. وتَتفقُ العُقَلاءُ على**

---

(١) قَسَمَ ابنُ الأثيرِ «جَوامعَ الكَلِمِ» إلى قسْمين: قِسْم يتعلّقُ بنوعٍ من الألفاظ تتفرّدُ بالدّلالة على معانيها، ولا ينوبُ عنها غيرُها، ومنها ما يأتي على حكْمِ المجازِ، ومنها ما يأتي على حكمِ الحقيقة. أمّا القسْم الثّاني من «جَوامعِ الكلِم» فالمراد به الإيجاز الذي يُستَدَلُ به بالألفاظ القليلةِ على المعاني الكثيرَة، أي إنّ ألفاظَ الحديثِ جامعةٌ للمَعاني المقْصورةِ على إيجازِها واختِصارِها. وجُلُ كلامِ النّبيِّ ﷺ يَجْري هذا المجرى. المَثَلُ السّائر، ١/٩٣.

الأخذ به والحُكْمِ بموجبه في كُلِّ جيلٍ وأُمّة، ويوجَدُ لَه أصْلٌ في كُلِّ لِسانٍ ولُغَة. وأعْـلى مَناسبِه وأنوَرُها، وأجـلُّها وأفْخرُها قولُ الله تَعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحُجُرات:١٣)، وقَولُه ﷺ: «مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[1]... فهذا كَما تَرى بابٌ مِن المَعاني التي تُجْمَعُ فيها النّظائِرُ، وتُذْكَرُ الأبْياتُ الدّالّةُ عليْها، فإنّها تَتلاقى وتَتناظَرُ، وتَتشابَهُ وتَتشاكَلُ، ومَكانُهُ من العقْلِ ما ظَهَرَ لَكَ واسْتَبانَ... وكذلكَ قَوْلُهُ:

وكُلُّ امْرِئٍ يولي الْجَميلَ مُحَبَّبُ

صريح مَعْنىً، للشّعْرِ في جوْهَرِه وذاتِه نَصيبٌ، وإنّما له ما يلْبسُه مِن اللّفْظِ ويكْسوه مِن العبارَة، وكَيْفيّة التّأْدية من الاخْتِصارِ وخِلافِه والكَشْفِ أو ضِدّه. وأصلُه... قَوْلُه عزّ وجلّ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فُصّلت:٣٤)، وكَذا قَوْلُه:

لا يَسْلَمُ الشّرَفُ الرّفيعُ مِنَ الأذى حتّى يُراقَ عَلى جَوانبِه الدّمُ

مَعْنًى مَعْقولٌ، لَمْ يَزَلِ العُقَلاءُ يَقْضونَ بِصحّته، ويَرى العارِفونَ بالسّياسَة الأخْذَ بسُنّته، وبِه جاءَت أوامرُ الله سُبْحانَه، وعليْه جَرَت الأحْكامُ الشّرْعيّةُ والسُّنَنُ النّبويّةُ، وبِه اسْتقامَ لأهْلِ الدّينِ دينُهُم، وانْتَفى عَنْهُم أذى مَن يَفْتِنُهمْ ويَضيرُهُم.

---

(١) في مسند الشهاب، ١/٢٤٥: «مَن أبطأ به عَمَله لم يُسرِعْ به نَسَبه»، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أبطَأ به عَمَلُه لَمْ يُسرِعْ بِه نَسَبُه»، وفي حديث ابن جامع: «لا يُسْرِعْ».

وأمّا القسْــمُ التّخْييليُّ فهُــو الذي لا يُمكنُ أن يُقالَ إنّه صِدْقٌ، وإنّ ما أثْبَتَه ثابتٌ وما نَفاه مَنفيّ.

والعَقْلُ بَعْدُ عَلى تَفضيلِ القَبيلِ الأوّلِ وتَقْديمه وتَفْخيمِ قَدْرِه وتَعْظيمه.

وما كانَ العقلُ ناصِرَه والتَّحْقيقُ شاهِدَهُ فَهُو العَزيزُ جانبُه.

واعْلَمْ أنّ الاسْتعارَةَ لا تَدْخلُ في قَبيلِ التّخْييلِ؛ لأنّ المسْتَعيرَ لا يقْــصدُ إلى إثْباتِ مَعْنى اللّفْظَة المُستَعارة، وإنّما يَعْمدُ إلى إثْباتِ شَبَه هُناكَ، فَلا يَكونُ مَخْبَرُه عَلى خلافِ خبره، وكيفَ يَعْرِضُ الشّكُّ في أنْ لا مدْخَلَ للاسْتعارَة في هذا الفنِّ، وهيَ كَثيرَةٌ في التّنــزيلِ على ما لا يَخْفى، كَقوْله عَزّ وجــلّ: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ (مريم:٤)، ثمّ لا شُبْهَةَ في أنْ لَيسَ الْمَعْنى عَلى إثْباتِ الاشْتعالِ ظاهرًا، وإنّما المُرادُ إثْباتُ شَبَهه، وكذلكَ قَوْلُ النّبــيّ ﷺ: «الْمُؤْمنُ مِرْآةُ الْمُؤْمنِ»[1]، ليسَ عَلى إثْباته مِرْآةً من حَيثُ الجِسْم الصّقيل، لكنْ من حيثُ الشّبه المَعْقول، وهُو كونُه سَبَبًا للعلمِ بما لوْلاها لَمْ يُعْلَــمْ؛ لأنّ ذلكَ العلْمَ طريقُه الرُّؤْيةُ...»[2].

وهكَذا فالبَيانُ النّبويُّ الكَريمُ يدْخُلُ في قِسْمِ الْمَعاني العقْليّة الصّحيحَة؛ لأنّه مَجالُ اسْتنْباطِ الأدلّة العَقْليّة، شأنُ كَلامه ﷺ، الصِّدْقُ وقَصْدُه الحَــقُّ، ويَشْهَدُ لَهُ العقْلُ بالصِّحّة.

---

(١) عن أبي هريرَةَ «سُنَن البَيْهَقي الكُبْرى: ٨/١٦٧» باب ما في الشّفاعَة والذّبّ عــن عرْضِ أخيه المُسْلم، «سُنَن أبي داوُد: ٤/٢٨٠» باب في النّصيحَة والحياطَة.

(٢) «أسْرارُ البَلاغَة: ٢٦٣-٢٧٤» ، لأبي بكْر عبد القاهر بْن عَبْد الرّحْمن الجُرْجــانيّ (ت.٤٧١) تحْ. محْمود مُحَمّد شاكر، نشر: مَطْبَعَة المَدَنيّ بالقاهرة، ودار المدنيّ بجدّة، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

- مِنْ مَظاهِرِ بَلاغةِ النّصّ الحَديثيّ:

- أُسْلوبُ التَّأْكيد:

قالَ صاحِبُ كِتابِ «الطِّراز»: «اعْلَمْ أنّ التّأْكيدَ تمْكـينُ الـشّيْءِ في النّفْسِ وتقْوِيَةُ أمْرِه، وفائدَتُه إزالَةُ الشُّكوكِ وإماطةُ الـشُّبُهاتِ عمّـا أنْـتَ بِصَدَدِه، وهو دَقيقُ المأْخَذِ كَثيرُ الفَوائِدِ، ولَه مجْرَيان:

- **المجْرى الأوّل عامٌّ**، وهُو ما يتعلّقُ بالمَعاني الإعْرابِيّــة، وينْقَـسِمُ إلى لَفْظِيّ ومعْنويٌّ...

- **والمجْرى الثّاني خاصٌّ** يتعلّقُ بعُلومِ البَيانِ، ويُقالُ التّكْريرُ أيْضًا»[1].

وما مِنْ نَصٍّ من نُصوصِ الحَديثِ النّبويّ إلاّ وفيه تأْكيدٌ لفكْرَةٍ أو مَبْدَأ أو قاعدَةٍ من القَواعد بأداةٍ من أدوات التّأْكيد؛ وذلك لأنّ الاهْتمامَ بمُخاطَبَة النّاس، وانْفعالَ المُتَكَلّمِ بالمعْنى الذي يُبَلّغُه، يَستَوْجِبُ ضَرْبًا مـن التّأْكيـد، وتطْرأُ مواقِفُ يلْجَأُ فيها المتكلّمُ إلى إشباعِ المعنى وتوكيدِه وتكريـره، دونَ الخُروجِ عن جادّةِ الاخْتِصارِ والإيجاز. ويتّخذُ التّأْكيدُ في نُصوصِ الحَـديث ألْوانًا وأضْرُبًا، وذلكَ بحَسَبِ حالَةِ المُخاطَبِ في خُلُوِّ الذّهْنِ أو الاسْتشْراف والطّلَب، أو الشّكّ، أو الإنْكارِ... ويدُلُّ ذلكَ على أنّ **الحَديثَ نَصٌّ لُغَويٌّ يَلْفظُه قائلٌ**، هوَ النّبيُّ ﷺ، **ويُوَجّهُ إلى مُخاطَبٍ، في ظُروفٍ مُعيَّنَـةٍ**، هـيَ «أسْبابُ وُرودِ الحَديثِ»، فَتَكونُ مُراعاةُ المُتكلّمِ للمُخاطَبِ وسِياقِ القَـولِ

---

(١) الطِّراز المُتَضمّنُ لأسْرارِ البلاغةِ وعُلومِ حقائِقِ الإعجاز، ٢/١٧٦.

مِن بابِ مُطابَقَة المقالِ لِمُقْتَضى الحالِ؛ إذْ يُخبَرُ كلُّ شخصٍ بما هو الأفضلُ في حقِّه، وما يتنــزَّلُ مترلةَ الدّواءِ الأصلحِ له[1]، أو لأنّ نــزولَ الأحكــامِ مفترِقَةً أيسرُ على المكلّفِ من أن تكونَ جملَةً واحدةً، وهــو مــن اللّطــفِ بالعبادِ، أو لأنّ في دوامِ تعميرِ الأوقاتِ بالأخبارِ المتعلّقة بأمورِ الدّينِ وبشائرِه وأحكامِه، تنشيطًا للنّفوسِ وإظهارًا للرّحمة بها ودليلاً على العناية بها.

وللتّأكيدِ أدواتٌ مِنْها: التّأْكيدُ بالجُمْلَة البــسيطَة، وبتكريــرِ اللّفــظ، وبالحُروفِ مِثْلِ «إنّ» و«نونِ التّوْكيدِ» وأدواتِ القَصْرِ، وبأُسْلوبِ القسَمِ، وغيْرِها...:

- التَّأكيدُ بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ البسيطَةِ:

الجُمْلَةُ الاسْميّةُ البسيطةُ أبسَطُ أدواتِ التّأْكيد، وهيَ جُمْلــةُ المبْتــدأ والخبرِ، أو هي التي يكونُ فيها المُسنَدُ إليه اسْمًا والمُسنَدُ وَصْفًا مُشْتَقًّا[2].

والأصْلُ في نُصوصِ الحديثِ النّبويِّ كلّها أنّها مِن جَوامِعِ الكَلِمِ، وأنّ ألفاظَها تدُلُّ على مَعانيها وزِيادَة، وتَخْلو ألفاظُها من كُلِّ حَــشْوٍ وزيــادة، وتُغْني السّائلَ عن الاسْتِزادَة. وقدْ ورَدَت كَثيرٌ من الأحاديثِ النَّبويَّة بجُمَــلٍ قِصارٍ، فيها جَوابٌ عن سُؤالِ السّائلِ أو تَعْريفٌ بمبْدَأ أو قاعِدَةٍ أو خُلُقٍ .

---

(١) مثلّما قالَ النّبيّ ﷺ لعبدِ الله بنِ عُمَرَ: «نِعْمَ الرّجلُ عبدُ الله لو كانَ يُصلّي من اللّيل»، صحيح مسلم، ٤/١٩٢٧، باب من فضائل عبد الله بنِ عُمَــرَ، وصــحيح البخــاري، ١/٣٧٨، باب فضل قيام اللّيل. فرَجَعَ عبدُ الله لا ينفكُّ ملازِمًا قيامَ اللّيل.

(٢) منْ أسْرارِ اللُّغَة: إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣/١٩٦٦م، ص: ٤٧. بناءُ الجُمْلَةِ في الحَديثِ النّبَويِّ...: ١٦٤.

فمِن ذلك ما رَواهُ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالبٍ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «**الْمَجالِسُ بالأَمانَةِ**»[1]، وما رَواهُ الأعْمشُ عنْ شقيق عنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**الْعِدَةُ عَطِيةٌ**»[2]، وما رَواه عبدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»[3]، وعنِ النُّعْمانِ بْنِ بشيرﷺ: «**الجَماعَةُ رَحْمَةٌ والفرْقةُ عَذابٌ**»[4]، وعنْ أنسٍﷺ: «**الأَمانَةُ غِنًى**»[5]، وعن عبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عنْ أبيه: وعنْ مُعاويَةَ ابْنِ أَبي سُفْيانَ: «**الْخَيْرُ عادَةٌ والشَّرُّ لَجاجَةٌ**»[6]، وما رَواهُ أبو هُرَيْرَةَ:

---

(١) عن جابر بن عبد الله: «**المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سَفك دَم حَرامٍ أو فَرج حَرام أو اقْتطاع مال بغير**» سُنَن البَيْهَقي الكُبْرى: ١٠/٢٤٧، سُنَن أبي داوُدَ: ٤/٢٦٨، مُسْنَد أحْمَد: ٣/٣٤٢، مُسْنَد الشِّهاب: ١/٣٧.

(٢) عن عبدِ الله بن مَسْعود: مُسْنَد الشِّهاب: ١/٣٩، الفِرْدَوْسُ بمأثورِ الخطاب: ٣/٨١، كَشْفُ الخَفاء: ٢/٧٤، وفي المَراسيلُ لأبي داوُدَ: ١/٣٥٢ لأبي داوُدَ سُلَيْمانُ ابنُ الأشعَثِ السِّجستاني (ت.٢٧٥) تح. شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرِّسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

(٣) صحيح ابن حبان: ٢/٣٧٦، باب التوبة، ذِكْر الخَبرِ الدّالّ على أنّ النَّدمَ تَوبَةٌ. صَحيحُ ابنِ حبّان: ٢/٣٧٧، مُسْنَدُ الشِّهاب: ١/٤٢.

(٤) السنة: ٢/٤٣٥ عَمْرو بن أبي عاصِم الضّحّاك الشّيباني (ت.٢٨٧)، تح. محمّد ناصر الدّين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط.١ / ١٤٠٠هـ. التَّمْهيد: ٢١/٢٨١، وذَكَرَ ابْنُ عبدِ البَرِّ أنّ الحَديثَ من الآثارِ المَرْفوعةِ عن النّبيّ ﷺ. مُسْنَدُ الشِّهاب: ١/٤٣.

(٥) عنِ الأعمشِ عن يزيدَ الرَّقاشيّ عن أنَسِ بنِ مالكٍ : مُسْنَد الشِّهاب: ١/٤٤.

(٦) صَحيح ابنِ حبّان: ٢/٨، مُسْنَدُ الشِّهاب: ١/٤٨، سُنَنُ ابنِ ماجَه: ١/٨٠: بابُ فضلِ العُلَماء والحَثّ على طَلَبِ العِلْم.

«اَلْيَمينُ عَلى نِيَّةِ الْمُسْتَحْلَفِ»[1]، وعَن ابْنِ عُمَرَ: «السَّماحُ رَباحٌ والعُسْرُ شُؤْمٌ»[2]، وعن أبي أُمامَةَ: «العاريةُ مُؤدّاةٌ، والمِنْحَةُ مَرْدودةٌ، والدَّيْنُ مَقْضِيٌّ، والزّعيمُ غارِمٌ»[3]، وعنْ عَليّ: «التّدْبيرُ نِصْفُ العَيْشِ، والتَّوَدُّدُ نِصْفُ العقْلِ، والهمُّ نِصْفُ الهَرَمِ، وقِلّةُ العيالِ أحَدُ اليَسارَيْنِ»[4].

وعَن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «اليَمينُ الفاجِرةُ تَدَعُ الدِّيارَ بَلاقِعَ»[5]، وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ: «الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعونَ أوْ بِضْعٌ وسِتّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُها قَوْلُ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأدْناها إماطَةُ الأذى عَنِ الطَّريقِ، والحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ»[6]. وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ: «صِنْفانِ مِنْ أهْلِ النّارِ لَمْ أَرَهُما: قَوْمٌ مَعَهُمْ

---

(١) صحيح مسلم: ١٢٧٤/٣: بابُ يمينِ الحالفِ على نية المستَحلَف؛ مُسنَد الشهاب: ١٧٨/١.

(٢) كشف الخفاء: ٥٥٣/١: «السَّماحُ رَباحٌ والعُسرُ شُؤمٌ»، رواه القُضاعيّ عَن ابن عُمَرَ رفَعَه، ورواه الدَيلمي عن أبي هُريرةَ مَرفوعاً.

(٣) سُنَن التِّرمذيّ: ٥٦٥/٣: باب ما جاء في أنّ العاريةَ مُؤدّاة ، ورَوى التِّرمذيّ بلفظٍ آخرَ : سنن الترمذي: ٤ /٤٣٣.

(٤) «كَشفُ الخَفاء:١٨٠/١» ، «الفِردَوس بمأثورِ الخِطاب:٧٥/٢» ، «مُسنَد الشِّهاب:٥٤/١».

(٥) مُسنَدُ الشِّهاب: ١٧٦/١: «...عن أبي هريرةَ قالَ: قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «اليَمينُ الفاجِرةُ تَدَعُ الدِّيارَ بَلاقِعَ»، وانظُرْ: «سُنَن البَيْهَقي الكُبْرى: ٣٥/١٠»: باب ما جاءَ في اليَمينِ.

(٦) رواه «مسلم، صحيح:٦٣/١» بابُ بيانِ عددِ شُعبِ الإيمانِ وأفضلِها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

سِياطٌ كَأَذْنابِ البَقَرِ، يَضْرِبونَ بِها النّاسَ، ونِساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ مائِلاتٌ مُمِيلاتٌ، رُؤوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإِنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِن مَسيرَةِ كَذا وكَذا»[1].

هذه الأَحاديثُ نَماذِجُ مِنَ البَيانِ النَّبَوِيِّ الذي يوجِزُ القولَ إلى أدْنى حَدٍّ لا يَخْتَلُّ معهُ الكلامُ، سيقَت بوَسيلة من وَسائِلِ التَّأكيد، وهِيَ الجُمَلُ الاسْمِيَّةُ البسيطَةُ إذْ عُدِلَ بها عَنِ الإخبارِ بالجُمَلِ الفِعْلِيةِ، وهِيَ **جُمَلٌ اسْميةٌ بَسيطةٌ أُخْبِرَ فيها عَنِ الْمُبْتَدأ بخَبَرٍ مُفْرَدٍ نَكِرَةٍ، أَوْ بِشِبْهِ جُملة، أو بجُمْلَةٍ فعْلِية.**

وكُلُّ هذه الصِّفاتِ والخَصائِصِ التي امْتازَت بها جُمَلُ الحَديثِ وعِباراتُه ونُصوصُه تَدُلُّ عَلى أنَّهُ من بليغِ **الكَلامِ ومن جَوامِعِ كَلِمِه ﷺ.**

- التَّأْكيدُ بِتَكْريرِ اللَّفْظ:

ليسَ التَّكريرُ مجرّدَ إعادة للّفْظ أو الجملة لذات الإعادة، ولكنّه ضَرْبٌ من التّأكيد له مَوقِعٌ بليغٌ ومكَانٌ رفيعٌ، ولا يَخْلو عَن فائدة تَمْكين الْمَعنى في النّفْسِ وتقْوِيَتِه. وكَم مِن كلامٍ لا يَدخُلُ حيزَ التّحقيقِ حَتّى يُخالِطَهُ صَفْوُ التّكريرِ. وكتابُ الله ببلاغَة التّكريرِ لم يَخْلُ عَن الفائدة والاختِصاصِ بالْمَزيّة، وما ذلك إلاَّ لأنَّ الألفاظَ المكرَّرَةَ «إنّما كانَت لمعانٍ جَزْلَة ومَقاصدَ سَنِيَّة... فَمن ذلِكَ قَوْلُه تَعالى في سورَةِ الرّحْمنِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾،

---

(١) رواه «مُسْلِمٌ في صَحيحِه: ٣/١٦٨٠، ٤/٢١٩٢» و«ابْنُ حِبّان في صَحيحِه: ١٦/٥٠١» و«البَيْهَقِيّ في السُّنَنِ الكُبْرى: ٢/٢٣٤». وفي لَفْظِ الحَديث حَذْفٌ للْمُبْتَدأ وتَقْديرُهُ: أَحَدُهُما قَوْمٌ...، والثّاني نساءٌ... قَوْلُهُ: «مَعَهُمْ سياطٌ» صفةٌ لقَوْمٍ، وقولُه: «رُؤوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ» تشْبيهٌ مُرْسَلٌ مِنْ جِهَةِ ذِكْرِ أَداةِ التَّشْبيه، ومُجْمَلٌ من جِهَةِ حَذْفِ وَجْهِ الشَّبَه.

فهذا تَكْرِيرٌ من جهة اللّفظ والمعْنى، ووَجْه ذلك أنّ الله تَعالى إنّما أوردَها في خطاب الثّقَلَيْنِ الإنْسِ والجنّ، فكلّ نعْمَة يذْكُرُها، أو ما يَؤولُ إلى النّعْمة، يُرْدِفُها بِقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، تَقْرِيرًا للآلاء وإعْظامًا لحالها... وهكَذا القولُ فيما وَرَدَ من الآيات المكرَّرة؛ فإنّها لَمْ تتكرَّرْ إلاّ لِمَقْصد عَظيمٍ في الرّمزِ إلى ذلكَ المَعنى الذي سيقَت من أجله... ومَنْ أحاطَ «بتلْك اللّطائف» فقَد أوتيَ من البلاغَة مفاتيحَ الكُنوز»[1] .

والتَّكْرِيرُ أُسْلوبٌ شائعٌ في الْبيانِ النّبويِّ الْكَريمِ؛ فَقَدْ رَوى التّرْمذيُّ في «باب في كَلامِ النّبيِّ ﷺ» عَنْ أَنَس بْنِ مالك أنَّ رَسولَ الله ﷺ **كانَ يُعيدُ الكَلمَةَ ثَلاثًا لتُعْقَلَ عَنْه**[2]. وقالَ السّيوطيّ: «**لتُعْقَلَ عَنْه أي ليَتدَبَّرَها السّامعونَ، ويَرْسخَ معناها في القوّة العاقلة، وحكْمَتُه أنّ الأولى للإسْماعِ، والثّانية للْوعْيِ، والثّالثة للفكْرة. والأولى إسماعٌ، والثّانية تنبيه، والثّالثة** أمر... وحمَلَه عَلى ما إذا عرضَ للسّامعينَ نَحْو لَفظ، فاختَلَطَ عليهم فيعيدُه لهم ليفْهموهُ، أو عَلى ما إذا كثُرَ المخاطَبونَ، فيلْتَفت مرّةً يَمينًا وأخرى شمالاً وأخْرى أمامًا، ليَسْمَعَ الكُلّ»[3].

---

(١) «الطّراز: ٢/١٧٨-١٧٩»، وانظُر: «المُزْهر للسّيوطي: ١/٣٣٢»: «من سنَن العرب التّكْرِيرُ والإعادةُ إرادةَ الإبْلاغِ بحَسَب العنَايَةِ بالأمر». وعرّفَ ابنُ الأثيرِ التّكْرارَ بقولِه: «دلالَةُ اللّفْظ علَى المعْنَى مُرَدّدًا»، «المَثَل السّائر: ٣/٣». وانظُرْ: «التّكْرير: ٧» د.عزّ الدّين علي السّيّد، عالَم الكتب، بيروت، ط.٢/١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

(٢) قال التّرْمذيّ: هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ غريبٌ إنّما نعرفه من حَديث عبْد الله بن المثنّى. «سنَن التّرْمذي: ٥/٦٠٠»، وانظُرْ «صَحيح البخاري، ١/٤٨، «باب مَنْ أعادَ الحديثَ ثلاثًا ليُفهَمَ عَنه».

(٣) «الجامع الصّغير للسّيوطي (ت.٩١١): ١/٣٤١-٣٤٢»، تحـ. محمّد عبد الرّؤوف المناوي، دار طائر العلم، جدّة.

ولا شكَّ في أنّ إعادةَ الكَلامِ في الحَديث النّبويّ أداةٌ تَعْليميّةٌ[1] استَعْمَلَها النّبيُّ ﷺ، في بَيانه الكَريم، ولَها صُورٌ وأشكالٌ، منْها:

- **تَكْرارُ الكَلامِ بناءً عَلى طَلَبِ المُخاطَب**، ويَدُلُّ عليه حَديثُ أبي سَعيد الخُدريّ الذي رَواه مُسْلمٌ، قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**يا أبا سَعيد، مَنْ رَضِيَ باللهِ رَبّاً، وبالإسلامِ ديناً، وبمُحمّدٍ نَبيّاً، وجَبَتْ لَه الجَنّةُ**، فَعجبَ لَها أبو سَعيد فَقالَ: أعدْها عَليّ يا رَسولَ الله ﷺ، **فَفَعَلَ**»[2].

- ومنْها التَّكْرارُ منْ دونِ طَلَبِ المُخاطَب، كَما وَرَدَ في حَديثِ عبدِ الله ابْنِ عَمْرِو ابْنِ العاصِ الذي رَواه مُسْلمٌ، وذكَرَ فيه أنّ النّبيَّ ﷺ كَره صِيامَ الدّهْرِ وقالَ: «**لا صامَ مَن صامَ الأبَدَ، لا صامَ مَنْ صامَ الأبَدَ، لا صامَ مَن صامَ الأبَدَ**»[3]، فقدْ أعادَ الكَلامَ ثَلاثَ مرّات، مثْلَما أعادَه في حَديثٍ آخَرَ أنْذَرَ فيه مَنْ يكْذِبُ لِيُضْحِكَ النّاسَ[4]، بَلْ كانَ ﷺ يُعيدُ الكَلامَ أكثَرَ

---

(١) انظُرْ في بَيانِ هذا المَعْنى: «النّبيّ الكَريمُ ﷺ مُعلّماً: ٧١» د. فضل إلهي، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، مطبعة سفير، الرياض، ط١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

(٢) صَحيح مُسلم: ١٥٠١/٣، باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في الجنة من الدرجات، الحَديث: ١٨٨٤.

(٣) صَحيح مُسلم: ٨١٤/٢، باب النّهي عَن صَومِ الدّهرِ.

(٤) عَنْ بهزِ بنِ حكيم عن أبيه عن جدِّه: سُنَن أبي داود: ٢٩٧/٤، والسُّنَن الكُبرى: ٥٠٩/٦، للنسائي، و«مُسنَد أحمد: ٧/٥». والوَيلُ الهَلاكُ العَظيمُ أو هُوَ واد عَميقٌ في جَهَنّمَ لِمَنْ يَكذبُ في تَحديثِه وإخْبارِه ليضحك بفَتحِ الياءِ والحاءِ أي بِسَبَبِ تَحديثِه أو الكَذبِ، ويَجوزُ بضمّ الياءِ وكَسرِ الحاءِ ، ونَصبِ القَومِ عَلى أنّه مَفعول، ويَلٌ له ويَلٌ لَه، التّكْريرُ للتأكيد. قالَ المنذريّ أخرَجَه التّرمذي والنّسائي، وقالَ التّرمذيّ حَسَنٌ صَحيح «عَونُ المعْبود: ٢٢٨/١٣» ففي التّكْرارِ ثَلاثَ مَرّاتٍ إنْذارٌ لهذا الكاذبِ ووَعيدٌ شَديدٌ.

من ثلاث كُلّما اشتَدَّ الوَعيدُ، كَما في حَديثِ «أَنْذَرْتُكُمُ النّارَ»[1]، وحَديث «أَلا أُنَبِّئُكُم بِأكبرِ الكَبائرِ»[2]، وإذا تَكرَّرَ منه الكَلامُ كَثيراً ازْدادَت خَشْيَةُ السّامعينَ فقالوا: «لَيتَه سَكَتَ» شَفَقةً عَليه وكَراهيةً لما يُزعِجُه ويُغضِبُه، وفي ذلكَ أيضاً ما كانوا عَليه مِنْ كَثرةِ الأدَبِ مَعَه ﷺ والمَحبّةِ لَه والشَّفقة عَليه[3]، ومِنَ الأحاديثِ ما أعادَه النّبيّ ﷺ عِشْرينَ مرّةً[4].

---

(١) عَنِ النُّعمانِ بْنِ بَشيرٍ قالَ سَمِعتُ رَسولَ الله ﷺ يخطُبُ: «أَنْذَرْتُكُمُ النّارَ، أَنذَرْتُكُمُ النّارَ، أنذَرتُكُمُ النّارَ»، فما زالَ يَقولُها حتّى لَو كانَ في مَقامي هذا لسَمِعَه أهلُ السّوقِ، وحتّى سَقَطَت خَميصَةٌ كانَت عَليه عِنْدَ رِجلَيه «سُنَن الدارمي: ٢/٤٢٥»، بـابٌ فـي تَحْذيرِ النّار، فَقَدْ دَلَّ النُّعمانُ بْنُ بَشيرٍ بِقَولِه: «فما زالَ يَقولُها حتّى...» على أنّـه ﷺ أعادَ هذا الكَلامَ أكثَرَ من ثَلاثِ مَرّاتٍ.

(٢) عَـن عَبـدِ الرّحمـنِ بنِ أبي بَكْرَةَ عَن أبيه، رضـي الله عنه، قالَ: قالَ النبيّ ﷺ: «ألا أنبئُكُم بأكبرِ الكَبائرِ؟ -ثَلاثاً- قالوا بَلى يا رَسولَ الله، قالَ: الإشْراكُ بالله وعُقوقُ الوالدَينِ، وجلَسَ – وكانَ مُتَّكِئاً -قالَ : «ألا وقَولُ الزّورِ...»، قالَ: فَما زالَ يُكَرِّرُهـا حتّى قُلنا لَيتَه سَكَتَ «صَحيحُ البُخاري: ٢/٩٣٩»، باب ما قيل في شهادة الزور.

(٣) وهذا تَفسيرٌ لقَولِ الصّحابَةِ «لَيتَه سَكَتَ»؛ اُنظُرْ: «فَتْح الباري: ٢/١٠، و٥/٢٦٣».

(٤) عَن نافِـعٍ عَن ابنِ عُمَـرَ أنّ رَسـولَ الله ﷺ قالَ: «يَنْشَـأ نَشْءٌ يَقْرَؤونَ القُـرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُمْ كُلّما خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ» قالَ ابنُ عُمَرَ : سَمِعتُ رَسولَ الله ﷺ يَقـولُ: «كُلّما خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ» – أكثَرَ مِنْ عِشْرينَ مَرّةً – «حَتـى يَخْـرُجَ فـي عِراضِـهِم الدّجّالُ»، «سُنَنُ ابنِ مـاجَةَ: ١/٦١»، وأمّا الكِنانيُّ فقَـدْ أسْنَدَ الحَديثَ إلـى هِـشام ابنِ عَمّارٍ عَنْ يحيى بْنِ حَمـزَةَ عنِ الأوْزاعِيّ عَن نافِعٍ عَن ابنِ عُمَـرَ، وذَكَـرَ أنّ هذا الإسْنادَ صَحيحٌ احتَجَّ البُخاريّ بِجَميـعِ رُواتِه: «مِصْباح الزُّجاجَـةِ فـي زَوائـدِ ابْنِ ماجَةَ: ١/٢٦».

ومن نَماذِجِ تَكْرارِ الحديثِ ما رَواه أبو هريرةَ عَنِ النّبيِّ ﷺ أنّه قـــالَ: «**رَغِمَ أَنْفُهُ، رَغِمَ أَنْفُه، رَغِمَ أنفُه**. قيلَ: مَن يا رَسولَ الله؟ قالَ: **مَـــن أدرَكَ والِدَيْه عندَ الكِبَرِ أو أحدَهما ثمّ لم يدْخُلِ الجنّةَ**»(1).

والرُّغْمُ الذِّلّةُ، ورَغِمَ أَنْفُه ذَلّ. وأرْغَمَ الله أنفَه أي ألْصَقَه بالرَّغام وهـــو التُّرابُ، هذا هو الأصْلُ ثم استُعْمِلَ في الذُّل والعَجْز عن الانْتصاف والانْقياد على كُرْه، ومنه قولُ عِكْرِمَةَ أنّه قالَ: «**ضَعْ أنفَكَ حتّى يَخْرُجَ مِنْه الرَّغْمُ**، قُلْتُ: مـــا الرَّغْمُ؟ قـــالَ: **الكِبْرُ**»(2)، ومِنْه حَـــديثُ أبي ذَرٍّ: «**وإن رَغِـــم أنْف أبي ذَرٍّ**»(3)، أي وإنْ ذَلّ، وقيـــلَ: وإن كَرِه. ومنـــه حَـــديثُ مَعْقِل ابن يَسار: «**رَغِم أنْفي لأمر الله**»(4)، أي ذَلَّ وانْقاد. ومنه حَديثُ سَجْدَتَي

---

(1) «صَحيـــح مُسلِـــم: ١٩٧٨/٤»، «الأدَبُ المفرَد: ٢١/١» للبُخاري، تَحْ. محمّد فـــؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط.٣/ هـــ١٤٠٩-١٩٨٩م.

(2) عن ابْنِ جُرَيْجٍ عَنِ الحَـــكَمِ عَنْ عِكْرِمَةَ: «مُصَنّفُ عَبْدِ الرَّزّاق: ١٨١/٢» أبو بَكْـــر عَبْد الرّزّاق بنُ همام الصّنعاني (ت.٢١١) تح. حبيب الرّحمن الأعظمـــي، المكتـــب الإسلامي، بيروت، ط.٢ / ١٤٠٣.

(3) «صَحيح البُخاري: ٢١٩٣/٥»: حدثنا أبو مَعمَرٍ حَدّثنا عَبدُ الوارِثِ عن الحُسَينِ عنْ عَبدِ الله بن بُرَيْدَةَ عَن يحيى بنِ يَعمر حَدّثَه أنّ أبا الأسْوَدِ الـــدُّيلِيَّ حَدّثَـــه أنّ أبـــا ذَرٍّ، رَضي الله عنه، حَدّثَه قالَ: «أتيتُ النبيَّ ﷺ وعليه ثوبٌ أبيضُ وهو نائم ثم أتيتُه وقـــد استيقظَ فقالَ: «ما مِنْ عَبدٍ قالَ لا إله إلا الله ثُمّ ماتَ على ذلكَ إلاّ دَخَلَ الجنّةَ، قُلـــتُ: وإنْ زَنى وإنْ سَرَقَ؟ قالَ: وإنْ زَنى وإنْ سَرَقَ. قلتُ: وإنْ زَنى وإنْ سَرَقَ؟ قالَ: وإنْ زَنى وإنْ سَرَقَ. قلتُ: وإنْ زَنى وإنْ سَرَقَ؟ قالَ: وإنْ زَنى وإنْ سَرَقَ، على رَغْمِ أنْفِ أبي ذَرٍّ»، وانظر: «صَحيح مُسلِم: ٩٥/١».

(4) «النِّهايَةُ في غَريبِ الحَديثِ والأثَر: ٢٣٩/٢».

السَّهْوِ: «كانَتا تَرْغيماً للشيطان»[1]. وفي حَديث أسْماءَ: «إنَّ أُمِّي قَـدمَتْ عَلَيَّ وهِيَ راغِبَةٌ أو راهِبَةٌ، أفَأصِلُها ؟ قالَ: نَعَمْ»[2]، لَمّا كانَ العاجزُ الـذَّليلُ لا يَخْلو من غَضَب، قالوا تَرَغَّم إذا غَضِب، وراغَمَه إذا غاضَبه، تُريدُ أُمُّهـا قَدمت عليَّ غَضْبى لإسْلامي وهِجْرتي مُتَسخِّطةً لأمْري أو كارِهةً مَجيئَها إليَّ لولاَ مسيسُ الحاجةِ، وقيل هارِبةً من قومِها، مِنْ قَولـه تَعـالى: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ (النِّساء: ١٠٠)، أي مَهْرَباً ومُتَّسَعاً.

في الْحَديث السّابِقِ جُمْلَةٌ دُعائِيَّةٌ بالفِعْلِ الماضي، **تأكيدًا لحصولِ الفعلِ ووُقوعِه، والتَّكْرارُ دليلُ المبالَغَةِ في الوُقوعِ**، وفاعلُه مضْمرٌ غائب، زيادةً في التَّهْويلِ، وإثارةً للانتباه، وتحْريكًا للنّفسِ، وتطلُّعًا إلى الرّاغِمِ أنْفُه. وقدْ دَفَعتْ بَلاغةُ التَّكرارِ في هذا البَيانِ النّبويِّ الكَريمِ، بالصَّحابيِّ إلى المُبادَرَةِ بالـسّؤال عنِ الرّاغم، فأجابَه بأنّ هذا المَحرومَ هو العاقُّ لوالدَيْه.

«**رَغِمَ أَنْفُه**» جُمْلَةٌ فِعْلِيّةٌ يُرادُ بِها الدُّعاءُ عَلى المعنيِّ بالأمرِ، وهيَ بُؤْرةُ الكَلامِ، فَقدْ صُدِّرَ الكَلامُ بما هُو أشدُّ وَقْعًا عَلى النّفوسِ وإرْهابًا لَها، وهُـو

---

(١) «صَحيحُ مُسلِم: ١/٤٠٠»: حدثني محمدُ بنُ أحمدَ بنِ أبي خَلَف حدثنا موسى بنُ داودَ حدثنا سُلَيمانُ بنُ بِلال عَن زَيدِ بنِ أسلَمَ عن عَطاءِ بنِ يسارٍ عَن أبي سَـعيد الخُـدريِّ قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**إذا شَكَّ أحَدُكمْ في صَلاتِه فلَمْ يَدْرِ كَمْ صلّى ثَلاثاً أمْ أرْبَعـاً فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ ولْيَبْنِ على ما استَيْقَنَ ثم يَسْجُد سَجْدَتَيْنِ قَبلَ أن يُسلِّمَ فإنْ كانَ صَـلّى خمساً شَفَعْنَ له صَلاتَه وإن كانَ صلّى إتماماً لأربعٍ كانتا تَرْغيماً للشّيطان**».

(٢) «صحيح مسلم: ٢/٦٩٦»: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن إدريس عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء قالت: «قلتُ: يا رَسولَ الله، إنّ أمي قَدمَت عَلَـيَّ وهي راغبة أو راهبة أفأصِلُها؟ قال: نَعَمْ»، «صَحيح البُخاري: ٣/١١٦٢».

الحُكْمُ الشّرْعيُّ المُستَحَقُّ على العُقوق. فهُو تهديدٌ متجدِّدٌ، ومُعادٌ مَكْـــرورٌ، بُغْيةَ تأْكيدِ الحُكمِ، فقد اجْتمعَ في تأكيدِ هذا المعْنى وتقْريره **تَكْريـــرُ بَعْـــضِ ألفاظِه وتَقديمُ المُكرَّرِ على غَيْرِه، وعَدمُ ذكْرِه إلاّ على هَيْئَةِ جَـــواب عَـــنْ** سُؤالِ السّائلينَ. ولكِن، كيفَ يجْتمعُ **تَكْرارُ الكلِـــمِ في الـــنّصِّ، والجَمْـــع والإيجاز**، وهُو مَوْضوعُ هذا البحثِ، ولا يَتنافَيان؟

إنّ تَكْرارَ الكلِمِ نَوْعٌ مِن أنواعِ التّأْكيد، تأْكيدِ مَعْنًى مِن المَعاني باللّفْظِ نفْسِه ويقومُ على إعادةِ الكلمةِ نفْسِها مَرّتَيْنِ أو ثلاثًا، لما لَها مِن دلالَة قويّة على المعْنى المُراد، ولَمْ يُعْدَلْ عَنْها إلى كلمةٍ أخْرى، فَفيهـــا شُـــحْنةٌ قويّـــةٌ تُرجِّحُها على غَيْرِها، تَدلُّ عَلى **محْورِ** المَعْنى الذي يحْتمِلُه النّصُّ، و**مُرْتكَـــزِه ومُثارِ الانْتباه إليْه**، فهيَ أحقُّ بالتّكْريرِ، بَدلاً مِن كَلِماتٍ أخْرى تُرْهِقُ النّصَّ طولاً وإطْنابًا.

ج- التّأْكيدُ بالأداة:

- **التّأكيدُ بإنَّ**: ردُّ العُلماءُ على من ظنَّ أنّ في كلامِ العـــربِ حـــشْوًا عندَما قالوا: «عَبْدُ اللهِ قائمٌ»، و«إنّ عبدَ اللهِ قائمٌ» و«إنّ عبدَ اللهِ لقـــائمٌ»، وأنّ الألفاظَ مُتكرِّرةٌ والمعْنى واحِدٌ. فرُدَّ هذا الوهمُ بأنّ قـــولَهم: «عبْـــدُ اللهِ قائمٌ»، إخْبارٌ عن قِيامه، وقولُهم: «إنّ عبدَ اللهِ قائمٌ» جوابٌ عنْ إنْكارِ منكرِ قِيامه، فقدْ تكرّرتِ الألْفاظُ لتكرُّرِ المعاني[1]، ولو أنّ القـــارِئَ «اسْـــتقْرى

---

(١) «دلائل الإعجاز: ٣١٥» لأبي بكرٍ عبدِ القاهرِ بْنِ عبدِ الرحمنِ الجُرْجانيّ (تـ. ٤٧١)، تح. الأستاذ محمود محمّد شاكر، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، مط. المـــدني، ط.٢/ ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

وتصفّحَ وتَتبّعَ مَواقعَ «إنّ»، ثُمّ ألْطفَ النّظرَ وأكثَرَ التّدبُّرَ، لعَلِمَ عِلْمَ ضَرورةٍ أنْ ليسَ سواءً دخولُها وأنْ لا تدْخُلَ»[1]. فتأتي «إنّ» لتأكيدِ الكلامِ للسّائلِ المُستشْرِفِ أو الذي يتنـزّلُ منزلةَ السّائلِ المُستشْرِفِ؛ ففي الحديثِ الذي رُوِيَ عن أنسٍ أنّ النبيَّ ﷺ، قالَ لمنْ رآه مع امرأةٍ هي أُمُّ المؤْمنينَ صفيّةُ:

«**يا فُلانُ، هذه زَوْجَتي فُلانَة**. فَقالَ: يا رسولَ اللهِ، مَن كُنْتُ أظنّ به فلَمْ أكُنْ أظنُّ بِكَ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنّ الشّيْطانَ يَجري مِن الإنسانِ مجْرى الدّمِ**»[2].

لقدْ خشيَ النّبيُّ ﷺ أن يقذفَ الشّيطانُ في قلْبِ الرّائي شرًّا، فبيّنَ لَهُ بأُسلوبِ التّأكيدِ، لتأكيدِ المعرفةِ بالمرأةِ، وطرْدِ الظّنِّ الذي قدْ يَتبادرُ إلى الأذهانِ. وقد جاءَ الحديثُ جامعًا موجزًا مُؤكّدًا بإنّ التي يُناسبُ التّأكيدُ بها مقامًا يكونُ معتركًا للتُّهمِ والظّنونِ؛ فقد أكّدَت "إنّ" الجملةَ الثّانيةَ لبيانِ حرْصِ النّبيِّ ﷺ على سلامَةِ قَلْبِ الرّجُلِ الذي رآه وخشْيتِه من عبثِ الشّيْطانِ به. إنّهما جُمْلَتانِ قصيرَتانِ موجَزَتانِ أشدَّ ما يكونُ الإيجازُ، **صُدِّرَتا بتأكيدٍ للاسْتغناءِ عن طولِ الكلامِ**[3] وعنِ الحاجةِ إلى التّفصيلِ والإطنابِ.

---

(١) المصدرُ نفسُه:٣١٥.

(٢) أورَدَه «مُسلِم في صَحيحِه» في بابِ بيانِ أنّه يُستحَبّ لمن رُئيَ خاليًا بامرأةٍ، وكانت زوجةً أو محرمًا له، أن يقولَ هذه فلانة، ليرفعَ ظنّ السّوءِ بِهِ، ١٧١٢/٤؛ صَحيحِ البُخاري، ٧١٧/٢؛ صَحيحُ ابْنِ خزَيْمةَ، ٣٤٩/٣؛ سُنَنُ التّرمِذيّ، ٤٧٥/٣.

(٣) أداةُ تأكيدِ الجُملةِ الأولى: التّصديرُ بالنّداءِ للفْتِ الانتباه، والبَدْءُ بمحورِ الكَلامِ مَعَ الإشارةِ إليه.

وعنْ أبي سعيد الخُدْريّ:

«إنّ الدُّنْيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ، وإنّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُم فيها، فَيَنْظُر كَيْفَ تعْمَلونَ، فاتّقوا الدُّنْيا واتّقوا النِّساءَ؛ فإنّ أوّلَ فِتْنَةِ بَني إسْرائيلَ كانتْ في النِّساءِ»[1].

يُقَدِّمُ لَنا الحديثُ الدُّنْيا في صورَةِ حَلاوةٍ واخْضِرارٍ وبَهْجَةٍ، تُثيرُ شَهْوَةَ الإنْسانِ ورغْبَتَه فيها، وإنّما جُعِلَ الإنْسانُ مُسْتَخْلَفًا فيها، فلا يصحُّ أنْ يتصَرَّفَ فيها إلاّ بما أمرَه اللهُ به، وأُمِرَ باجْتِنابِ فِتْنَتِها وبِحَذَرِ فِتْنَةِ النِّساءِ، لِما في ذلكَ من الانْشغالِ عنِ الغايةِ من الاسْتِخْلافِ. وقدْ ربطَ آخرِ الحديثِ بأوّلِه برابطٍ هو الفاءُ الفصيحَةُ التي تدلُّ على مَحْذوفٍ قبْلَها هُو سببٌ لما بعْدَها، وقدْ سُمِّيتْ فصيحَةً لإفْصاحِها عَمّا قبْلَها[2]، والمعْنى: إذا كانَ اللهُ مُسْتَخْلِفَكم فيها ومُراقِبَكم في عَمَلِكم فاتّقوه فيما أمَرَكم.

لقد صدّرَ الحَديث بتأكيدٍ **يُفيدُ** التّنبيهَ ويُفيدُ لَفْتَ الانْتباهِ إلى حقيقةِ هذه الدُّنيا: **«إنّ الدُّنْيا...»**، ثمّ أخبَرَ عن هذهِ الدُّنيا بِصِفاتٍ **مُسْتَعارةٍ**، مُكْتَفِيًا

---

(١) **صحيح مُسلم**، ٤/٢٠٩٨، ويُلاحظُ أنّ الحديثَ تعَدّدَتْ فيه إنّ المؤكِّدَةُ، وفي ذلكَ حرْصٌ منَ النّبيِّ ﷺ على تحْذيرِ المُسْلِمينَ الشّديدِ خطَرَ الدُّنيا والمَفاتِنِ، واسْتِغْناءٌ بالأداةِ الموجزَةِ الجامعَةِ عنِ الإطْنابِ والتّفْصيلِ. وفي روايةٍ أُخْرى: «إنّ الدّنيا خضِرَةٌ حُلْوةٌ، فاتّقوها واتّقوا النِّساءَ...»، **صَحيحُ ابْنِ خُزَيْمَةَ**، ٣/٩٩.

(٢) وقيلَ لأنّها تدلُّ على فَصاحةِ المتكلِّمِ بها، فوُصِفَتْ بالفَصاحَةِ على الإسْنادِ المجازيِّ، ولِهذا لا تَقَع إلاّ في كَلامٍ بَليغٍ. انْظُرْ: **فَتْح الباري**، ٨/٢١٦، ١٣/٦٨؛ **وعوْن المعْبود**، ٤/٦٩؛ لأبي الطّيِّب آبادي، ، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ).

بذكرِ المُشبَّه وحذف المُشبّه به، مُكَنِّيًا عن المحذوفِ ببعْضِ لوازِمِـه، وهـي الحَلاوةُ والخُضْرةُ، فَهو مِن قَبيلِ **الاسْتِعارةِ المَكْنِيّة**. وأجابَ عنِ الجُملةِ الخبرية الأولى بجملةٍ إنشائيّةٍ أمْرية «اتّقوا»، تكرّرَ فيها فعلُ الأمرِ مرّتين، للمُبالغة في تأكيدِ تحذيرِ المُخاطَبينَ الدّنيا والنّساءَ. ثمّ ختمَ بجُمْلة مؤكّدة بإنّ «فإنّ أوّلَ فتنة بني إسرائيلَ...»، هي خبريّةٌ في لفظِها، وإنشائيّةٌ طَلبيّةٌ في حُكْمِها والقَـصد منها، وهو ما يُعرَفُ **بفائدةِ الخبرِ**، والقَصدُ تَحْذيرُ المُسْلمينَ الفتنَةَ ...

- **التّأكيد بالقَصْرِ**: القَصْرُ تَخصيصُ شيْءٍ بشيْءٍ مَعْهودٍ[1]، أو هـو تَخصيص أحد طرفي الكلام بالآخَرِ، ويُؤتى به لتأكيدِ الحُكْمِ لِمُنْكِرِه، أو هو «جعْلُ أحدِ طرَفي النّسبَةِ في الكلامِ، سواء كانـت إسـناديةً أو غيرهـا، مَخصوصًا بالآخَرِ، بحيثُ لا يتجاوزُه»[2]. ولِلْقـصْرِ طُـرقٌ منْهـا: النّفْـي والاسْتِثناء، ومنها العطْفُ بلا أو بلْ، ومنها تقديمُ المعمولِ، نحـو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحَة:٥)، ومنْها إنّما وأنّما.

وسأقْتَصِرُ على إيرادِ بعضِ الشّواهدِ الحَديثيّة التي استعملَ فيها أُسْلوبُ القصْرِ بإنّما. وأداةُ الحَصْرِ «إنّما» لفظٌ لا تُفارِقُه المبالَغَةُ والتّأكيدُ حيثُ وقعَ، ويصْلُحُ مع ذلِك للحصْرِ، فإذا دخلَ في قصّةٍ، وساعدَ معناها على الانْحصارِ

---

(١) انظرْ تقْسيم القصْر إلى حقيقيّ وغير حقيقيّ كتاب: «التّلخيص في علـوم البلاغـة: ١٣٧» للخطيب القزويني، ضبط: عبد الرّحمن البرقوقي، دار الفكر العربي.

(٢) «الكلّيّات: ٧١٦-٧١٧».

صحّ ذلك وترتّبَ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ (الكَهْف: ١١٠)، وغَيْر ذلِك مِن الأمْثِلة. وإذا كانت القصّةُ لا تتأتّى للانحصارِ، بقيتْ إنّما للمُبالغةِ فقط، كقولِه ﷺ: «إنّما الرِّبا في النّسيئَة»[١].

ومن الأحاديثِ التي ورَدَ بِها القصْرُ بإنّما قوْلُه ﷺ في الحديثِ الذي رَواهُ عُمَرُ بْنُ الخَطّاب ﷺ:

«إنّما الأعْمالُ بالنّيّات، وإنّما لِكُلّ امْرِئٍ ما نَوى، فَمَنْ كانتْ هِجْرَتُه إلى اللهِ ورَسولِه، فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورَسولِه، ومنْ كانتْ هجْرتُه لدُنْيا يُصيبُها أو امْرَأةٍ يَنْكِحُها فَهِجْرَتُه إلى ما هاجَرَ إلَيْه»[٢].

يُعدُّ هذا الحديثُ البَليغُ من جَوامِعِ الكلِم، وهوَ حديثٌ مَشْهورٌ أجْمَعَ العُلَماءُ عَلى عَظيمِ فائدَتِه، حتّى قالَ بَعْضُ الفُقَهاء: «حديثُ النّيّة يدْخُلُ في ثَلاثينَ بابًا من العِلْمِ»، ورُوِيَ عنِ الشّافعِيّ أنّهُ قالَ: «هذا الحديثُ ثُلُثُ العِلْمِ، ويدْخُلُ في سَبْعينَ بابًا مِن الفِقْه»[٣].

---

(١) صَحيح مُسلِم، ١٢١٨/٣، المُستَدرَك على الصَّحيحين، ٤٩/٢.

(٢) صَحيح البخاري، ٣/١، السُّنَن الكبرى، ٤١/١، السُّنَن الصُّغرى، ٢٣٦/١، سنن أبي داود، ٢٦٢/٢، سنن ابن ماجة، ١٤١٣/٢، مُسنَد الشِّهاب، ١٩٥/٢.

(٣) «جامع العُلوم والحِكَم: ٩».

ومِنْ قَواعِدِ الفِقْهِ التي اسْتُخْرِجَتْ مِن هذا الحَديثِ الجامِعِ، قاعِدَةُ «**الأُمور بِمَقاصِدِها**»، واتّفَقوا على صِحَّةِ الحديث وتلقّيه بالقَبول، وبه صَدَّرَ البُخاري كِتابَه «الصَّحيح»، وأقامَه مقامَ الخُطْبَة لَهُ، إشارَةً إلى أنّ كُلَّ عملٍ لا يُرادُ به وَجْهُ اللهِ فهُو باطِلٌ لا ثَمَرَةَ لَه[1]. ورُوِيَ عن الإمامِ أحمدَ قوْلُه: «**إنّ أُصولَ الإسْلامِ على ثَلاثَة أحاديثَ**: حَديث عُمَرَ «**إنّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ**»، وحديثُ عائشَةَ «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنا هذا ما لَيْسَ مِنْهُ فَهُو رَدٌّ**»، وحَديثُ النُّعْمانِ بْنِ بَشيرٍ «**الْحَلالُ بَيِّنٌ والْحَرامُ بَيِّنٌ**»[2]. ورَوَى عُثْمانُ بْنُ سَعيدٍ عنْ أبي عُبَيْدٍ قالَ: «**جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ جَميعَ أمْرِ الآخِرَةِ في كَلِمَةٍ واحِدةٍ**: «مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنا ما لَيْسَ مِنْهُ فَهُو رَدٌّ»، **وجَمَعَ أمْرَ الدُّنْيا في كَلِمَةٍ واحِدَةٍ**: «**إنّما** الأعْمالُ بالنِّيّاتِ»، يَدْخُلانِ في كلِّ بابٍ»[3].

يُفيدُ حديثُ «**إنّما** الأعْمالُ بالنِّيّاتِ ...» قَصْرَ المَوْصوفِ (وهُوَ الأعْمالُ) عَلى الصِّفَة (وهيَ الارْتِباطُ بالنِّيّاتِ). وفيه حَذْفٌ، وتقْديرُ المحذوفِ: إنّما صِحّةُ الأعْمالِ أو كَمالُها أو قَبولُها، بالنِّيّاتِ. كَما ورَدَ في

---

(١) «جامِع العُلوم والحِكَم: ٩».

(٢) رَواهُ الحافِظُ السّيوطي عنِ الإمامِ أحمدَ بْنِ حَنْبَل، وأخرجَه الشّيخانِ والتّرْمذي عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْه: «البَيان والتّعْريف في أسْباب وُرود الحديث الشّريف: ٣٠/٢»، ورَواه أيْضًا الحافِظ العِراقيّ عنِ الإمامِ أحمدَ: «فَيْضُ القَديرِ في شَرْحِ الجامِعِ الصّغير: ٤٢٥/٣» لعبْدِ الرّؤوفِ المناوي، المكْتبَة التّجاريّة، مصر، ط١، ١٣٥٦.

(٣) «جامِع العُلومِ والحِكَم: ١٠».

حديث آخَر: «**إنّما الأعْمالُ بالخواتيمِ**»[1]، أيْ صَلاحُها وفَسادُها، أوْ قَبولُها وعَدَمُها بحَسب الخاتمَة. والمقصودُ بها الأعمالُ الشّرْعيّةُ المفتقرَةُ إلى النّيَّة. والنّيَّةُ شرْعًا قصْدُ الشّيْءِ مُقْتَرِنًا بفعْله، وشُرِعَت النّيَّةُ لتمْييز العادة عن العبادة. والرّاجحُ أنّ النّيَةَ في الحديث، إنّما يُرادُ بها الإرادةُ والقصْدُ المُصاحبُ للفعْلِ كَما وَرَد في قَوْله تَعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾، (آل عمْران:١٥٢) أمّا تَسْميَةُ هذا المَعْنى بلَفْظ النّيّة فَقَدْ وَرَدَ كَثيرًا في السُّنَّة، نحْو قَوْله ﷺ: «**مَنْ غزا في سَبيلِ الله، ولَمْ يَنْوِ إلاّ عقالاً فَلَه ما نَوى**»[2]، وقَوْله: «**إنّما يُبْعَثُ النّاسُ على نيّاتِهم**»[3].

وقدْ أُطْلِقَ لَفظُ «الأعْمال» وأُريدَ به أعْمالُ الطّاعاتِ دونَ أعْمالِ المُباحاتِ، ولا دخْلَ للأعْمالِ المُحرَّمَةِ أو المكْروهةِ في المُرادِ من اللّفْظ.

---

(١) «**صحيح البخاري: ٥/٢٣٨١**». عن سهل بن سعد الساعديّ، قال: «نظر النبيُّ ﷺ إلى رجلٍ يقاتلُ المشركين وكان من أعظم المسلمين غناء عنهم، فقال: **مَن أحبَّ أن ينظرَ إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا**. فتبعه رجلٌ، فلم يزل على ذلك حتى جُرِحَ، فاستعجل الموتَ فجَعَلَ نبابَةَ سيْفِه بين ثدييه فتحامل عليه حتى خرج من بين كتفيه. فقال النبي ﷺ: **إن العبدَ ليعمل فيما يرى الناسُ عملَ أهلِ الجنةِ وإنّه لمن أهلِ النار، ويعملُ فيما يرى الناسُ عملَ أهلِ النارِ وهو من أهلِ الجنة، وإنما الأعمال بخواتيمها** «**صحيح البخاري:٥/٢٣٨١**». وعَنْ مُعاويَةَ قالَ: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **إنما الأعمال بخواتيمها كالوعاء، إذا طاب أعلاه طابَ أسفلُه وإذا خَبُثَ أعلاه خَبُثَ أسفلُه**»، «**صَحيحُ ابْنِ حبّان: ٢/٥١**».

(٢) عنْ عبادَةَ بْنِ الصّامت، «**صَحيح ابْنِ حبّان: ١٠/٤٩٥**»، «**سُنَن الدّارمي:٢/٢٧٤**».

(٣) عنْ أبي هُرَيْرَةَ: «**مَجْمَع الزّوائد:٢/١٤١٤**»، وفي روايةِ لعُمَر: «**إنّما يُبْعَثُ المُسْلمونَ يومَ القيامةِ على النّيّات**»: «**سُنَن ابْنِ ماجه:١٠/٣٣٢**».

وهذا الإطْلاقُ تُقيِّده نُصوصٌ أخْرى، وهـو في ذاتـه يَسْتَوْعِبُ المَعاني المُحْتَمَلَة، فَيكون اللّفْظُ العامُّ في الحديث كالقاعدة لما تحْتَها من المَعاني المُحْتَمَلَة، وبهذا يُعْلَمُ ما رَوى الإمامُ أحمدُ أنّ أُصولَ الإسلامِ ثلاثةُ أحاديثَ: حديثُ «**إنّما الأعمالُ بالنّيّات**»، وحديثُ «**مَن أحدثَ في أمرنا ما ليسَ منهُ فهو ردٌّ**»، وحديثُ «**الحلالُ بيّنٌ والحرامُ بيّنٌ**». فإنّ الدّينَ كلّه يرْجِعُ إلى فعلِ المأموراتِ وترْكِ المحظوراتِ والتّوقُّفِ عن الشُّبُهاتِ. فنصُّ الحَديثِ بهذا المَعْنى الكَلامِ البَليغِ ومن **جَوامعِ الكَلِمِ**؛ لأنّه يُتَّخَذُ كالقاعدة الكلّيّة التي تَجمعُ وتسْتوعِبُ ما تحْتها ممّا يندرجُ في بابِ النّيّةِ والإخْلاصِ.

- التَّصْويرُ البَلاغيُّ[1]:

ومنْ مَظاهرِ بَلاغةِ النّصّ والإيجازِ في البَيانِ النّبَويّ **التَّصْويرُ البَلاغيُّ**:

منَ المَعْلومِ بالضّرورَة عِنْدَ أهلِ البَلاغَة والبَيانِ أنّ **المجازَ** أبلغُ من الحَقيقة في تأديَة المَعنى، وأنّ **الاسْتعارةَ** أقْوى من التّصْريحِ، وأنّ **الكنايةَ** أدْخَلُ في إفادة المَعاني؛ وذلكَ لأنّ دلالَةَ هذه الأمورِ عَلى ما تدُلُّ عَليه إنّما كانَ دلالةً باللاّزمِ والتّابعِ، ولا شكّ في أنّ الدّلالةَ عَلى الشّيْءِ بلازِمه أكْشفُ لحالـه وأبْينُ لظُهورِه وأقْوى تَمكُّنًا في النّفْسِ...

---

(١) الصّورةُ هيَ التّعبيرُ باللّغة المَحْسوسَة عَن المَعاني والخَواطرِ والأحاسيس، ووَسيلةُ التّصْوير لَيْسَت سَرْداً تقريريّاً للحقائقِ أو بَثّاً مُباشراً للأفْكار أو تَرْجمَةً حَرْفيّةً للمَعاني التي في النّصّ الأدبيّ، ولكنها تَمثيلٌ لتلكَ الأفْكارِ والحقائقِ في صُوَرٍ مَحْسوسَة يُعايِنُها المُتلقّي ويُدْركها إدْراكاً حسّيّاً. انظرْ تَعْريفَ «الصّورةِ الفنّيّة» في كتاب: **الصّورَة البَيانيّة في التّراث البَلاغيّ**: ٤-٥.

وعَلى تَفاوُتِ هذه الوَسائلِ في الدّلالةِ فإنّها لا تَخْرُجُ عَن وَظيفةِ صَوْغِ الصّورَةِ الأدبيّةِ وبنائِها بطريقٍ أبْلَغَ مِن طَريقِ الحَقيقة[1].

- **التّشْبيه والمَثَل:**

يُعدُّ التّصْويرُ وسيلَةً من وَسائِلِ الدّلالة البَليغة، التي تَتمَكّنُ في النّفْسِ ويَكونُ لَها أثَرٌ عَميقٌ في الإبْلاغِ والإثارةِ. والبَيانُ النّبَويُّ الكريمُ يتّخذُ هذه الوسيلَةَ الطّبيعيّةَ الفطْرِيّةَ لِمُخاطبَة النّفْسِ البشريّةِ المُؤْمنة، ويُصيبُ في اسْتعمالِها كلَّ الإصابةِ. وهيَ أدواتٌ بليغةٌ لا تُرادُ لذاتِها ولكنْ لِما وَراءَها من مَقاصِدَ دلاليّةٍ ومَعانٍ ينبَغي تبْليغُها؛ فجاءتْ صِيَغُ الأحاديث وتراكيبُها مُحْكَمةَ البِناءِ، مُنْتَقاةَ أدواتِ التّصْويرِ، مُناسبةً لِما في المَعاني مِنْ عُمْقٍ وغِنًى، وتَرْكيزٍ وجَمْعٍ، وتَناسُقٍ وتَسلْسُلٍ، وهوَ ما دَعاهُ الباحثونَ **بالاسْتقْصاء**: وهُوَ تتبُّعُ المَعاني والأحْكامِ المُمْكنة أو المُتصَوَّرَة؛ كقوْله ﷺ: «**إنّ الصّدْقَ يهْدي إلى البِرِّ، وإنّ البِرَّ يَهْدي إلى الجَنّة...**»[2]، وقوْلِهِ: «**لا تَدْخُلوا الجَنّةَ حتّى**

---

(1) انظُرْ جَوامِع الكَلِم في البَيانِ النّبَويّ: ١٠٩، د.عبد الرحمن بودرع.

(2) عن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البرّ وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»: «صحيح البخاري: ٥/٢٢٦١». وعن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ «عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور وهما في النار» رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن: «مجمع الزّوائد: ١/٩٣».

تُؤْمنوا، ولا تُؤْمِنوا حتّى تَحابّوا...»[1]؛ فقدْ رُكِّبَت الألفاظُ اليسيرةُ بهذا التّناسُقِ والتّسلسُلِ تركيبًا تقتضيه طبيعَةُ المعْنى، حتّى إنّ السّامعَ للحَديث إذا وَعاهُ تَركّبَ المَعْنى فِي نفْسه مثْلَما تَركّبَ في اللّفْظ، وتَمثّله كَما بَناه قائلُه، وما ذلك إلاّ لأنّ صورَةَ النّصِّ الحَديثيّ لا تَعْني مُجرَّدَ التّشْبيه أو الاسْتعارةِ أو المجازِ، ولكنّها تعني كلّ عناصرِ الشّكلِ، بحَيثُ توضَعُ بإزاءِ المَضْمونِ مُتّحدَةً مَعه اتّحادًا لا يُمكنُ مَعَه الفَصْلُ بينَهُما[2]، وحاضِرةً في مناحي التّفكيرِ والحَياة اليوميّة، وغيرَ مُقْتصِرَةٍ عَلى اللُّغة الفنّيّة[3].

إنّ صورَةَ النّصِّ الحَديثيِّ الفنّيّةَ، تَقومُ عَلى مَجْموعِ الأدَواتِ والعَناصرِ التي يُبْنى منها شَكْلُ النّصِّ وما فيه مِن قِيَمٍ مَعْنويّةٍ وخَطَراتٍ نَفسيّة، تَربطُ بَين الحَديثِ وسامعه، وهي صورَةٌ مُتفرِّدةٌ تَمتازُ عَن صورَة الأدَبِ الجاهليِّ، لأنّها تُطوِّعُ اللّغةَ لأصْنافٍ مِن التّعْبيرِ عَمّا لا يَكادُ ينْحَصِرُ مِن المَواقِفِ والمَشاعِرِ والمُحاوَراتِ. وقَد امْتازتْ صورةُ الحَديث الفنّيّةُ، بما اعْتمَدت عَلَيْه مِن وَسائلَ فِي التّعبيرِ والتّصْويرِ، مِنها ما كانَ مَعْروفًا لَدى العَربِ فِي أدَبهم،

---

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» «صحيح مُسْلم: ١/٧٤».

(٢) انظر في تفْصيلِ هذا المعنى: «التّصْوير الفنّي في الحَديث النّبَويّ: ٤٨٩» د. محمّد بن لُطفي الصبّاغ، المكتب الإسلامي، ط.١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٣) «الاستِعارات التي نَحْيا بِها: ٢١»، ج.لايكوف وم.جونسون، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٩٦م.

كَالتّشبيهِ والاسْتِعارةِ والكِنايةِ، ومِنها ما لَمْ يكُنْ واضِحًا في أدَبِهم كَالوَصْفِ والقِصّةِ والتّشْخيصِ والمُوازنَةِ والإشارةِ[1]... أمّا الرَّمْزُ فلَمْ يَعْدِل الحَديثُ النّبويُّ عنِ الإفصاحِ والإغرابِ والبَيانِ إلى الرّمْزِ؛ لأنَّ الرّمْزَ مَلْجَأُ المُتستِّرِ، ولَيْسَت الكِنايةُ شَبيهةً بالرّمْزِ، ولا المَجازُ شَبيهاً بالرّمْزِ، فالرَّمْزُ مُستَنْكَفٌ مِنه؛ لأنّ للعَربيّةِ شَجاعةً صادِقَةً في تَعْبيرِها وفي اشْتِقاقِها وفي تَكْوينِ أحْرُفِها[2].

لقد قُدِّمتِ المَعاني في هَيئةٍ مِنَ الصُّورِ الموحيَةِ، القَريبةِ المأْخَذِ، المُستَمَدَّةِ مِن حَياةِ النّاسِ. والمَعاني، إذا نيلَت من الجهةِ التي تميلُ إليها النّفْسُ، كانَ نيْلُها لها أحْلى وبالميزةِ أوْلى، وكانَ موْقعُه منها ألطفَ وأدقَّ.

ومِنْ أدَواتِ التّصْويرِ المُستَعمَلَةِ بكثْرةٍ، في الحَديثِ النّبَويِّ التّشبيهُ؛ والمَعروفُ أنّ التّشبيهَ لا يُؤْتى به لإقامَةِ عَلاقةٍ بَينَ المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به، بَلْ يُؤتى به للإيضاحِ والبيانِ، معَ الإيجازِ والاخْتِصارِ[3]، ولاسْتِمالةِ السّامعِ إلى المعْنى والتّأثيرِ في نفْسِه، ولذلك كانَ التّشْبيهُ وسيلةً تصويريّةً مؤثّرةً في المعنى وعاملَةً على تجْليَتِه وتقويَتِه. وقد بيّنَ ذلكَ شيخُ البلاغَةِ عبدُ القاهرِ الجُرجانيُّ في تفريقِه بين المعنى البسيطِ الذي يُساقُ من غيرِ تَصْويرٍ، وبَينَ المَعنى مسْلوكًا به

---

(١) «التّصْويرُ الفنّيّ في الحديثِ النّبويّ: ٤٩٠-٤٩١».

(٢) «أباطيل وأسمار: ٤٣٦»، الأستاذ محمود محمّد شاكر، مط. المدني، القاهرة، ط.٢/ ١٩٧٢م.

(٣) عقدَ أبو منصورٍ الثّعالبيّ في كتابه «الإعجاز والإيجاز:٢١» الفصل الأول من الباب الثّاني لـ«جَوامعِ تشْبيهاتِ الحَديثِ وتمْثيلاتِه».

مسْلَكَ التّشبيه: «وإن أردْتَ اعْتبارَ ذلكَ في الفنِّ الذي هو أكرمُ وأشرفُ، فقابلْ بينَ أنْ تقولَ: «إنّ الذي يعظُ ولا يتّعظُ يضرُّ بنفْسه من حيثُ ينفعُ غيرَه»، وتقتصرَ عليه، وبينَ أنْ تذكُرَ المَثَلَ فيه على ما جاءَ في الخبرِ من أنّ النّبيَّ ﷺ قالَ: «**مثَلُ الذي يعلمُ الخَيْرَ ولا يَعْمَلُ به مثَلُ السِّراجِ الذي يُضيءُ للنّاسِ ويُحرِقُ نفْسَه**»، ويُروى «**مثَلُ الفتيلةِ التي تُضيءُ للنّاسِ وتُحرِقُ نفْسَها**»[1]...»[2].

وقدْ عرَّفَ التّشبيهَ بقوله: «اعْلَمْ أنّ الشّيْئَينِ إذا شُبِّه أحدُهما بالآخَرِ كانَ ذلك على ضَرْبيْنِ: أحدُهما أن يكونَ **من جهةِ أمرٍ لا يُحتاجُ فيه إلى تأوُّلٍ، والآخَرُ أن يكونَ الشّبَهُ مُحَصَّلاً بضرْبٍ من التّأوُّلِ**، فمثالُ الأوّلِ تشبيهُ الشّيْءِ بالشّيْءِ من جهةِ الصّورةِ والشّكْلِ... والهيْئة...، وكذلكَ كلُّ تشبيهٍ جمَعَ بينَ شيئيْنِ فيما يدْخلُ تحتَ الحواسِّ... فالشّبَه في هذا كلّه لا يجْري فيه التّأوُّلُ ولا يُفْتَقَرُ إليه في تحصيله... ومثالُ الثّاني، وهو الشّبَه الذي يحصُلُ بضرْبٍ من التّأوُّلِ، كقولِكَ: «هذه حجّةٌ كالشّمْسِ في الظُّهورِ»... إلاّ أنّكَ تعْلَمُ أنّ هذا التّشبيهَ لا يتمُّ لكَ إلاّ بتأوُّلٍ»[3].

---

(١) عن جندب بن عبد الله الأزدي عن رسول الله ﷺ قال: «مثَل الذي يُعلِّمُ الناسَ الخيرَ وينسى نفسَه كمَثَلِ السراج يضيء للناسِ ويحرق نفسه» الحديث رواه الطبراني وإسناده حسن، إن شاء الله، ورواه البزار من حديث أبي برزة إلا أنه قال: «مثَلُ الفتيلةِ» «**المعجم الكبير**: ٢/١٦٥»، و«**فيض القدير**: ٥/٥٠٨»، و«**كشْفُ الخفاء**: ٢/٤٠٥» «**الترغيب والترهيب**: ٣/١٦٦» أبو محمّد عبد العظيم المُنْذِري (ت.٦٥٦)، تح. إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١ / ١٤١٧؛ «**المعجم الكبير**: ٢/ ١٦٧».

(٢) «**أسرار البلاغة**: ١٠١».

(٣) «**أسرار البلاغة**: ٧٠-٧٢».

أمّا الحَديثُ السّابقُ، الذي ساقَه عَبدُ القاهرِ في مَعْرِضِ التّفْريقِ بَين المعْنى البَسيطِ والمَعْنى التّمْثيليّ، فإنّه يدْخُلُ في باب التّشْبيهِ التّمْثيلـيّ، ومفـادُه أنّ العالِمَ بالْخَيْرِ «أو مُعَلِّمَهُ، بِحَسَبِ رِواياتٍ أُخْرى» غَيْرَ العاملِ به، والسِّراجَ يجْتمعانِ في وجْهٍ واحدٍ، هُو نَفْعُ الغيْرِ وعدمُ الانْتفاعِ، وهيَ صورَةٌ تُقرِّبُ إلى النّفوسِ معنى ذلك الذي يحرِصُ على نفعِ غيرِه ويُهْمِلُ ذاتَه.

وعن أبي هريْرةَ قالَ: «**ضَرَبَ رَسولُ اللهِ ﷺ مَثَلَ البَخيلِ والمُتصَدِّقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْن عَلَيْهِما جُبَّتانِ مِنْ حَديدٍ، قَد اضْطرتْ أيْديهما إلى ثُـديِّهِما وتَراقيهِما. فَجَعَلَ المُتَصَدِّقُ، كُلّما تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ، انْبَسَطَتْ عَنْـه حَتّـى تغشي أناملَه وتَعْفُوَ أثَرَه، وجَعَلَ البَخيلُ كُلّما هَمَّ بِصَدَقَةٍ قلصتْ وأخَذَتْ كلُّ حَلْقَةٍ مَكانَها . قالَ: فَأنا رَأيتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ بإصْبَعِه في جَيْبِه، فَلَوْ رَأيْتهُ يُوسعُها ولا توسعُ**»[1] .

يُبيِّنُ لنا الحديثُ بالتّشْبيهِ والتّمثيلِ كيفَ أنّ البُخْلَ مَرْكـوزٌ في طِبـاعِ البَشَرِ ومن أشدِّ خِصالِ النّفْسِ صلابَةً وقُوّةً واسْتِحْكامًا، أمّا الإنْفاقُ والكرَمُ فإنّه يَبْسُطُ النّفْسَ ويُلينها ويُنمي المالَ؛ لأنّ نَماءَ المالِ بالإنْفـاقِ وكَـسادَه بالبُخْلِ والإمساكِ. وهو بَيانٌ بالتّشبيهِ والتّصْويرِ: فالبَخيلُ رجُـلٌ كَـسائِرِ الرّجالِ، ولكنّه مُتلبِّسٌ بصِفةِ البُخْلِ، والمُتصدِّقُ رجُلٌ متلبِّسٌ بالكرَمِ وحـبِّ الإنْفاقِ. ومثَلُهما فيما تلبَّسا بِه كَمَثَلِ مَن عليه جُبّةٌ من حَديـدٍ، أحـدُهُما

---

(١) «صحيح مسلم:٢/٧٠٨»، «صحيح البخاري: ٣/١٠٦٨» ، «صحيح ابـن خزيمـة: ٤/٩٦» .

جَمَدَتْ عليه جُبّته ولازمتُه، والثّاني أخذَت تَنْحسرُ عنْه كُلّما تصَدّقَ بصدقَة، وكأنّ هذا الإنفاقَ هو مِفْتاحُ الانْحِسارِ وسِرُّ الانْفراجِ.

ومزيّةُ هذا التّصْويرِ أنّه قد جرّدَ هذه الصّفةَ المذْمومَةَ عنْ كلّ لَبوسٍ قد يَعْتَذرُ به النّاسُ مِثْل لَبوسِ حُسْنِ التّدْبيرِ وخَشْيةِ الإمْلاقِ... وأظْهَرَ حقيقَةَ الشُّحّ عاريةً أمامَ المُخاطَبينَ، وكشَفَ أضْرارَها، وبَيَّنَ في مُقابِلِ ذلِكَ حَسَناتِ التّصدُّقِ وعَواقِبَه الحَميدَةَ عَلى صاحِبِه.

وعنْ أبي عبْدِ الله النُّعْمانِ بْنِ بَشيرٍ قالَ: سَمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ يقولُ: **«إنّ الحلالَ بيِّنٌ، وإنّ الحرامَ بيِّنٌ، وبينهُما أمورٌ مشْتَبهاتٌ لا يعْلمُهنّ كثيرٌ من النّاسِ. فمن اتّقى الشُّبُهاتِ فقدِ اسْتبْرأَ لِدينه وعِرْضه، ومن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحرامِ؛ كالرّاعي يرْعى حوْلَ الحِمى، يوشِكُ أن يرْتَعَ فيه. ألا وإنّ لكلّ ملك حِمىً، ألا وإنّ حِمى الله محارِمُه، ألا وإنّ في الجسد مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، ألا وهِيَ القَلْبُ»**[1].

يُبيِّنُ صَدْرُ الحديثِ أنّ الحلالَ المحضَ بيّنٌ لا شُبْهةَ فيه، وأنّ الحرامَ المحْضَ بيّنٌ لا شُبْهةَ فيه أيضًا، وهوَ كُلُّ شيْءٍ أُمِروا بِه أو أُحِلّ لهُم، وكلُّ

(١) بابُ أخْذِ الحلالِ وتركِ الشُّبُهاتِ: «صَحيحُ مُسْلم: ٣/١٢١٩» ، بابُ فضْلِ من استَبْرأ لدينِه: «صَحيح البُخاري: ١/٢٨»، «صحيح ابْنِ حِبّان: ١/٥٣٢».

شيءٍ حُرِّمَ عليهم، ونُهوا عنهُ، أو كُرِهَ لَهُمْ[1]. ولكنّ بينَ الحَلالِ المحضِ والحرامِ المحضِ ما يَشْتبه على النّاسِ أمرُه، ولا يتبيَّنُ أمِنَ الحَلالِ هوَ أمْ مِنَ الحرامِ إلاّ لِذوي العلْمِ، مِثْل بَعْضِ ما اختُلفَ في حِلّه أوْ حرْمَتِه، إمّا مِن الأطْعمةِ أو الأشْرِبَةِ أو الألْبسة، وإمّا مِنَ المَكاسبِ المُخْتلَف فيها. وأسْبابُ الاختِلاف بينَ العُلَماءِ كثيرةٌ، ولكنّهُمْ لا يشْتبه على خاصَّتِهم والرّاسخينَ منهم أحكامُ الأُمورِ، ولهذا قالَ في المَتشابهات: **«لا يَعْلمُهنّ كثيرٌ من النّاسِ»**، فمَنْ تَرَكَ هذه المُشْتبهاتِ التي يخْفى عَلَيْه حُكْمُها ويخْتلطُ فيها الحلالُ بالحرامِ، أوْ هيَ منزِلةٌ بَينَ الحَلالِ والحَرامِ، بقَصْدِ بَراءةِ الدّينِ والعِرْضِ عنِ النّقْصِ، وفي رِوايةٍ أخْرى: **«فمَن تركَ ما يشْتبهُ عليْه من الإثْمِ كانَ لِما اسْتبانَ لهُ أتْرَكَ»**[2]، وفي رِوايةٍ عَنِ النُّعْمانِ بْنِ بَشيرٍ: **« ومن اجْترأَ على ما يشكُّ فيهِ مِن الإثْمِ أوْشَكَ أن يُواقِعَ ما اسْتَبانَ»**[3].

---

(١) مَدارُ هذا الحَديثِ الجامعِ على مسألةِ البَيانِ، بَيانِ الحُدودِ بينَ الحَلالِ والحَرامِ، ويعني أنّ كُلاًّ من الحلال الصّريحِ والحرام الصريح قد بُيِّنَ أمرُه بِما لا يَدَعُ مجالاً لِمزيدِ بيان، ولا لِعذْرِ مُعتذرٍ عذر في مخالفة الأمر والنهي بدعوى نقص البيان، وقدْ بيّنَ الله عز وجل للأمة ما تحتاج إليه من أحكام، قال تَعالى: ﴿ونزّلنا علَيكَ الكتابَ تبياناً لكلِّ شيءٍ﴾ (النحل:٨٩). وأمّا ما لم يَردْ بيانُه مُفَصّلاً في كتاب الله تعالى فقدْ بيّنَتْه السُّنّةُ تحقيقاً لقوله تَعالى: ﴿وأنزلنا إليكَ الذِّكرَ لتُبينَ للناسِ ما نُزلَ إليهم﴾ (النحل:٤٤).

(٢) «سُنَن البيْهَقي الكُبْرى: ٥/٢٦٤».

(٣) «صَحيح البُخاريّ: ٢/٧٣٢»: باب «الحَلال بَيِّنٌ والحَرامُ بَيِّنٌ وبَيْنَهُما مُشْبهاتٌ»، رقم:١٩٤٦، «مُسْنَد الإمامِ أحْمَد: ٤/٢٧٥» و«فَتح الباري: ١/١٢٨».

وبَعْد ذلكَ أوْرَدَ الحَديثُ صورةً تشْبيهيَّةً، شُبِّه فيها الواقعُ في الشُّبُهاتِ المُقْتربُ من الحَرامِ المَحْضِ بمَن يرْعى حَوْلَ حمىً مُحَرَّمٍ، ولله سُبْحانَهُ حمًى، وحماهُ المُحَرَّماتُ والحُدودُ، وكُلُّ مَن رَعى قُرْبَ الحمى فإنّهُ جَديرٌ بأنْ يَدْخُلَه ويرْتَعَ فيه، مَهْما تكُنْ ذَريعَتُه التي يَتذرَّعُ بها؛ لأنّ الحديثَ يسُدُّ بابَ الذّرائعِ، فَقد ابْتعدَ هذا الرّاعي بِغَنمِه عَن وَسَطِ المَرْعى، واقْتَربَ من الحُدودِ التي تفْصلُه عنْ مَرْعى (الغيْرِ)، وتوشكُ غنَمُه بينَ الفينة والأُخْرى أن تقْتحمَ الحمى المُجاورَ، ومثْلُه الذي يبتعدُ عن بُحْبوحَةِ الحَلالِ المَحْضِ، ويقْتَربُ من الحُدودِ التي تفْصلُه عنِ الحرامِ. وهذا تشْبيهٌ يُمثّلُ فيه الحديثُ لمعْنى «**الوُقوعِ في الشّبْهة**» بمثالِ «**حُدودِ المرْعى**» لتقْريبِ هذا المعْنى إلى الأذْهانِ وجعْله ماثلاً لكلِّ مَن يَهُمُّ بفعْلِ أمْرٍ لا يعْلَمُ حُكمَ اللهِ فيه، أو حُكْمُهُ مُخْتَلَفٌ فيه بينَ العُلَماءِ. فكلُّ هذا تشْبيهٌ وتمْثيلٌ، ومَعْناه تَرْكُ الإنْسانِ ما يَريبُهُ إلى ما لا يَريبُه، وفي رِوايةٍ: «**فَمَنِ اتّقى الشُّبُهاتِ اسْتَتَرْنَ منه، وأعْرضْنَ عنه...**»[1]. وهذا مَثلٌ في وُضوحِ الحقِّ وظهورِ معالمِ الإسلامِ لمن أرادَ قَصْدَها، وعَدلَ عن طريقِ الشُّبَه والرِّيَبِ مُفارقًا لها.

وخُتِمَ الحَديثُ ببيانِ أنّ إتْيانَ الحَلالِ المَحْضِ واجْتنابَ الحَرامِ المَحْضِ واتّقاءَ الشُّبُهاتِ أُمورٌ مَنوطَةٌ بِصَلاحِ القُلوبِ وسَلامَتِها، أيْ صَلاحُ حَرَكاتِ الجَوارِحِ مَنوطٌ بِالقَلْبِ السّليمِ.

---

(١) في حديث النعمان بن بشير: «الحلالُ بيّن والحرامُ بيّنٌ، وبين ذلك مشتبهاتٌ لا يعلَمُها كثيرٌ من الناس. **فمن اتّقى الشّبهاتِ استترن منه وأعرضن عنه...**»، «**أمثال الحديث**: ١٥/١» للرّامهُرْمُزِيّ.

وتشْبيهُ المَعْنى المَذْكورِ بالمِثالِ المذْكورِ بَيانٌ مُوضِحٌ يَختَصِرُ على المتكلِّمِ الحاجَةَ إلى الشَّرْحِ والتَّفْصيلِ، ويهْجمُ بِصورةِ المعْنى على ذِهنِ المُخاطَبِ، دفْعةً واحدةً. فهُو من **الإيجازِ المَحْمودِ ومِنْ جوامعِ الكلِمِ**، من جهةِ بَلاغةِ التَّشْبيه والإيجازِ، لِما يحْتمِلُه من الأحْكامِ والمَعاني. وهو من **جَوامِعِ الكَلِمِ**، لِما يحْتَمِلُه مِن الأحكامِ والمعاني التي تدْخُلُ تحت مفْهومِ الشُّبْهَة ويصْدُقُ عَليها مَعْناها؛ فقد فَصَّلَ العُلماءُ في بَيانِ مَعاني **الحَلالِ البيِّنِ، والحَرامِ البيِّنِ، والشُّبُهاتِ**، واسْتخرَجوا من ذلك **أُصولاً وقَواعدَ شتّى** تتعلَّقُ بالأحكامِ، وقدْ سبقَ ذِكْرُ ما رُوِيَ عنِ الأئمّةِ من أنَّ أصولَ الإسْلامِ على ثَلاثةِ أحاديثَ، منها حديثُ «الحلال بيّن والحرام بيّنٌ...»[1]، فتبيَّنَ من ذلك أنَّ هذا الحديثَ من شَواهِدِ **البَلاغَةِ النّصّيةِ العاليةِ وجَوامِعِ الكَلِمِ**، بِما هوَ أصْلٌ كَبيرٌ من أُصولِ الدِّينِ .

ويَدخُل في التّشبيه، تَشْبيهُ المَحْسوسِ بالمَحسوسِ، مثْلما في حَديث: «**كُن في الدّنيا كأنّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ**»[2]، وتشْبيهُ المعْقول بالمحسوسِ، كَما في حديثِ أبي سَعيدِ الخُدريّ، من خُطْبةِ للنّبيّ ﷺ: «**ألا وإنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ في قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أما رأيتُمْ إلى حُمْرَةِ عَيْنَيْه وانْتفاخِ أوْداجِه ؟ فمَنْ أحَسَّ بشيْءٍ من ذلك فَلْيلْصقْ بالأرْضِ**»[3].

---

(١) عَنِ النُّعْمانِ بْنِ بشيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «الْحَلالُ بَيِّنٌ، والْحَرامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُما أُمورٌ مُشْتَبِهاتٌ، لا يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ...»، «مُسْنَدُ أَبي عَوانَةَ: ٣٩٧/٣».

(٢) رواه: «البُخاري في صَحيحه: ٢٣٥٨/٥» و«التِّرمذيُّ في سُنَنه، ٥٦٧/٤»، في بابِ «قِصَرِ الأملِ»، و«ابْنُ حِبّانَ في صَحيحه: ٤٧١/٢».

(٣) بابُ ما جاءَ ما أَخبرَ النّبيُّ ﷺ أصحابَه بِما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ: «سننِ التّرمذي، ٤٨٣/٤»، «مُسْنَد أحمَد،١٩/٣».

وأمّا تشْبيـــهُ التّراكيب، فيردُ في الغـــالبِ على هيْئة تشْبيه تَمْثيلي[1]، أو تَشْبيهِ صورَةٍ مُتعدِّدة الأجْزاءِ بصورَةٍ مُتعدِّدة الأجْزاءِ. وأغْلبُ الأحاديثِ التي وردتْ فيها الأمْثالُ منْ هذا الباب[2].

والمقْصودُ بالأمثالِ في الحَديثِ النّبويِّ التّشْبيهُ التّمْثيليُّ الذي يَضْرِبُ فيه النّبيّ ﷺ المَثَلَ بالمَحْســوسِ المَعْروفِ لِبَيانِ الخفيِّ الغـائبِ عن الحسِّ، قـالَ أبو الحَسنِ بْن خلاّدٍ الرّامَهُرْمُزِيُّ في كتابه «أمثال الحَديث» مُعرِّفًا بِموْضوعِ الكِتـابِ: «هـذا ذكْرُ الأمْثالِ المَرْوِيَةِ عَن النّبـيِّ ﷺ، وهيَ على خِلافِ ما رَوَيْناه مِن كلامِه المُشاكِلِ للأمْثالِ المذْكورَةِ عنْ مُتقدِّمي العـرَبِ؛ فـإنَّ تلْك مواقِعُ الأفْهامِ باللّفظِ الموجزِ المُجَلِّ، وهذا بيانٌ وشرْحٌ وتمْثيلٌ، يُوافـقُ أمْثالَ التّنْزيلِ التي وعدَ اللهُ عزَّ وجلَّ بِها وأوْعَدَ، وحَرَّمَ وأحَـلَّ، ورَجّـى وخوّفَ، وقَرعَ بِها المشْرِكينَ، وجَعلها موْعِظةً وتذْكيرًا»[3].

---

(١) فرّقَ العُلماءُ بينَ التّشْبيهِ والتّمْثيلِ، وبيّنوا أنّ التّمْثيلَ «أنْ تَصِفَ شيْئًا غابَ عنْكَ فتُمَثِّلَ لَه في الشّاهِدِ ليقفَ على ما يُؤدّي مَعْنى الغائبِ»: «**الأمْثال من الكِتاب والسُّنّة**: ٧٤»، لأبي عبْدِ الله الحَكيم التّرْمِذِيّ ، تح. د. السّيّد الجميلي، دار ابْـن زيـدون، بيـروت، ط١/١٩٨٥م.

(٢) أُلِّفتْ مُصنّفاتٌ في مَوْضوعِ «**الأمْثالِ في الحَديثِ النّبويّ**»، واستَخْرَجَ أصْحابُها مـنَ الأحاديثِ بعضَ الوُجوهِ البلاغيّةِ التي تتمثّلُ في التّشْبيهِ والكِنايةِ، منها كِتابُ «**الأمْثـال من الكِتـابِ والسّنّة**» لأبي عبـدِ اللهِ الحـكيم التّرْمِذيّ، وكتاب «**أمثال الحـديث**» لأبي الحسَنِ عبدِ الرّحْمنِ بنِ خلاّدٍ الرّامهُرْمُزِيّ (ت.٥٧٦)، وكتاب «**الأمْثـال فـي الحديثِ النّبويّ**» لأبي محمّد عبدِ اللهِ بن محمّد بن جعفر بْنِ حيّانَ (ت.٣٦٩).

(٣) «**أمثال الحديث**: ٨».

فهُو لا يقْصدُ بالأمْثالِ الأحاديثَ القصارَ التي جرتْ مجْرى الأمْثـال، وسارتْ بِها الرُّكْبانُ كَحديث عبْدِ اللهِ بْنِ عَمْـرٍو: «الحَـرْبُ خدْعَـةٌ»، وحديثِ عبْدِ اللهِ بْنِ عبّاسٍ: «ليسَ الخبرُ كالمُعايَنة» وكلّ ما حُفِـظَ عَـنْ رَسولِ اللهِ ﷺ وصارَ مثَلاً» .

ولكنّ المُرادَ تَشْبيهُ **الأحْوالِ العامّة لا الأفْراد**؛ لأنّ تـشْبيهَ الأفْـراد يَعْتمدُ عَلى أدواتِ التّشْبيهِ. ولكنّ الحافظَ أبا الشّيخِ الأصْبهانيّ (ت.٣٦٩)، لَمْ يُميّزْ في دلالةِ الأمْثالِ بينَ ما جَرى مجْرى الأمْثالِ من **جَوامِـعِ الكَلِـمِ** القِصارِ، وبينَ الأحاديثِ التي تضمّنتْ تمْثيلَ الهيْئاتِ والأحْوال؛ فقـدْ جمـعَ النّوْعيْنِ معًا تحْتَ عُنوانِ الكِتابِ المذْكورِ منطلقًا فيه مِن قوْلِ الصّحابيّ عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو: «حفظْتُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ ألْفَ مثَلٍ»[١].

والغايَةُ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ أنْ يَكونَ المَعْنى أوْضَحَ وأوْقَعَ في نَفْسِ الـسّامِعِ وأقْرَبَ إلى سُرْعَةِ فَهْمه، وفيه تَشْبيهُ ما اخْتُلفَ فيه وأشْكَلَ بِما اتُّفقَ عَلَيه[٢]. ويَعُدُّ البَلاغيّونَ التّمثيلَ أو المُماثلَةَ من ضُروبِ الاسْتعارَة؛ وذلكَ أنّ تمْثيـلَ شيْءٍ بِشيْءٍ فيهِ إشارَةٌ، ومعْنى التّمثيلِ اخْتصارُ قولكَ: «مثلُ كذا وكـذا» والتّمْثيلُ – مِثْل الاسْتعارةِ – من التّشْبيهِ، إلاّ أنّهُما بغيرِ أداته[٣]. فالتّـشبيهُ

---

(١)«الأمْثال في الحديث النّبويّ: ٣٠».

(٢) «فتْح الباري: ٦٦/٤».

(٣) انظُرْ في تَفْصيلِ ذلك : «العُمْدَة في مَحاسنِ الشّعْرِ وآدابه ونقْده: ٢٧٧/١-٢٨٠» ، لابن رشيقِ القيْروانيّ.

التّمثيليُّ هو الذي يكونُ وجْهُ الشّبَه فيهِ صورةً منتزَعَةً مِن مُتعَدِّد، ولهُ أثــرٌ بليغٌ في النّفسِ؛ لأنّه إذا وقعَ في صدْرِ الكلامِ، نبّه النّفسَ على تلقّي المعْـنى، وبَعثَه إليها بوُضوحٍ مُعْضودٍ بالدّليلِ المُقنِعِ.[1]

ومِن الأحاديثِ التي تَدْخُلُ في هذا البابِ حَـديثُ أبي هُرَيْـرةَ عَـنِ النّبيِّ ﷺ: «**أرَأيْتمْ لَوْ أنَّ نَهرًا بِبابِ أحَدِكُمْ، يغْتسِلُ فيهِ كلَّ يَـومٍ خَمـسَ مَرّاتٍ، ما تَقولونَ، أيُبْقي ذلكَ مِن دَرَنِه شيْئًا؟ قالوا: لا يُبْقي ذلكَ مِن درنه شيْئًا، قالَ: فذلكَ مثْلُ الصّلواتِ الخَمْسِ، يَمْحو اللهُ بِها الخَطايا**»[2].

في الحَديثِ تمْثيلٌ للمُؤْمنِ الذي يُواظِبُ عَلى الصّلواتِ الخَمسِ بــالمُؤْمنِ الذي يَغْتسِلُ خَمْسَ مرّاتٍ في نَهرٍ ببابِ بيتِه. والغَرَضُ من ضَرْبِ المثالِ بَيانُ فَضيلَةِ المُواظَبَةِ عَلى الصّلَواتِ، وهيَ أنّها تَمْحو الخَطايا كما يَمْحو تَكْـرارُ

---

(١) الإمامُ ابْنُ القيِّم: «في مَعْنى المثَلِ وحكْمَةِ ذكْرِه في القُرآنِ: ومنْ هذا ما وقَعَ في القرآنِ منَ الأمثالِ التي لا يَعقِلُها إلاّ العالمونَ؛ فإنّها تشبيهُ شيءٍ بشيءٍ في حُكمِـه وتَقريـبُ المعقولِ منَ المحسوسِ أو أحَدِ المحسوسَيْنِ منَ الآخرِ كقَولِه تَعالى في حقِّ المنافقينَ: ﴿**مثَلُهُم كَمَثَلِ الذي استَوْقَدَ ناراً فلمّا أضاءَتْ ما حَولَه ذَهَبَ اللهُ بنورِهِم وترَكَهُم في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهُمْ لا يَرْجِعونَ، أو كَصَيِّبٍ منَ السّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ ورَعْدٌ وبَرْقٌ، يَجْعَلونَ أصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ منَ الصّواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ**﴾ إلى قَولِه: ﴿**إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ**﴾ فضَرَبَ للمُنافِقينَ بحَسَبِ حالِهِمْ مثَلَيْنِ: مثَلاً نارِياً ومثَلاً مائِياً لِما في النّارِ والماءِ منَ الإضاءَةِ والإشْراقِ والحَياةِ، فإنّ النّارَ مادَّةُ النّورِ والماءَ مادّةُ الحياةِ، وقدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحانَه الوَحْيَ الذي أنْزَلَه منَ السّماءِ مُتَضمِّناً لحَياةِ القلوبِ واستِنارَتِها ولِهذا سَمّاه روحاً ونوراً وجَعَلَ قابِلِيه أحْياءً في النّورِ...» «**إعْلامُ المُوَقِّعينَ عَـنْ رَبِّ العـالَمينَ**: ١/١٥٠-١٥٢» أبو عَبْدِ اللهِ محمّدُ بنُ أبي بَكْرٍ، المَعْروفُ بابْنِ القيِّمِ (ت.٧٥١) تح. طَه عَبْدِ الرّؤوف سعد، دار الجيل، بيْروت، ١٩٧٣م.

(٢) «**صَحيح البُخاري**: ١/١٩٧»، «**صَحيح ابْنِ حِبّان**: ٥/١٤».

الاغْتسالِ الدّرَنَ. وفي التّمْثيلِ تَرْغيبٌ بليغٌ في الإقْبالِ على تَكرارِ الفعْلِ، وهُوَ تَرْغيبٌ في غَسْلِ الرّوحِ منْ دَرنِ بقاؤُهُ يُؤْذي وزَوالُه يُنشِّطُ، من مُغْتسَلٍ غيرِ بعيدٍ. وفي التّرْكيبِ افْتراضٌ بالاسْتفْهامِ يرادُ منه تقريرُ شيْءٍ يُطلَبُ من المُخاطَبِ جوابُه لِتُبْنى عليه النّتيجةُ المُقرَّرَةُ. وفيه تنْكيرٌ للنّهرِ، وهو نَهرٌ غيرُ معْروفٍ عنْدَهم، يُرادُ منه تشْويقُ السّامعِ في تصَوُّرِ عظَمَةِ هذا النّهرِ وعُذوبتِه. وفيه الباءُ التي تُفيدُ الظّرْفيّةَ، ولعلّ الأبْلغَ في الدّلالةِ أنّها تُفيدُ الإلصاقَ، لتَصْويرِ مدى القُربِ وتَحْريكِ الهمّة للاغْتسالِ منه وتَهْوينِ المشقّة. وفيهِ الفعْلُ المُضارِعُ الذي يُفيدُ التّجدُّدَ في كُلِّ يومٍ خمْسَ مرّات، ثمّ يتَصاعدُ العدَدُ بمُرورِ الأيّامِ. وفيه الفاءُ الفصيحَةُ التي تُفيدُ ربْطَ النّتيجة المقَرَّرَة – المُراد إثْباتُها وإبلاغُها – عنْ فضيلَة تَكرارِ الصّلواتِ الخمسِ، وكأنّها تربِطُ جوابًا بشرْطٍ مُقدَّرٍ قبلَها (إنْ يَمْحُ النّهرُ الدّرنَ فذلك مثْل الصّلوات...).

وممّا يدْخُلُ في هذا البابِ قولُه ﷺ، في رِوايةٍ عنْ أبي هريْرةَ: **«مَثَلي ومَثَلُ الأنبياءِ من قبْلي، كمَثَلِ رجُلٍ بنى بُنْيانًا فأحسنَه وأجْملَه إلاّ موْضعَ لَبِنَةٍ[1] من زاويَةٍ من زَواياه، فجَعَلَ النّاسُ يطوفونَ بهِ ويَعْجَبونَ لهُ، ويقولونَ: هلاّ وُضِعتْ هذِه اللّبنةُ. فأنا اللّبِنَةُ، وأنا خاتمُ النّبيّينَ»**[2].

---

(١) القطْعَةُ من الطّينِ تُعْجَنُ وتُجبَل وتُعَدُّ للبناءِ، وهِيَ لَبِنَةٌ ما لَمْ تُحْرَقْ، فإذا أُحرِقَتْ فهِيَ آجُرَةٌ «فتْح الباري: ٦/٥٥٩».

(٢) «صحيح البخاري: ٣/١٣٠٠» ، «صحيح مسلم: ٤/١٧٩١» «صحيح ابنِ حبّان: ١٤/٣١٥».

وهُناكَ كثيرٌ من الأحاديثِ المَبْدوءَة بلَفْظِ المَثَل، نحو تَمْثيل الذّاكر وغيْرِ الذّاكر، وتَمْثيل الجَليسِ الصّالحِ والجَليسِ السّوء، وتَمْثيلِ المُنافِقِ في تَرَدُّدِه... انظُرْ التّفْصيل في «النّبيّ الكَريمِ ﷺ مُعَلّمًا: ٩٤–٩٩» د. فضل إلهي.

فهذا مَثلٌ يَضرِبُه النبيّ ﷺ على نُبوّته وختْمه للنّبوّاتِ وبه تتمّ حُجّةُ اللهِ على خَلْقه، وقدْ مثّلَ بالبُنْيانِ الـذي يشُدُّ بعْضُه بعْضًا، وهوَ ناقصُ الكَمالِ إذا نقصَ بعْضُه، فأكْملَ اللهُ بمُحمّد، ﷺ دينَه وختَمَ به النّبوّاتِ والرّسالاتِ.

قالَ أبو الحسنِ بْنُ خلاّدٍ الرّامهُرْمُزِيُّ: «هذا مَثَلُ نُبوّتِه ﷺ، وأنّه خـاتمُ الأنبياء، وبه تَتمُّ حُجّةُ اللهِ عَزّ وجَلّ عَلى خَلقه. ومثّلَ ذلك بالبُنيانِ الـذي يَشدُّ بَعضُه بَعضًا وهو ناقصُ الكَمالِ بنقْصانِ بَعضه، فأكمَلَ اللهُ به دينَـه، وختَمَ به وحْيَه، والعَربُ تمثّلُ ما يُبالغون فيه من الوَثاقَةِ والأصـالةِ وعُقـدةِ المَكارمِ والمَفاخرِ وأشباهِ ذلك بالبُنيانِ؛ قالَ اللهُ عَزّ وجَـلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصَّفّ:٤). يَعْني لا يَزولُ ولا يتخلْخَلُ. وأخبَر أنّه بَنى السّماءَ فرَفعَ سَمْكَها وهو بِناء القُدرةِ، لا أنّ ثَمَّ شيئًا مِن آلةٍ. قالَ عَبدةُ بنُ الطّبيبِ يَذكُرُ قَـيسَ ابْنَ عاصِمٍ:

فَما كانَ قَيْسٌ هُلْكهُ هُلْكَ واحِدٍ ولَكِنّهُ بُنْـيانُ قَـوْمٍ تَهدّما»[1].

وعنِ النُّعْمانِ بْنِ بشيرٍ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«مثَلُ المُؤْمنينَ في تَوادِّهِمْ وتَراحُمِهِم وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسدِ الواحـدِ؛ إذا اشْتكى مِنْه عُضْوٌ تداعى لَه سائِرُ الجَسَدِ بالسّهَرِ والحُمّى»[2].

---

(١) البيان والتّبيين، ٣٥٣/٢، ١٨٨/٣؛ و«الشّعر والـشّعراء: ٧٢٨/٢» لابـنِ قُتيبـةَ (ت.٢٧٦)، تح. أحمد محمّد شاكر، دار المعارف، القاهرة، «أمثال الحديث: ١٠/١».

(٢) «صحيح مسلم: ١٩٩٩/٤»: باب تراحُم المُؤمنين وتعاطُفِهم وتعاضُدِهم.

وفي روايةٍ أُخرى عنِ النعمانِ بنِ بشيرٍ عن النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ المُسلمين في تَواصُلِهم وتَراحُمِهم والذي جَعلَ اللهُ بينهم، مَثَلُ الجَسدِ، إذا اشتكى شَيءٌ منه، تَداعى سائرُه بالسَّهرِ والحُمّى»[1].

قالَ أبو الحسنِ الرّامهرمُزيّ: «قالَ أبو محمّد: التّوادُّ والتّحابُّ والتّراحُم والتّواصُلُ مصادرُ، من قولك: تحابَّ الرجلان وتوادّا وتَواصَلا وتَراحَما و... يقع فعلُ المحبّةِ والمودّةِ والوصْلةِ والرّحمةِ من أحَدهِما مثل ما يقعُ من الآخرِ، وشبَّه المؤمنين في هذه الخِصال، وإن تغايَرتْ أجسامُهُم وتَباينَت، بالجسَدِ الواحدِ الذي يَألَمُ جميعُه بما يألَم بعضُه، فكذلك المؤمنون متكافئون في السَّراءِ والضّراءِ، ومشْتركون في الشّدّةِ والرَّخاء»[2].

لقَدْ مثّلَ الحَديثُ لِحَقيقَةِ الإيمانِ في قُلوبِ المُؤْمنينَ الذينَ يَجْمعُهم ويَشُدُّ بَعضَهُم بِبعْضٍ في السّرّاءِ والضّرّاءِ، بِبناءِ الجسَدِ الواحدِ الذي يُمسكُ بعْضُه بعضًا، وقَرّرَ بالتّمثيلِ أنّ كلَّ فردٍ من أفرادِ المجتمَعِ المؤْمنِ كالعُضْوِ من أعضاءِ الجسدِ، إذا أصيبَ العُضْوُ الواحدُ منهُ بالألمِ سَرى الألَمُ في باقي الأعضاءِ بِحُكمِ الرّابطِ الذي يصلُ بعضَهم ببعضٍ، ومِثْلُ ذلكَ مُجتمعُ المُؤْمنينَ إذا ألَمَ أحدُهم أحسَّ بألمِه باقي المؤمنينَ بحكمِ رابطةِ الإيمانِ التي تصِلُ بينهُم، وتنْقُلُ مَشاعرَ كلِّ فردٍ إلى غيرِه، فرابطةُ الإيمانِ المعنويّةُ تُشبه رابطةَ الجسمِ المادّيّةَ، وهذا أُنموذجٌ للمجتمَعِ السّليمِ، وهو بخَيْرٍ ما دامتِ الاسْتجابةُ

---

(١) «أمثال الحديث: ١/٨٢».

(٢) المَصدَرُ نَفسُه.

قائمةٌ فيه، وما دامَ بعضُه يُحسُّ ببعضٍ. وتَسْقُطُ عَنه السّلامةُ والخَيريّةُ إذا تَعَطّلتْ حَواسُّه وفقَدَ الاسْتجابةَ[١].

وممّا يزيدُ في تأكيدِ معنى التّماسُكِ بينَ المُمثّلِ لهُ، وهُو مجتمَعُ المؤْمنينَ والمُمثّلِ به، وهو الجسَدُ، أنّ المُمثّلَ به وردَ في صيغةِ المفرَدِ الذي **لا يتَحلّلُ إلى أفرادٍ**، فيحْتفظ بصفاتِ الجَسديّة، ثمّ وُصفَ بصفَةِ الواحدِ إثباتًا للوحْدَة والتّماسُكِ وتأكيدًا لها، ثمّ تجانَسَ فعْلا الشّرْطِ والجزاءِ في المُضيِّ؛ للدّلالة على سرْعةِ الاسْتجابةِ عندَ وجودِ الدّاعي، ثمّ اخْتيرَ لفظُ «تَداعى» للدّلالة على أنّ الأعضاءَ يدْعو بعضُها بعضًا إلى الاسْتجابةِ والإنقاذِ من الهلاكِ، وكأنّ خطرَ الهلاكِ مُحْدقٌ بكلِّ الأعْضاءِ، لا بالعضْوِ المصابِ فقط.

ورُويَ عن كعبِ بنِ مالكٍ أنّ رسولَ الله ﷺ قالَ:

«ما ذِئْبانِ جائعانِ أُرْسِلا في غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَها مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلى المالِ والشّرَفِ، لِدينه»[٢].

---

(١) بيّنَ د. كمال عزّ الدّين في كتابه «الحديث النّبويّ الشّريف من الوجْهة البلاغيّة: ١٦٠-١٦١» أنّ تأخرَ المسلمينَ وانحدارَ نجمهم آيةٌ على صدقِ هذا الحديث، وهو حديثٌ ينطبقُ على حالِ المسلمينَ اليومَ ، وأنّ علاجَ قلوبهم وأداةَ انتصارهم وسببَ عزّتهم أنْ يعودوا في توادّهم وتراحُمهم وتعاطفهم جسدًا واحدًا يسهرُ بسهرِ الجزْءِ منه ويحمُ بحُمّاه.

(٢) «صَحيح ابْن حبّان: ٨/٢٤»: «باب ما جاءَ في الحرص». و«مَوارِد الظّمْآن: ٦١٢/١»: «باب فتنة المال» و«سُنَن التّرمذيّ: ٤/٥٨٨»، و«مَجْمَع الزّوائد: ١٠/٢٥٠»: « بابٌ في حبّ المال والشّرف». وفي لفظ آخرَ لعاصم بْن عديٍّ: «يا عاصمُ، ما ذئبانِ عاديانِ أصابا فَريقةَ غنمٍ أضاعَها ربُّها...»: «شُعَب الإيمان: ٧/٢٦٩» للبيْهقيّ (ت.٤٥٨)، تح. محمّد السّعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط.١ / ١٤١٠.

يَنُصُّ الحَديثُ عَلى ذمِّ الجاهِ والمالِ، ويُحَذِّرُ مِن شَرِّهما لأنَّهُما مَفْسَدَةٌ للدِّينِ، ويضْرِبُ المثالَ على إفسادِهما له بإفسادِ ذئبَيْنِ جائعيْنِ أُطلقا على غنَمٍ. ويُترَكُ السّامعُ أمامَ هذه الصّورةِ ليتَخيَّلَ مشْهَدَهُما وهُما يُرْسَلانِ على قطيعِ الغنَمِ. إنّه مشْهَدُ الافْتراسِ الشّرسِ الذي لا هوادةَ فيه ولا رحْمَةَ؛ لأنَّ نَهَمَ الجوعِ يحْفزُ الطّاقاتِ كلَّها على الانْقضاضِ على الفريسَة، بلْ جيءَ بالنّفْيِ (ما) لإثْباتِ المُساواةِ بينَ الممثَّلِ له والمُمَثَّلِ به وتأكيدِها، وجيءَ بالحرْصِ لتصْويرِ الحالِ الحقيقيّةِ التي تصوِّرُ الإرادةَ المستمرّةَ في النّفْسِ، ثمّ بحرفِ الجرِّ الزّائدِ (الباء) الذي يفيدُ التّأكيدَ، ثمّ وُصفَ الذّئْبانِ بصفةٍ مؤكِّدَةٍ وهيَ (جائعان) لزِيادةِ تهْويلِ الخَطرِ، وهو أنّ الفتكَ سيكونُ أشدَّ وأعظَمَ.

فاجتمعَ في هذا الحَديثِ على قِصَرِه ووجازةِ ألْفاظِه وتنوُّعِ رواياتِه[1] مؤكّداتٌ تصوِّرُ مشْهدَ الفتْكِ الرّهيبِ، وذلك لكيْ يُبْنى عليْه تمْثيلٌ يُفيدُ إفْسادَ الحرْصِ على الدُّنْيا للدّينِ. فالحرْصُ على المالِ ذئْبٌ جائعٌ، والحرْصُ على الجاهِ ذئْبٌ آخَر جائعٌ. ودينُ المرْءِ فريسةٌ أمامَ الحرْصَيْنِ، والحرْصُ معْنى خفيٌّ لا يكادُ يتأتّى للمرْءِ اسْتشْعارُ خطَرِه؛ فإذا بالحديث يوقظُه من غفْلته، وينبّهُه على الخطرِ المُحْدقِ به من جهته؛ وعنْ جابرٍ أنّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**مَثَلي ومَثَلُكم كَمَثَلِ رجُلٍ أوْقَدَ نارًا، فجعَلَ الفَراشُ والجَنادبُ يقَعْنَ فيها، وهذه الدّوابُّ التي تقعُ في النّارِ تقَعُ فيها، فَجَعَلَ يَنْزعُهُنَّ ويَغْلِبْنَه، فَيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ**»[2].

---

(١) رواه صحابةٌ كثيرون برواياتٍ متنوّعة: كعب بنُ مالك وأبو هريرة وعاصم بن عديّ وابنُ عُمَرَ.

(٢) «صحيح مسلم: ٤/١٧٨٩، ١٧٩٠».

وعنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمون قالَ: سمِعْتُ عبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعـود يقولُ: قـالَ النبيُّ ﷺ: «مَثَلُ المُسْلمينَ يَوْمَ القيامَةِ في الكُفّارِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ البَيْضاء في الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوِ الشَّعْرَةِ السَّوْداءِ في الثَّوْرِ الأَبْيَضِ»[1].

وعنِ النّعْمانِ بْنِ بشيرٍ، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَثَلُ القائمِ عَلى حُدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استَهَموا عَلى سَـفينة فَأصـابَ بَعضُهُم أعلاها وبَعضُهم أسفلَها، فَكان الذينَ في أسفلِها إذا استَقَوا مـن الماءِ مرّوا على مَن فوقَهم فقالوا: لو أنّا خرقْنا في نصيبنا خَرْقًا ولم نُؤذِ مَن فوقَنا. فإن يَتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخَذوا علـى أيـديهم نَجَوا ونجوْا جَميعًا»[2].

وعَن أنسٍ عَن أبي موسى الأشْعَريّ قالَ: قالَ رَسـولُ اللهِ ﷺ: «مثَـلُ المؤمنِ الذي يقرأُ القرآنَ مثَلُ الأُترُجّةِ، ريحُها طيّب وطَعمُها طيِّب ومَثَـلُ المؤمنِ الذي لا يقرأ القرآنَ مثَلُ التمْرةِ، لا ريحَ لها وطعمها حُلْوٌ. ومثَـلُ المنافقِ الذي يقرأُ القرآنَ مثَلُ الرّيحانة ريحُها طيّب وطعمُها مرٌّ ومَثَلُ المُنافقِ الذي لا يَقرأ القُرآنَ كَمثَلِ الحَنظلةِ لَيسَ لَها ريح وطَعمها مُرٌّ»[3].

---

(١) الأمثال في الحديث النّبوي: ٣٥٦؛ صَحيح ابْنِ حِبّان، ١٦/٤٩٧؛ مُسنَد أحمد، /٤٣٧.

(٢) «صحيـح البخـاري: ٢/٨٨٢»: باب هل يُقرع في القسمة والاستهام؛ و«صـحيح ابن حبان: ١/٥٣٢»: ذكْر الإخبارِ عن وصف القائم في حدود الله والمداهن فيها.

(٣) «صحيح مسلم: ١/٥٤٩»: باب فضيلة حافظ القرآن. «صحيح البخاري: ٥/٢٠٧٠» باب ذكر الطعام. «صحيح ابن حبان: ٣/٤٧»: ذكر مثل المؤمن والفاجر إذا قرأ القرآن.

هذه الأَحاديثُ وأمثالُها تعتمدُ في بَلاغَتِها عَلى ضَرْبِ الأمثالِ، وتشْبيهِ الهَيْئاتِ والأَحْوالِ الحاصِلة بينَ المُمثَّلِ بِه والممثَّلِ لَه، للحُصولِ عَلى صــورةٍ مجسَّمَةٍ، تنْطوي عَلى دَقائقَ وتَفاصيلَ أُخْرى تَزيدُ الُمماثَلةَ قوّةً وتأْكيدًا.

- بَلاغَةُ المَجازِ في البَيانِ النَّبَويِّ:

«المَجازُ» طريقُ القولِ ومأْخذُه، وهو مصدرُ «جُــزْتُ» «مَجــازًا»، وكثيرًا ما تَستعملُ العربُ المجازَ وتعُدّه من مَفاخرِها؛ فإنّه دليلُ الفــصاحة، وهو كثيرٌ في الكَلامِ[1]. وسبيلُ «المجازِ» الاتّساعُ والتّجوُّز، وهو أن يُطلَــقَ اللّفظُ ولا يُراد مَعْناه، ولكنْ يُرادُ معنى ما هو رِدْفٌ له أو شبيهٌ، أيْ هــو أنْ يُسمّى الشّيْءُ باسْمِ ما قاربَه أو كانَ منه بِسبب. ومُجاوزةُ ظاهرِ المَعــنى إلى قَريبٍ منه يَجعلُ المجازَ أبلغَ من الحقيقة؛ لأنّه يَبلُغُ بالقارئِ الغايةَ في البَيــان. وقد ذُكرَ البلاغيّونَ للمجازِ أنواعًا كثيرةً، بحسَبِ جهةِ القوّةِ في كشْفِ المعْنى وبيانِه؛ فمنْها «التّمْثيل» الذي يكونُ مجازًا لأنّه يأتي على حدِّ الاسْــتعارة[2]، ومنها «المجازُ الحكميّ»[3]...

---

(١)«العُمْدةُ في مَحاسنِ الشّعْرِ وآدابِه ونقدِه: ١/٢٦٥».

(٢) «دلائلِ الإعْجاز: ٦٨» .

(٣) «دلائل الإعْجــاز: ٢٩٣» . أمّا ابنُ أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هــ) فقَد ذَكَرَ أنّ المجازَ جنسٌ يَشتمِلُ عَلى أنواعٍ كَثيرة، كالاستعارة، والمبالغة، والإشارة، والإرداف، والتّمثيلِ، والتشبيه، وغيرِ ذلك مما عُدِلَ فيه عَن الحقيقة الموضوعة للمعنــى المــراد «تَحرير التحْبير في صِناعةِ الشّعرِ والنّثرِ وبَيانِ إعجازِ القُرآن: ٤٥٧» لأبي محمّــد زكيّ الدين عبد العظيم بن عَبد الواحد المعروف بابن أَبي الإصْــبع المــصريّ (ت. ٦٥٤) تح. د. حفني محمّد شرف، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ١٣٨٣هــ - ١٩٦٣م .

ولا يُمكنُ تصوّرُ المجازِ متحققاً إلاّ في التّركيبِ الصّحيحِ المبنيّ على قَواعدِ النّحو[1]، والتّجوّزُ النّحويّ كثيرٌ في كلامِ العربِ، وله أشكالٌ كثيرةٌ، فقد يكونُ في إسنادِ الفعلِ أو شبْهِه إلى ما ليسَ لَه، نحو قولِ العربِ: «نَهارُكَ صائمٌ، وليلُك قائمٌ»، أي أنت قائم في هذا وصائمٌ في ذاكَ، كما قال الله عزّ وجَلّ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ (سبأ:٣٣) والمعنى: بَلْ مَكْرُكُم في اللّيلِ والنّهار. ومِنْ أمْثالِ العَرب إذا طالَ عُمرُ الرَّجُل أنْ يَقولوا: «لقدْ أكلَ الدّهرُ عَليه وشَربَ»، إنّما يريدون أنه أكَلَ هوَ وشَربَ دَهراً طويلاً، وقالَ الجَعْديّ: أكلَ الدَّهرُ عَليهِمْ وشَرب[2].

وقال جرير:

لقدْ لُمْتنا يا أمَّ غَيْلانَ في السّرى ونِمْتِ، وما لَيْلُ المَطِيّ بِنائِمِ

ويقولون: لا يَرْقُد وِسادُه، وإنَّما يُريدونَ مُتَوَسِّدَ الوِسادِ[3].

ويدْخلُ المجازُ أيضًا في بابِ الإيجازِ، وخاصّةً في الضَّرْبِ المُسَمّى بالاكْتِفاءِ؛ وهو الذي فيهِ حذْفٌ، للاستغْناءِ عنه في ذلك الموضِعِ؛ فيكونُ المَجازُ من هذا الوجْه وَسيلةً من وَسائلِ الجمْعِ والإيجازِ في الكلامِ، كقولِه

---

(١) انظر التفصيلَ في كتاب: «المَجاز وقَوانين اللّغة: ٢٨٣»، د. عليّ محمّد علي سلْمان، دار الهادي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط.١/١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

(٢) «الكامِل في اللّغةِ والأدَب» لأبي العبّاس محمّد بنِ يزيدَ المُبرِّد، تح. محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار نَهضة مصر، القاهرة، ١٩٨١م.

(٣) «الصّاحِبي في فقه اللّغة وسُنَن العَرَبِ في كَلامِها» تح. أحمد حَسَن بسج، دار الكُتُب العلميّة، ط.١، ١٩٩٧م.

تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف:٨٢)، وفي الشّعرِ منه كثيرٌ؛ يحذفونَ بعضَ الكلامِ لدلالةِ الباقي على الذّاهب[1].

و مّما ورد فيه مَجازٌ: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحبُّنا ونُحبُّهُ**»[2]، قالَهُ النّبيُّ ﷺ، وقَدْ نَظَرَ إلى جَبَلِ أُحُد مُنْصَرَفَهُ مِنْ غَزاة خَيْبَر، وهُوَ مَحْمولٌ عَلى الْمَجازِ؛ لأَنَّ الْجَبَلَ لا يَصِحُّ أَنْ يُحِبَّ أَوْ يُحَبَّ، ولكنَّ الْمُرادَ أَنَّ أُحُدًا جَبَلٌ يُحبُّنا أَهْلُهُ ونُحِبُّ أَهْلَهُ، وأَهْلُهُ هُمْ أَهْلُ الْمَدينَةِ مِنَ الأَنْصارِ، ويُؤَيِّدُ هذا الْمَعْنى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ في كَلامٍ طَويلٍ: «**ولَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا وسَلَكَ الأَنْصارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصارِ، ولَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصارِ**»[3]. وقالَ عنِ الأنْصارِ أَيْضًا، فيما رَواهُ أَنَسُ بْنُ مالك: «**آيَةُ الإيمانِ حُبُّ الأَنْصارِ، وآيَةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأَنْصارِ**»[4]. ورُوِيَ عن البَراءِ بْنِ عازِب: «**الأَنْصارُ لا يُحِبُّهُمْ إلاّ مُؤْمِنٌ، ولا يبْغضُهُم إلاّ مُنافِقٌ؛ فمَن أحبَّهُم أحبَّه الله، ومن أبْغَضَهُم أبْغضَه الله**»[5]، وهو كلامٌ قليلٌ، موجزٌ بليغٌ، محمولٌ

---

(١) «العُمدة: ١/٢٥٠-٢٥١».

(٢) والحديثُ صَحَّحَهُ البخاري. أنْظُرْ: «صحيح البخاري: ٢/٥٣٩، ٤/١٦١٠» عن أبي حُمَيْدٍ السّاعدي.

(٣) عن أنس بن مالك قال: جمع رسول الله ﷺ الأنصارَ فقال: أفيكُم أحد من غيركم؟ فقالوا: لا، إلا ابن أختٍ لنا، فقال رسول الله ﷺ: إن ابن أخت القوم منهم، فقال: «إنّ قريشا حديثُ عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم. لو سلك الناس واديا وسلك الأنصار شعبا لسلكتُ شعب الأنصار»: «صحيح مسلم: ٧٣٥».

(٤) أخرَجَه «البُخاري في صَحيحِه: ١/١٤» و«مسلم في صَحيحه: ١/٨٥».

(٥) «صَحيحُ البُخاري: ٣/١٣٧٩».

على المَجازِ[1]؛ لأنّ الجَبَلَ يَصْدقُ فيهِ أنْ يُحَبَّ الذي هو فيهِ أو الذي يقْطِنُ قَرِيبًا منه، وقدْ عدّد لهم النّبيّ ﷺ دُورَ الأنْصارِ ومواقِعَهم، فهم الذينَ يَصِحُّ فيهم أنْ يُحِبّوا ويُحَبّوا، ولا يصِحُّ على الجَمادِ ما يصِحُّ على الإنْسانِ من إرادةِ نَفْعٍ أو تَعْظيمٍ أو غيرِ ذلكَ مّما يسْتَتْبِعُ المحبّةَ. والمُرادُ أنّ أُحُدًا جَبَلٌ يُحِبُّنا أهْلُه، ونُحِبُّ أهْلَه. وأهْلُه هُم أهلُ المدينةِ منَ الأنصارِ.

ومن المجازِ أيْضًا قولُه ﷺ في الحديثِ الذي رواهُ عُرْوَةُ البارِقيّ: **«الخَيْلُ مَعْقودٌ في نَواصيها الخَيْرُ، الأَجرُ والمَغْنَمُ، إلى يَوْمِ القيامَةِ»**[2].

هذا الحديثُ مَحْمولٌ على المَجازِ، وتَفْسيرُهُ أنّ الخَيْلَ وسيلةٌ لإدْراكِ الخيرِ ومطيّةٌ لبُلوغِه، فكأنّه معْقودٌ بنواصيها لشدّة مُلازَمَته لَها، فَهيَ خيْرُ المالِ[3]، بِها تُجْبى الغَنائمُ ويُقرّبُ البَعيدُ، وبُطونُها كَنْزٌ بنَتاجِها، وظُهورُها حِرْزٌ لراكبِها، وحِصْنٌ من العدُوّ ومنْجاةٌ من المَهالِكِ، وفيه حَثٌّ على ارْتباطِها في سَبيلِ اللهِ[4].

---

(١) «المَجازاتُ النّبويّة: ٢٣».

(٢) «صحيح البخاري: ٣/١١٣٥». وانظُرْ: «صحيح مسلم: ٣/١٤٩٢»: «باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

(٣) عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ وفي رواية سمعت رسول الله ﷺ قال: «**خير المال مهرة مأمورة أو سكة مأبورة**»: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات: «مجمع الزوائد: ٥/٢٥٨».

(٤) أوْرَدَتْ أمّهاتُ كُتُبِ الأحاديثِ ومصادرِها عشَراتِ الأحاديثِ في الخَيْلِ؛ فقد تبوّأ الخيْلُ مَكانةً عظيمةً في عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَصفًا لَكرَمِها وتَشْبيهًا لغيْرِها بها في الخيْرِ والنفعِ... يظْهرُ ذلك منَ الأبوابِ الكثيرة التي عُقِدَت لأحاديثِ الخَيلِ، نحو: باب في خيل النبي ﷺ، باب ألوان الخيل وما يستحب منها وما يكره، باب المسابقة والرهان وما يجوز فيه...«مجمعُ الزّوائد: ٥/٢٥٨-٢٦٣». وانظرْ أيضًا: «المَجازات النبويّة: ٤٩-٥٠» و«المُجْتَنى: ٢١-٢٢».

ومن المَجاز أيضًا قولُه ﷺ في الحديث الذي أورده ابنُ خزيمةَ في صَحيحه، في: «باب ذِكرِ ما كان الله عزّ وجلّ فرّقَ به بين نبيه ﷺ وبين أمّته في النّوم من أنّ عينيه إذا نامَتا لم يكن قلبُه ينامُ، ففرّق بينه وبينهم في إيجاب الوضوء من النوم على أمته دونه عليه السلام: «**تَنامُ عَيْناي ولا يَنامُ قَلْبي**»[1].

لقد افترقَ حُكمُه ﷺ وحُكْمُ أُمّته فيه؛ لقوله إنّ عينَيه تَنامانِ ولا يَنامُ قلبُه، فَلا يَجبُ عَليه الوُضوءُ لأنّ الوُضوءَ لا يَجبُ إلا مِنْ نَومٍ فيه اسْترخاءُ المَفاصلِ، وإذا لم ينَم قلبُه لم تسترْخِ مفاصلُه؛ فقد رُوِيَ عن علي عن النّبيّ ﷺ أنّ «**العين وِكاءُ السَّهِ فمن نام فليتوضّأ**»[2]؛ فشبّه يقظةَ العينِ بالوِكاءِ[3] للقِربةِ أو السِّقاءِ، فإذا نامت العينُ، استرخى ذلك الوِكاءُ واسْتطلقَ، فكَنّى بالاسْترْخاءِ والاسْتطْلاقِ عن الحدَثِ وخروجِ الريحِ، هذا من أحسن الكنايات وألطفها، وقد جاءت هذه الكنايةُ تصريحًا في حديث آخرَ، في قولِه ﷺ، في حَديثِ عائشَةَ: «**إذا نَعِسَ أحدُكم في الصّلاةِ فليرقدْ**

---

(١) «صحيح مسلم:١/٥٠٩»، «صحيح البخاري:١/٣٨٥»، «صحيح ابن خزيمة: ١/٢٩-٣٠»، «المنتقى لابن الجارود: ١/١٦».

(٢) «مجمع الزوائد: ١/٢٤٧»: «باب في الوضوء من النوم:عن معاويةَ بنِ أبي سفيانَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ العينينِ وِكاءُ السّه، فإذا نامتِ العينانِ استَطلقَ الوِكاءُ» رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير».

(٣) الوِكاءُ: الخيطُ الذي تُشَدُّ به الأسقية، والإيكاءُ الشّدُّ: «غريب الحديثِ لابْن الجوزي: ٢/٤٨٢».

حتى يَذهبَ عنه النومُ، فإنّ أحدَكم إذا صلّى وهو ناعِسٌ لا يدري لعلّه يذهبُ يستغفرُ فيسبّ نفسَه»[1].

أمّا وجْه المجازِ في الحديثِ، أنّ وصفَ القلبِ بالنّومِ أو عدَمه، لا يُرادُ على الحقيقة، مثْلما يوصَف به الإنسانُ والحيوانُ. وذهبَ العلماءُ إلى أنّه ﷺ، لو كانَ قلبُه لا ينامُ على الحقيقةِ كقلوبِ النّاسِ، لكانَ ذلك من أكبرِ معجزاتِه، ولوجبَ أن تتظاهرَ الأخبارُ بنقلِه، كما تظاهرتْ بنقلِ غيْرِه من أعلامِ نبوّتِه، مّما أبانَه اللهُ تعالى به عمّن سِواه مِن خلْقه. هذا وقد جوّزَ الشّريفُ الرّضيّ أن يكونَ معنى قولِه ﷺ: **«تنامُ عيْنايَ، ولا يَنامُ قلْبي»**، أنّه لا يعْتقدُ في حالِ نومِه من الرّؤْيا الفاسدة، والمنامات المتضادّة ما يعْتقدُه غيرُه من سائرِ البَشرِ، فيكون في حكْمِ المستيقظِ وبمنزِلَةِ المتحفّظ[2]. وكلا المَعنيْينِ مُحتمَلٌ.

- دلالةُ الاستِعارةِ في البَيانِ النّبويّ:

«ومن خصائصها التي تُذكَر بها، وهِيَ عُنْوانُ مَناقِبِها، أنّها تُعْطيكَ الكَثيرَ مِنَ المَعاني بِاليَسيرِ مِنَ اللّفْظِ» (أسرار البلاغة:٣٣).

---

(١) **صحيح ابْن خزيمة: ٥٥/٢، وفي صحيح مسلم: ٥٤٢/١: «عن مالك بن أنس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ قال: إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسبّ نفسه».**

(٢) **المجازات النبويّة: ١٣٥-١٣٦.**

عرّفَ القاضي الجرجاني الاسْتعارةَ بأنّها ما اكْتُفِيَ فيها بالاسمِ المُستعارِ عن الأصليِّ، ونُقلت العبارةُ فجُعلت في مكانِ غيرِها، وملاكُها بقُربِ التّشبيهِ، ومناسبةِ المُستعارِ للمُستعارِ له، وامتزاجِ اللّفظِ بالمعنى حتّى لا يوجد بينهما منافرةٌ[1]. وذكرَ ابنُ وكيعٍ أنّ خيرَ الاسْتعارةِ ما بَعُدَ، وعُلِمَ في أوّلِ وهلةٍ أنّه مُستَعارٌ، فلمْ يدْخلْه لَبسٌ[2]. وعرّفَها أبو الحسنِ الرّمّاني بأنّها اسْتعمالُ العبارةِ على غيرِ ما وُضعت لَه في أصلِ اللّغة[3]. أمّا عبدُ القاهرِ فقد عرّفَ الاستعارةَ المفيدةَ بأنّها ما نُقلَ من مسمّاه الأصليّ إلى شيءٍ آخرَ ثابتٍ معلومٍ؛ فتُجْريه عَلَيه وتَجْعَله مُتَناوِلاً لَه تَناوُلَ الصِّفةِ مَثلاً للمَوْصوفِ[4].

وأمّا علاقةُ الاستعارةِ بالإيجازِ وجَمعِ الكَلِمِ، فقد قالَ فيها عبدُ القاهرِ: «ومن خصائصِها التي تُذكرُ بها - وهي عُنوانُ مناقبِها- أنّها تُعْطيكَ الكثيرَ من المعاني باليسيرِ من اللّفظِ؛ حتّى تُخرِجَ من الصَّدَفةِ الواحدةِ عدّةً من الدّررِ»[5].

والسّرُّ في الاسْتعارةِ في كلامِ العربِ الاتِّساعُ في الكلامِ اقْتدارًا لا اضْطرارًا؛ فقد اسْتعارَ العربُ مجازًا واتِّساعًا، وإن كانَ للشّيءِ عندهم أسماءٌ كثيرةٌ، وليسَ من ضيقِ اللّفظِ عَلَيهم، ولكنّه مِنَ الرّغْبةِ في الاخْتصارِ[6].

---

(١) العمدة: ١/٢٧٠.
(٢) العمدة: ١/٢٧٠.
(٣) العمدة: ١/٢٧١.
(٤) «أسرار البلاغة: ٣٤».
(٥) «أسرار البلاغة: ٣٣». وفي هذا المعنى عقَدَ الثّعالبيّ فصلاً في الاستعاراتِ في بابِ «جَوامعِ الكَلِم»: «الإعجاز والإيجاز: ٢٢» .
(٦) «العمدة: ٢٧٤».

ومما وردَ فيه استعارةٌ، قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ (الأعراف:١٥٤)، وقولُه: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۞ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ (المُلْك:٧-٨)، **فسُكوتُ الغَضبِ والشَّهيقُ والغيظُ** استْعاراتٌ.

ويَدْخلُ في البابِ حديثُ السّبعةِ الذينَ يُظِلُّهم الله بظلّه يوم لا ظلَّ إلاّ ظلُّه[1]، وفيه استْعارةٌ مَكْنيّةٌ أيضًا، في قولِه: «**ورجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَة فأَخْفاها حتّى لا تعْلمَ شِمالُه ما تُنْفِقُ يَمينُه**»، وهي «**لا تَعْلم شِمالُه ما تُنفِقُ يَمينُه**»؛ فقد شبّه اليديْنِ برَجُلَينِ، وحَذفَ المشبَّه به وهو الرّجُلُ الأوّلُ، ورَمزَ إليهِ بشيْءٍ من لوازمِه وهو اليدُ.

وعَن أبي موسى الأشعريّ أنّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**إنّ بينَ يَدَي السّاعة فِتَنًا كَقِطَعِ اللّيلِ المُظلمِ، يُصْبحُ الرّجلُ فيها مؤْمنًا ويُمسي كافِرًا، ويُمسي مؤْمنًا ويُصْبحُ كافرًا، يبيعُ دينَهُ بِعرَضٍ من الدُّنيا قليلٍ**»[2].

لقد صوّرَ الحديثُ بأسْلوبِه البليغِ الهوْلَ الذي سيحُلُّ بالنّاسِ قُربَ قيامِ السّاعةِ، وهو هولُ البلايا التي ستفتِنُهم في دينهم ودُنياهُم. وهذه الفِتنُ تشبهُ في تَلاحُقِها واسْترسالِها قِطعَ اللّيلِ المظلِمِ وأجْزاءَه.

---

(١) متّفقٌ عليه، رواه أبو هريرة.

(٢) «صحيح مسلم:١/١١٠»: «باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن».

ومن مَخاطرِ هذهِ الفتنِ أنّ الإنسانَ ينقلبُ بينَ عشيّةٍ وضُحاها من الإيمانِ إلى الكُفرِ، ثمّ يعودُ فينقلبُ من الكُفرِ إلى الإيمانِ، وينْتكسُ على أعقابه كلّما أصابتْه داهيةٌ أو فَتَنتْه الدّنيا بمباهجها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (البَقَرَة:١٦).

وفي قوله ﷺ: «إنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ» استعارةٌ مَكْنيةٌ لأنّ فيها تشْبيهَ السّاعةِ بالرّجُلِ ذي اليديْنِ، وحذْفَ المشبَّه بِه، والرّمزَ إليهِ بشيْءٍ من لوازِمه وهو اليَدُ؛ فقد استُعيرتِ اليدُ من الإنسانِ وأُضيفتْ إلى السّاعةِ، والجامعُ بينَ المُستَعارِ والمستعارِ لَه هو القُربُ والملازَمةُ، فالفتنُ ملازِمةٌ لحُلولِ السّاعةِ واقْترابِها، واليدُ مُلازِمةٌ للإنْسانِ. وقد جاءتْ هذه الاسْتعارةُ مُؤكَّدةً بإنّ لتأْكيدِ هذهِ المُلازمةِ وبيانِ العلامةِ التي تُصاحبُ اقْترابَ السّاعةِ. ويزْدادُ جَمالُ التّعبيرِ في الحديثِ النّبويِّ ببعضِ القيَمِ البديعيّةِ التي تُحَسِّنُ اللّفظَ، مثْل الطّباقِ بينَ الفعليْنِ «يُصْبِحُ» و«يُمْسي»، والطّباقِ بينَ الاسْمَيْنِ «مُؤْمنًا» و«كافرًا»، ويزيدُ الطّباقُ معْنى الحديثِ بيانًا وإيضاحًا، وترْكيزًا وإيجازًا؛ إذ يُقرِّبُ صورةَ التّسارُعِ والتّتابُعِ التي تطْرأُ على أحوالِ النّاسِ بسببِ الفتنِ.

وهكذا فإنّ العباراتِ التي وَرَدَت بِها اسْتعاراتٌ في الأحاديثِ السّالفةِ اختُصِرَ فيها الكلامُ اختصارًا، واجْتَمَعَتْ فيها مَعانٍ كَثيرةٌ بألفاظٍ قِصارٍ.

- دلالَةُ الكِنايَةِ في البَيانِ النّبوِيّ:

الكنايةُ لُغةً مصدرُ «كَنى» به عن كذا «يكْني»، إذا تكلّمَ بشيءٍ يُستدَلّ به على غيرِه أو يُرادُ به غيرُه، أو هي أن تتكلّمَ بشيءٍ وتُريدُ غيرَه[1]. والكنايةُ إمّا يُقْصَدُ بها الموصوفُ «كما يُقصدُ بعريضِ الوسادةِ الكنايةُ عن كَثيرِ النّومِ، أو بعريضِ القَفا عن الأبله»، أو يُقصَدُ بها المَنْسوبُ «كَطويلِ النِّجادِ كنايةً عن طولِ القامة». والكِنايةُ عند عُلماءِ البيانِ، هي أن يُعبَّرَ عن شيْءٍ بلفظٍ غيرِ صريحٍ في الدّلالة عليه، لغرضٍ من الأغراضِ، كالإبهامِ على السّامعِ أو غيرِ ذلك[2]، فهي بذلك اختصارٌ وتلْميحٌ، يُطلَق فيه اللفظُ ويُرادُ به لازمُ معناه، سواء أريدَ معه المعنى الأصليُّ أم لم يُرَدْ، أو يُراد إثباتُ معنىً من المعاني فلا يُذكَر باللّفظِ الموضوعِ له في اللّغة، ولكن يُعمَد إلى معنى آخَر هو تاليه ورِدْفُه، فيومَأُ به إليه ويُجعلُ دليلاً عليه، من طريقٍ يَخْفى ومسلكٍ يدقُّ.

وقد عرّفه عبدُ القاهرِ الجرجانيّ بقوله: «... المُرادُ بالكنايةِ «...» أن يريدَ المتكلّمُ إثباتَ معنًى من المعاني، فلا يذكرُه باللّفظِ الموضوعِ له في اللّغة ولكن يجيءُ إلى مَعْنىً هو تاليه ورِدْفُه في الوُجودِ، فيومِئُ به إليه ويجعلُه دليلاً عليه. ومثالُ ذلك قولُهم: «هو طويلُ النّجادِ»، ويريدونَ طويلَ القامةِ، و«كثيرُ رمادِ القِدْرِ» يعنونَ كثيرَ القِرى... فقد أرادوا في هذا كلّه كما ترى معنىً، ثمّ لم يذكروه بلفظه الخاصِّ به، ولكنّهم توصّلوا إليه بذِكْرِ معنى آخرَ منْ شأنه أنْ يردفَه في الوُجودِ، وأن يكونَ إذا كانَ»[3].

---

(١) «لسان العرب: ١٥/٢٣٣ ، كني».

(٢) «الكليات: ٧٦١-٧٦٢».

(٣) «دلائل الإعجاز: ٦٦».

ومنَ الأحاديثِ التي تَضَمَّنت الكِنايةَ، ما رواه أبو موسى الأشعريّ عن النّبيِّ ﷺ من قوله: «إنّ مَثَلَ ما بَعثَني الله عزّ وجلّ من الهدى والعِلمِ كَمَثَلِ غَيثٍ أصابَ أرْضًا فكانَت منها طائفةٌ طَيِّبَةٌ قَبلت الماءَ فأنْبَتت الكَلأَ والعُشبَ الكَثيرَ، وكانَ منها أجادِبُ أمْسكَت الماءَ فنفَع الله بها النّاسَ فشَرِبوا مِنْها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأصابَ طائفةً مِنْها أخْرى إنّما هِيَ قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنبتُ كلأً، فَذلكَ مَثلُ مَنْ فَقِهَ في دينِ الله ونَفَعَه بما بَعَثني الله بِه فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلكَ رَأسًا ولَم يَقْبَلْ هُدى الله الذي أُرسِلْتُ به»[1].

الغَيثُ اسمٌ عامٌ للمَطَرِ يُغيثُ الله به عِبادَه ويُصيبُ به مَواقعَ النّفعِ لَهُم، يُقال: غَيِّثَت الأرضُ فهي مغيثة وأكْلأتْ فهي مُكلئة. وهذا مَثلٌ للنبي ﷺ في إبْلاغه عَنِ الله عَزّ وجَلّ، ودُعائه إلى سَبيله، وأنّه بُعِثَ رَحمةً للعالَمينَ ليُخرِجَهم منَ الظّلماتِ إلى النّور، ويَهْدِيَهُمْ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ. ومثّل ذلك بالغَيثِ الذي نَشَرَ الله بِه رَحْمَتَه في الأرْضِ، وأحْيى به الأنعامَ والحرثَ. والذين اسْتَمَعوا قولَه وشاهَدوا أمرَه في اخْتِلافِ مَذاهِبِهم وطَرائقِهم بِبِقاعِ الأرضِ التي يَختَلفُ تُرْبُها وأماكِنُها، فمِنْها ذاتُ الرّياضِ المُعشبَة الكَثيفة التي يكثرُ خيرُها ويعمُّ نفعُها، ومنها الأماكنُ ذاتُ الغِياضِ والغُدرانِ وغيرِها من الأماكنِ التي يستنقعُ فيها الماءُ فيَرِدُ إليها الناسُ والأنعامُ، ومنها ما لا يتعلّقُ

(١) «صحيح مسلم: ١٧٨٧/٤».

من المطرِ إلا بقــليل منه، وهو مَثَلٌ لِمَن فَقه عَن الله عَزّ وجَلّ، وتفقّه لما أمرَ به الرسولُ ﷺ، فعلِمَ وعَلّمَ وعَمِــلَ، ومَثَلٌ لحاملِ عِلْمِه إلى مَن هو أوْعى مِنْه، كَما وَردَ في حديثٍ آخرَ: «فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه»[1]، ومَثَلٌ للسّامع المُعْرِضِ المحــرومِ. والأجــادِبُ صِــلاَب الأرضِ التي تُمْسك الماءَ فلا تَشْرَبُه سريعًا[2]. وقيل هي الأرض التي لا نبَات بها، مأخُوذٌ من الجَــدْب وهو القحْط. وفي حَديثِ عُمَرَ، رضيَ الله عنه، أنه جَــدبَ الــسَّمَرَ بَعْــد العشاءِ[3]، أي ذَمَّه وعابه. وكلُّ عائب جادبٌ[4].

والحديثُ بليغٌ يشْتملُ على صورٍ أدبيّةٍ رفيعة؛ فقد شُبِّه العلمُ بالغيــثِ تشبيهَ معقولٍ بمحْسوسٍ، وشُبِّه النّاسُ بالأَرَضينَ، كُلّ صِنْف منهم بطائفــةٍ منها، وأُفْرِدَتِ الأَرْضُ لفظًا ونُكّرتْ تنكيرَ تنْويــعٍ، ثمّ فُــصِّلت طوائفُهـــا، وعُرِّفت بالوصْفِ. وسيقت الصّورُ التّشبيهيّةُ مساقَ الإلْماحِ والإيماءِ، حيثُ يهتدي العقلُ إلى إدراكِها وربطِ كلِّ مشبَّه بالمشبّه به المناسب له.

أمّا الكنايةُ الواردةُ فيه ففي قولِه: «ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلك رأسًـــا»؛ فعدمُ رفعِ الرّأسِ كنايةٌ عن الإعراضِ والتّولّي، وعدمِ الاسْـتجابةِ للهــدى والعلمِ، وعـــدمِ الإصغـــاءِ إليه. فهذا المُعرِضُ، على الرّغمِ من أنّ الهــدْيَ

---

(١) «صحيح ابن حبان: ١/٢٧٠».

(٢) «النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/٢٤٢-٢٤٣» ، «لسان العرب: ١/٢٥٦، جدب».

(٣) «صحيح ابن خزيمة: ٢/٢٩٠».

(٤) «أمثال الحديث: ١/٢٨-٢٩-٣٠».

قد قَرَعَ سَمعَه لم يَعبأْ به، ولم يرْفَعْ بشيْءٍ منه رأْسًا، كِبْرًا وقَسْوةَ قلبٍ وجفاءَ طبعٍ.

ومن ذلك ما وردَ في وصيّةِ النّبيِّ ﷺ لعبدِ اللهِ بنِ عبّاسٍ[1]، من عِباراتٍ بليغةٍ، منها قولُه: «... **واعْلَمْ أنّ النّصرَ مع الصّبرِ، وأنّ الفرَجَ مع الكرْبِ، وأنّ مع العُسْرِ يُسْرًا**»[2].

وفي هذا الحديثِ كنايةٌ عن حُصولِ النّصْرِ بعدَ الصّبرِ على الشّدائد، وحُصولِ الفرَجِ بعدَ اشْتدادِ الأزمةِ والكربِ، وحصولِ اليُسْرِ بعدَ مُعاناةِ العُسْرِ ومُقاساةِ الضّرِّ. **ووجْهُ الكنايةِ أنّ هذه النّتائجَ تأتي بعدَ الأسبابِ**

---

(١) انظر ذِكْرًا لهذا الحديثِ في الشّرحِ الذي وضعه عليه ابنُ رجبِ الحنبليُّ، الموسوم بعنوانِ **«نور الاقْتِباسِ في مشكاةِ وصيّةِ النّبيِّ ﷺ لعبدِ اللهِ بنِ عبّاس»**.

(٢) **«المستدرك على الصحيحين: ٣/٦٢٣»**: «عن شهاب بن خراش عن عبد الملك ابن عمير عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال أهدي إلى النبي ﷺ بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم أردفني خلفه ثم سار بي ملياً ثم التفت فقال: **يا غلام**، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الناس أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهد الناس أن يضروك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ما تكرهه خيرا كثيرا، واعلم أن مع الصبر النصر واعلم أن مع الكرب الفرج، واعلم أن مع العسر اليسر»**، هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس، رضي الله عنهما، إلا أن الشيخين، رضي الله عنهما، لم يخرجا شهاب ابن خراش ولا القداح في الصحيحين.

ولا تُصاحبُها، وفي ادِّعاءِ المُصاحبة كنايةٌ عنِ التَّرْتيبِ والتَّعقيب[1]، واشْتهرَ في كلامِ العربِ ذكرُ الأمرَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ كنايَةً مُتعاقِبَيْنِ حَقيقةً كقولِ القائلِ: «**اشْتَدّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجي**»[2] أي اشتدّي يا أزمةُ، والأزْمةُ سَنَةُ القَحطِ، والمَعْنى: **أَبْلُغي النّهايةَ في الشّدّةِ حَتّى تَنْفَرِجي؛ فإنَّ الشّدّةَ إذا تناهَت الْفَرَجَت**، بشَهادَةِ الاسْتقراءِ. فليسَ المُرادُ حَقيقةَ أمرِ الشّدّةِ بالاشْتدادِ، بَلِ المُرادُ طَلَبُ الفَرَجِ. ونوديَتِ الأزمةُ مَعَ حذفِ أداةِ النّداءِ، إقامةً للسببِ مقامَ المسبَّبِ، وفيه نوع تسليةٍ وتأنيس بأن الشدّةَ المتناهيةَ نوعٌ من النّعمة؛ لما يترتبُ عليها[3]. ومن كَلامِ العرب أيضًا: « إنّ الشّدّةَ إذا تَتابَعَت انفَرَجَت، وإذا توالتْ تولّتْ»[4].

---

(١) أمّا الحافظُ ابْنُ رجبِ الحنبليّ فقد ذهبَ إلى وُجودِ المُصاحبَةِ على وجْه الحقيقةِ لا الكنايةِ، وعبّرَ عن المُصاحبةِ بالاقترانِ: «ومن لطائفِ أسْرارِ اقترانِ الفَرَجِ باشْتدادِ الكَرْبِ أنّ الكَرْبَ إذا اشْتدّ وعظُم وتناهى وُجِدَ الأياسُ منْ كَشْفه من جهةِ المخلوقِ ووقَعَ التّعلّقُ بالخالقِ وحدَه...» «**نور الاقْتباس**...: ١٥٠».

(٢) زَعَمَ بعضُ رِجالِ الحَديثِ أنّه حديثٌ مَرْفوعٌ، وما هُو بِحَديثٍ لأنّه رُوِيَ بِسَنَدٍ فيه راوٍ كذّابٌ ، انظُرْ: «**مسند الشهاب**:١/٤٣٦»، وفي «**الفردوس بمأثور الخطاب**:١/٤٢٦»، وفي «**ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: ٢/٢٩٣»، وفي «**كَشف الخفاء**:١/١٤١»: اشتدي أزمة تنفرجي: رواه العسكري والديلمي والقضاعي بسند فيه كذاب عن علي. والأزمَةُ الشّدّة وسَنَةُ القَحْطِ والمجاعَة، وأصلُ الأزمة الحميةُ والإمساك بالأسنان بَعضِها على بَعضٍ ومنه قيل للفرس قد أزم على اللجام.

(٣) «**فيض القدير**، ١/٥١٦».

(٤) «**النّهاية**، ١/٤٧» و«**لسان العرب**، ١٢/١٦، أزم».

- من مُقوِّماتِ بَلاغةِ النّصّ في البيانِ النّبويّ:

- العِبارةُ الحِواريّةُ:

- سِياقُ الحَديثِ النّبَويَ وتَصَوُرُ الْكَلامِ جَواباً عَنْ سُؤالٍ:

فائِدَةُ تَصَوُّرِ الْكَلامِ جَواباً عَنْ سُؤالٍ أَنَّ السُّؤالَ اسْتِفْهامٌ بَيانِيٌّ يوضِحُ الْعُنْصُرَ الْمُسْتَفْهَمَ عَنْهُ أَوِ الْمُرادَ مَعْرِفَتُهُ، فَيَكونُ هذا الْمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ حَظِيّاً بِعِنايَةِ الْمُتَكَلِّمِ واهْتِمامِهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ عَناصِرِ الْجُمْلَةِ.

والحِوارُ حديثٌ بينَ مُتكلِّمٍ ومُخاطَبٍ. وكُلُّ خِطابٍ مُرْتَبِطٌ عَلى وجْهِ الاطِّرادِ والاتِّساقِ بِفِعْلِ التَّواصُلِ[1].

والعِبارةُ الحِواريّةُ في الحَديثِ النّبويِّ وسيلةٌ تعليميّةٌ لإبلاغِ المبادئ، يُشْرِكُ فيها المُتَكَلِّمُ المَخاطَبينَ أو الحاضِرينَ في تَبادلٍ كلاميٍّ يُثيرُ انتباهَهم، ويُهيِّءُ نفوسَهم لسَماعِ المَبادئِ سَماعَ قَبولٍ واقتناعٍ؛ فعنْدَئذٍ يأتي جَوابُه ﷺ شافيًا كافيًا موجزًا مُرَكَّزًا، عَلى قدْرِ السّؤالِ، موافِقًا لأحْوالِ المُخاطَبِ، فيسهُلُ إدراكُه لوَجازَتِه وواقعيّتِه[2].

---

(١) «النّصُّ والسِّياق، ٢٠» فان دايك، تَرْجَمَة: عبد القادر قنيني، طبعة أفريقيا الشّرق، بيروت، ٢٠٠٠م.

(٢) الحِوارُ وسيلَةٌ من الوَسائلِ التّعليميّةِ التي تُهيِّءُ المُخاطَبَ للتّلقّي والانْتفاعِ ممّا يُلْقى إليه من مَبادئ، انظُرْ في بسْطِ الكَلامِ عنِ الجانِبِ التّعليميّ في الحَديثِ النّبويّ كِتاب: «النّبيّ الكَريمُ ﷺ مُعلِّماً، ص: ٣٠ وما بَعْدَها» د. فضل إلهي. هذا، ومِنْ مَبادئِ الحِوارِ في الحَديثِ النّبويّ الشّريفِ:=

والتّحاوُرُ يقرِّبُ السّامعَ مِن المُتكلِّمِ، وهو سُلوكٌ بارزٌ في الحَديثِ النّبويِّ اقْتضَتْه الرِّسالةُ، يَميزُ الأَحاديثَ الصَّحيحَةَ مِنَ

- - اختيار الفرص والمناسبات للتعليم: كحديث عُمرَ بنِ الخطّاب قال: قَدِم علَى النّبيِّ ﷺ سبيٌ، فإذا امرأةٌ من السّبْيِ تَحْلُبُ ثَدْيَيْها تَسقي، إذا وجَدَت صَبيّاً في السّبْيِ أَخذَتْه فألصقَتْه ببطْنِها وأرضَعَتْه، فقال لنا النّبيُّ ﷺ: أَتَرَوْنَ هذه طارِحَةً وَلَدَها في النّارِ؟ قُلْنا: لا، وهِيَ تَقْدِرُ علَى أن لا تَطْرَحَه. فقال: اللهُ أرحَمُ بعِبادِه مِن هذه بِوَلَدِها» «صَحيح البُخاري: ٥/٢٢٣٥» و«صَحيح مُسلِم: ٤/٢١٠٩»
- التَّرْحيبُ بِطُلاّبِ العلْمِ: كترحيبِه ﷺ بالوُفودِ القادِمةِ لِتعلُّمِ الدّين، وسيأتي الشّاهدُ علَى ذلك قَريباً إن شاءَ الله .
- إدْناءُ المُخاطَبين: كَحَديثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدبٍ أنّ النّبيَّ ﷺ قال: «احْضُروا الذِّكْرَ وادْنُوا من الإمامِ؛ فإنّ الرّجُلَ لا يَزالُ يَتباعَدُ حتّى يُؤخَّرَ في الجَنّةِ وإنْ دَخَلَها» «سُنَنُ أبي داود: ١/٢٨٩» باب الدّنوّ من الإمام عندَ الموعظة، و«مُسْنَد أحمد: ٥/١١» .
- إقْبالُ المُتَكلِّمِ والمُخاطَبِ بَعْضهما علَى بعضٍ: كَحَديثِ أبي موسى أنّه جاءَ رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فقال : «يا رَسولَ الله، ما القِتالُ في سَبيلِ الله؟ فإنّ أحَدَنا يُقاتِلُ غَضَباً ويُقاتِلُ حَمِيَّةً. فرَفَعَ إليه رأسَه، قال وما رَفَعَ إليه رأسَه إلاّ إنّهُ كانَ قائماً فقال: مَنْ قاتَلَ لِتكونَ كَلِمةُ الله هي العُلْيا فهو في سَبيلِ الله عزّ وجلّ» «صَحيح البُخاري: ١/٥٨» باب مَن سأل - وهُوَ قائمٌ - عالماً جالساً .
- نداءُ المُخاطَبِ باسْمِه: وللنّداء أثرٌ في نَفْسِ المُنادى ، فهو أدْعى لاستجابَتِه وأجْمَعُ لِخاطِرِه، فقدْ نادى النّبيُّ ﷺ عبدَ الرّحْمنِ بنَ سَمُرةَ كَما ثبتَ في الحَديثِ الصّحيحِ الذي رَواه البُخاري عن عَبدِ الرّحمنِ بنِ سمرةَ قال: قالَ لي النّبيّ ﷺ: «يا عَبدَ الرحمنِ بنَ سمرةَ، لا تَسألِ الإمارَةَ فإنّكَ إن أوتيتَها عَن مَسألةٍ وُكِلْتَ إليها وإن أوتيتَها عنْ غَيْرِ مَسألةٍ أُعِنْتَ عَليها، وإذا حَلَفْتَ علَى يمينٍ فرأيتَ غَيرَها خيراً منها فَكفِّرْ عَن يمينِكَ وأْتِ الّذي هُوَ خيرٌ» «صحيح البخاري: ٦/٢٤٤٣».
- مسُّ يَدِ المُتَعلِّمِ أو مَنْكِبِه أو المَسْحُ علَى رأسِه: ففي ذلك تأنيسٌ للمتعلِّم وتَنْبيهٌ لَه وتأثيرٌ فيه، نحو ما رَواه البُخاري عن عَبْدِ الله بنِ مسعودٍ أنّه قال: علّمَني رَسولُ الله ﷺ، وكَفّي بَيْنَ كَفّيْه، التّشهُّدَ كَما يُعَلِّمُني السّورةَ مِن القُرآنِ «صَحيح البُخاري: ٥/٢٣١١» باب الأخذِ باليَدَيْنِ.

المَوْضوعَة[1]؛ فالنّبيُّ ﷺ نبيٌّ إلى أمّته، يعلّمُهم ويلقّنُهم بوساطَة الأداة التّعليميّة النّاجعة، وهيَ العبارةُ الحِواريّةُ التي تُجيبُ عَنِ السّؤالِ وتُصحّحُ الأفهامَ وتلقّنُ الدّروسَ والمَبادئَ، وتَصلُ بالمُخاطَبِ إلى مَقاصدِ المُتكلّمِ من الكَلامِ، وهو الحَملُ على الفِعلِ أو التّركِ، بأسلوبٍ متدرّجٍ يشتركُ فيه السّائلُ والمُجيبُ، ولا يَعتمدُ عَلى التّقريرِ؛ لأنّ أسلوبَ التّقريرِ أو الخِطابِ المُباشرِ لا يَطْرُقُ بابَ القلوبِ، ولا يَفتَح النّفوسَ للتّقبّلِ، مثْلَما تفتَحُه العِبارَةُ الحِواريّةُ.

وأكْثرُ الأحاديثِ مُفتَتَحٌ بالسُّؤالِ عَنِ المُخاطَبِ أو المُخاطَبينَ، فَمِن ذلكَ سُؤالُه ﷺ عَنِ الوَفدِ الذي قَصَدَه بالزّيارةِ، فَبادَرَهُم النّبيّ ﷺ بحُسْنِ الاسْتِقْبالِ وبالمُلاطَفَةِ في السّؤالِ، قالَ ﷺ في الحَديثِ الذي رَواه عَبدُ الله بنُ عبّاسٍ:

-«مَنِ القَوْمُ -أو مَنِ الوَفْدُ-؟»

- قالوا: ربيعَةُ.

- قالَ: «مَرْحَبًا بالقومِ - أو بالوفْدِ - غَيْرَ خَزايا ولا نَدامى».

---

(١) سِمةُ الحوارِ والسّؤالِ من السِّماتِ المُمَيِّزَةِ للحَديثِ الصّحيحِ عَنِ المَوْضوعِ والمكذوبِ، لأنّ الأحاديثَ المَوضوعةَ تَخلو مِن مُميِّزاتِ التّفاعُلِ بَينَ المُتكلّمِ والمُخاطَبِ ومِن السُّؤالِ والجَوابِ، وفيها نَزْعةٌ تَقْريريّةٌ صارِمةٌ تأمُرُ المُخاطَبَ وتَفْرِضُ عَلَيْهِ ما لا يُطيقُه وتُنافي الفطْرَةَ السّليمَةَ والأسْلوبَ التّرْبَوِيَّ المُؤثِّرَ. انظُرْ في هذا الموضوعِ: «بِناءُ الجملةِ في الحديثِ النّبويِّ الشّريفِ: ٦٤١...»، و«الحَديثُ النّبَويّ: مُصطَلَحُه، بَلاغَتُه، كُتُبُه: ٩٦» محمّد الصبّاغ، المَكْتَب الإسْلاميّ، بَيروت/دِمَشْق، ط.٤/١٤٠١هـ-١٩٨١م. وانظُرْ القِسمَ الثّاني من هذا البَحْث.

- فَقالوا: يا رَسولَ اللهِ، إنّا لا نَستَطيعُ أن نأتيَكَ إلاّ في الشَّهرِ الحَرامِ، وبَيْنَنا وبَيْنَكَ هذا الحيُّ منْ كُفّارِ مُضَرَ، فَمُرْنا بأمْرٍ فَصْلٍ نُخبِرْ به مَنْ وَراءَنا، ونَدْخُلْ به الجَنَّةَ. وسألوه عنِ الأشرِبةِ، فأمَرَهُمْ بأرْبَعٍ ونَهاهُم عن أربعٍ؛ أمَرَهُمْ بالإيمانِ باللهِ وحدَه، قالَ:

- **«أتَدْرونَ ما الإيمانُ باللهِ وَحْدَه؟»**، قالوا:

- اللهُ ورَسولُه أعْلَمُ. قالَ:

- **«شَهادَةُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وأنّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وصيامُ رَمَضانَ، وأن تُعْطوا منَ المَغْنَمِ الخُمُسَ»**، ونَهاهُم عن أربعٍ؛ الحَنتَمِ والدُّبّاءِ[1] والنَّقيرِ والمُزَفَّتِ، ورُبّما قالَ: المُقَيَّرِ، وقالَ:

- **«احْفَظوهُنَّ وأخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَراءَكُمْ»**[2].

فَفي هذا الحَديثِ الحِواريِّ تأدُّبٌ مع الوُرّادِ، وتأنيسٌ لهم[3]، وتَسميةٌ لَهم بالقَومِ أو الوَفدِ[4]، للتّأنيسِ وإدْخالِ السُّرورِ، وتَنزيلٌ لهم منزلَتَهم،

---

(١) نَهى عَنِ الدُّبّاء والحَنتَم، وهيَ جِرار مدْهُونةٌ خُضرٌ كانَتْ تُحمَلُ الخَمْرُ فيها إلى المَدينةِ. «النهايَة في غريب الحديث» ج: ١ ص: ٤٤٨.

(٢) «صحيح البخاري: ١/٢٩ و٤٥»، وقدْ ورَدَ الحديثُ في صحيحِ البُخاري في عدّةِ أبوابٍ، منها «باب قول الرّجلِ: مرْحَباً» و«باب أداء الخُمسِ من الإيمان» و«باب وصاة النبي ﷺ وُفودَ العَربِ أنْ يُبَلّغوا مَن وراءَهم»، و«صحيح مسلم: ١/٤٧»: «باب الأمرِ بالإيمان باللهِ تَعالى ورَسوله ﷺ وشرائعِ الدين والدعاء إليه والسؤالِ عنه وحِفظِه وتَبليغه مَن لم يَبلُغه».

(٣) بشرْطِ أن يَكونَ ما يأنسونَ به مُطابقاً لحالِ المتَكلّمِ، لئلاّ يُدرِكَ الواردَ طَمعٌ في المَورودِ عَليه فيما لا يقدِرُ عليه «بهجة النفوس: ١/٩٤».

(٤) الوَفدُ الجَماعَة المختارَة منَ القَومِ ليتَقدّموهُم في لُقيِّ العُظَماء والمصيرِ إليهِم في المهمّاتِ، واحِدُهُم وافدٌ: «شَرحُ النووي على صَحيحِ مُسلِم: ١/١٨١».

ولأنّه أجمَعُ لخاطِرِهم، فيَكون ذلك سَبَبًا لتَحصيلِ جَميعِ ما يُلقى إليهم؛ لأنّ سُؤالَه ﷺ إنّما وَقَعَ لهذا الغَرَضِ، وقد نَصَّ على ذلك في حَديث آخَر قـال فيه: «أنْزِلوا النّاسَ مَنازِلَهم»[1]، فجاءَ حَديثُه إلى وفْدِ رَبيعة تَطبيقًا عَمَليًّا لحَديث تَنزيلِ النّاسِ مَنازِلَهم. ومن خَصائصِ هذا الحَديثِ أنّه يـدلُّ على فَصاحـةِ العَربِ وبَلاغتِهـم؛ إذ إنّهم لَمّا سُئلوا لم يَنْتَسبوا إلى آبائـهم أو أجْدادهم لأنّ ذلك سَيطولُ به الكَلامُ، ولكنّهم انتَسبوا إلى القَبيلةِ الـتي يَحصُلُ بذِكْرِها المَقصودُ، إبْلاغًا وإيجازًا.

ويُؤيِّدُ مَيلَهم إلى بلاغةِ الإيجازِ أنّهم طَلَبوا مِنَ النّبيّ ﷺ أن يأمُرَهم بأمرٍ فَصلٍ أي قَطعٍ لا نَسْخَ بَعدَه ولا تَأويلَ، ولا يُحْـوِجُهم إلى العَـودةِ مِـنْ مَواطنِهم للسّؤالِ والتّعلُّم؛ ففي نوعِ السُّؤالِ الذي تقدَّموا به دليلٌ على طلَبِ الإيجازِ في التّعليمِ مع حُصولِ الفائدةِ، وهو من الفِقه المُيَسَّرِ[2].

---

(١) «سنـن أبـي داود: ٤/٢٦١» : باب في تـنزيلِ النّاسِ مَنـازِلَـهم: عن ميـمون ابن أبي شبيب أن عائشة رضيَ اللهُ عنها أنّها مر بهـا سـائل فأعطتـه كسرة ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل فقيل لها في ذلك فقالت قال رسـول الله ﷺ: أنزلوا الناس منازلهم، رواه أبو داود في سننه، وقال: ميمونُ بنُ أبي شبيبٍ لم يُـدرِكْ عائشةَ. وانظر: «البيان والتعريف: ١/٢٩٩-٣٠٠»: حديث «أنزلوا الناس منازلهم» أخرجه أبو داود عن عائشة وذكره مسلم في أول صحيحه تعليقا وذكره الحـاكم فـي علوم الحديث وصححه. وسببه كما في أبي داود عن ميمون أن عائشة مرّ بها سـائل فأعطته كسيرة ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل، فقيلَ لها في ذلك فقالت: قالَ رسول الله ﷺ: أنزلوا النّاسَ مَنازلَهم، فذكرته.

(٢) انظر التّفصيل في «بهجة النّفوس: ١/٩٦».

وفي كَلامِ النّبيِّ ﷺ ما يَدلُّ على فَصاحتِه وبيانِه وإيجازِه مع إيصالِ الفائدة؛ فقد جاءَ كلامُه ﷺ موجَزاً جامعاً، عندَما استقْبَلَ الوَفْدَ بقولـــه «مَرْحَباً»[1] أي صادَفْتُم رَحْباً وسَعَةً. وأجابَهُم بالإيجازِ عنْدَما سَألوا عن الأشربةِ، وهي كَثيرةٌ، فأضْرَبَ عن تَعدادها ووَصْفِها كُلّها، وأجابَ عَنِ الأواني المَذكورةِ لا غَيْر، وكأنَّ المَعنى أنَّ الأشربةَ كلَّها حَلالٌ إلاّ ما نُبذَ في هـــذه الأواني، فـــكانَ هـــذا تَصديقًا لما أوتيَه ﷺ مـــن البَلاغـــةِ وجَمْعِ الكَلِم.

ومِمّا يدلُّ على بلاغةِ الحَديثِ نَفْسِه، رِوايَةٌ أخرى عنِ ابنِ عبّـــاسٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أجابَهُم عندَما سألوه عن الأمرِ الفَصلِ الذي يَدخُلونَ بـــه الجَنّـــةَ ويَدْعونَ بِه، أجابَهُم فَقالَ: «أرْبَعٌ أرْبَعٌ: أقيموا الصّلاةَ وآتوا الزّكاةَ وصوموا

---

(١) كَلِمةُ التَّرْحيبِ «مَرْحَباً» من الكَلِماتِ الموجَزَةِ التي تختصرُ مِن وَرائها كَلاماً، وقــدْ تكرّرَتْ في الأحاديثِ، فقد قالَها النَّبيّ ﷺ لأمّ هانئ بنتِ أبي طالب «صَحيح مُــسلِم: ٤٩٨/١» ولفاطِمةَ بنتِ عليٍّ رضي الله عَنهُما «صَحيح مُسلِم: ١٩٠٤/٤»، ويُكْرَمُ بِها مَن يأتي بخيرٍ أو يَقْصِدُ خيراً، فقدْ أكْرَمَ بِها النَّبيّ ﷺ طُلاّبَ العلم وأمَرَ بترْحيبِهِم، فقد رَوى ابْنُ ماجَةَ عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ عن رَسولِ الله ﷺ أنّه قالَ: «سَــيأتيكم أقــوامٌ يَطلبونَ العِلمَ فإذا رَأيتُموهُم فقولوا لهـــم مَرْحَبـــاً مَرحبـــاً بِوَصـــيةِ رَســـول الله ﷺ واقْنـــوهُم»، وزادَ ابْنُ مـــاجَةَ: قُلتُ للحَـــكَمِ: ما «اقنوهُم»؟ قالَ: عَلِّموهُم. «سُـــنَن ابْنِ ماجةَ: ٩٠/١» باب الوصاةِ بطَلَبَةِ العِلم، الحديث:٢٤٧.

رَمَضانَ وأعطوا خُمُسَ ما غَنمتُم...»[1]، فقَد أجْمَلَ في الأوّلِ ثُمّ فسَّرَ الإجمالَ بَعدَ ذلك، والحِكمةُ من الإجْمالِ ثُمّ التّفسيرِ أنّه عندَ الإخبارِ بالإجمالِ يحصُلُ للنّفسِ الرّغبَةُ في زِيادةِ المَعْرفة بالمُخبَرِ عَنه، والشّوْقُ إلى الاطّلاعِ عَلى مَعْناه، فَيكون ذلك أوقَعَ في النّفْسِ وأعظمَ في الفائدة.

ومِثْلُ حَديثِ التّرحيبِ بوَفْدِ رَبيعةَ، حَديثُ التّرْحيبِ برِجَالِ بَني عامرٍ الذي رَواه ابْنُ حِبّان عَن عَونِ بْنِ أبي جحيفَةَ عَن أبيه قالَ: « دَخَلتُ عَلى النّبيِّ ﷺ أنا ورَجلان مِنْ بَني عامرٍ فَقالَ:

- مَنْ أنتُمْ ؟، فَقُلنا:

- مِنْ بَني عامرٍ.

(١) «صَحيح البُخاري: ٢٢٨٥/٥»، ومنَ المَعلوم أنّ كَثيراً من الأحاديثِ ورَدَت بِصيغةِ الإجمالِ لِتَهيِيءِ النّفسِ ثُمّ جاءَ التّفْصيلُ بَعدَ ذلِكَ، وقدْ ورَدَ الإجْمالُ بِلفْظِ العَدَدِ في كَثيرٍ منَ الأحاديثِ، مثل حَديثِ «أربَع أربَع» الذي مَرّ بنا آنِفاً، وحَديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ «ثِنْتانِ لا تُرَدّانِ، أو قَلّما تُرَدّانِ: الدُّعاء عِنْدَ النّداء، وعِنْدَ البأسِ...» «المُستَدرَك على الصّحيحَيْن: ٣١٣/١»، وحَديثِ أنسٍ «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بِهِنّ حَلاوَةَ الإيمانِ...» «صَحيح البُخاري: ١٤/١»، وحَديثِ عَبْدِ الله بنِ عَمْرو بنِ العاصِ «أربَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كانَ مُنافِقاً خالِصاً...» «صَحيح البُخاري: ٢١/١»، وحَديثِ أبي الدَّرْداءِ «خَمْسٌ مَنْ جاءَ بِهِنّ مَعَ إيمانٍ دَخَلَ الجنّةَ...» «مَجْمَع الزّوائِد: ٤٧/١» رَواه الطّبَراني في الكَبير وإسْنادُه جيّد، وحَديثِ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ «ستّ مِنْ أشْراطِ السّاعَة» «مَجْمَعُ الزّوائد: ٣٢٢/٧»، و«المُعْجَم الكَبير للطّبَراني: ١٢٢/٢٠»، وحَديثِ أبي هُرَيْرَةَ «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه...» «صَحيح البُخاري: ٢٣٤/١»، وحَديثِ سَعيدِ ابنِ زَيْدٍ «عَشَرَةٌ في الجَنّةِ...» «سُنَن التِّرمِذي: ٦٤٨/٥».

- فَقالَ ﷺ: «مَرْحَباً بِكُمْ، أنتُم مِنّي»[1].

ففي هذا الحِوارِ سُؤالُ النَّبيِّ ﷺ عن الوافِدينَ ليَتَعَرَّفَ أخبارَهُم فيُنـزِلَهم مَنازِلَهُم.

وتَقومُ العِبارةُ الحِواريّةُ عَلى تَغـيير مَفهـومٍ أو تَـصحيحِه أو بَيانِـه وإيضاحِه؛ كقَوله ﷺ:

- «اُنْصُرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا»، فقال رَجلٌ:

- يا رسولَ الله، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أرأيْتَ إن كانَ ظالمًا كيـفَ أنصرُه؟ قالَ:

- «تَحْجِزُه - أو تَمْنَعُه - من الظّلمِ ، فذلك نصْرُه»[2].

لقَد جاءت عبارةُ النّبيِّ ﷺ قصيرةً موجَزَةً، يمكنُ أن تُتَّخَذَ قاعدةً شرعيّةً من قواعدِ المعاملاتِ وكفِّ الظّلمِ، أثارت سؤالاً يَستفسرُ عن شيْءٍ ظـاهرُه نُصرةُ الظّالمِ بينَما يَنبَغي رَدُّه عَن ظُلمِه، وجاءَ الجَوابُ مُبيِّنًا أنَّ فعلَ النّـصْرةِ يَدلُّ عَلى مَعانٍ أوّلها إعانةُ المَظلومِ ونُصرتُه عَلى ظالمه، ويَدلُّ عَلـى حُـسنِ المَعونة، كقَوله تَعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾

---

(1) «صحيح ابنِ حبّان: ٢٨٢/١٦» و«موارِد الظّمآن: ٥٧٢/١»، بلفظه.

(2) «صحيح البخاري: ٨٦٣/٢»: «باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما»، وانظر: «صحيح ابن حبّان: ٥٧٠/١١»، «موارد الظّمـآن: ٤٥٧/١»، «سـنن التّرمـذي: ٥٢٣/٤»، «سنن الدّارمي: ٤٠١/٢».

(الحجّ:١٥)، ومعناه أنّه مَن ظنَّ مِن الكفّارِ أنّ اللهَ لا يُظهِر نبيَّه محمّدًا ﷺ على مَن خالَفه فلْيختنقْ غيظًا حتّى يموتَ كَمَدًا.

فنصرُ المظلومِ إعانتُه على عدوِّه حتّى ينتصفَ منه، ونصرُ الأخِ إذا ظَلَمَ إسداءُ النّصحِ له ومنعُه من ارتكابِ الظّلمِ، لِما يجرُّه ذلك من سوءِ مصيرٍ.

ومن ذلك قولُه ﷺ في الحديثِ الذي رواه ابنُ مسعودٍ:

- «... ما تقولون في الصُّرَعَة؟ قال: قلت:

- الذي لا يَصْرَعُه الرِّجالُ. قال:

- **الصُّرَعَةُ الذي يُمْسكُ نفْسَه عندَ الغَضَب**»[1].

يقالُ: رَجلٌ صَرّاعٌ: بيّنُ الصّراعةِ، وصُرَعَةٌ وصِرّيعٌ: كَثيرُ الصّرْعِ لأقرانه يصْرعُ النّاسَ، ورجلٌ صُرْعةٌ: يُصْرَعُ كَثيرًا، وكذلك صَروعٌ، والصُّرَعَةُ هم القومُ الذينَ يَصرعونَ مَن صارعوا؛ يقالُ رجلٌ صُرَعَةٌ وقومٌ صُرَعَةٌ، والصُّرَعَةُ في الحديثِ الحليمُ عندَ الغضَب؛ لأنّ حِلْمَه يَصرعُ غَضبَه، فَنَقَلَه من مَعْنى الذي يَغْلبُ غَيرَه، إلى معنى الذي يغلبُ نفسَه عند الغَضب ويقهَرُها، فإنّه إذا مَلَكَها كانَ قد قهَرَ أقوى أعدائه وشرَّ خصومِه. فنُقِلَ

(١) «صحيح ابن حبان: ١٢/٥٠٤»: «ذكر الأخبار عما على المرء من مجانبه الخروج الى ما لا يرضى الله جل وعلا ثم الاحتداد: أخبرنا الحسن بن سفيان قال حدثنا محمد ابن خلاد الباهلي قال حدثني محمد بن يحيى بن سعيد القطان قال حدثني أبي قال حدثني أبو عوانة قال حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: (الحديث)»، وانظر: «سنن البيهقي الكبرى: ٤/٦٨»؛ وانظر: «صحيح مسلم: ٤/٢٠١٤»، و«صحيح البخاري: ٥/٢٢٨٦، ٧/٢١٤»، «السنَن الصغرى: ١/٣٢٢» «مجمع الزّوائد: ٣/١١، ٨/٦٩»... .

اللّفظُ عن وضْعِه لضرْبٍ من التّوسُّعِ والمجاز؛ نُقِلَ من قهرِ المُصارِعِ لمُنازِله إلى قَهرِ شَهوةِ الغضَبِ التي ثارت فيه، بحِلْمه وثَباته[1]، وهذا من باب **التّجديد في دلالات الألفاظ**؛ فقد نَقلَ الحديثُ اللّفظَ من معناه الوضعيِّ المُتَعالَمِ الذي ألِفَه النّاسُ إلى معنىً آخَر يقتضيه، ولكنّه لم يُثبِّتْه في أذهانِ السّامعينَ إلاّ في سياقِ حوارٍ، أجابوا فيه عَمّا يعلمونَ عن الصُّرَعَةِ، ثمّ صحّحَ لهم الفهْمَ، في ضوءِ العقيدَةِ وأدبِ المُعاملاتِ وقواعدِ الدّينِ.

ومن ذلكَ قولُه ﷺ في الحديثِ الذي رواه عُمَرُ بنُ الخطّاب:

- **«إنّ من عِبادِ اللهِ لأُناسًا ما هم بأنْبِياء ولا شهداء، يَغْبطُهُم الأنبياءُ والشهداءُ يومَ القيامةِ بمكانِهم من اللهِ تعالى. قالوا:**

- يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال:

- **هم قوم تحابّوا بروح الله، لا أرحامَ بينهم ولا أموالَ يتعاطونها، فو اللهِ إنّ وجوهَهم لَنورٌ، وإنّهم على نور، لا يخافون إذا خافَ النّاسُ، ولا يحزنون إذا حزِنَ النّاسُ.** وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونُس:٦٢)»[2].

يصفُ لنا الحديثُ، بوصفٍ دقيقٍ صادرٍ عن إدراكٍ مُتبصِّرٍ، مكانةَ المتحابّينَ الكريمةَ، التي تجعلُ الأنبياءَ والشّهداءَ يَغْبِطونهم على مكانَتِهم، ومحبّةَ بعضِهم لبعْضٍ الخالصةَ.

---

(١) «لسان العرب: ٨/١٩٧-١٩٨، صرع».

(٢) «سنن أبي داود: ٣/٢٨٨»؛ وانظر: «المستدرك على الصحيحين: ٤/١٨٨».

إنّ الحَديثَ يصفُ فَيضَ المحبّةِ والمَودّةِ بأسلوبِ حِواريٍّ مشوقٍ، يـشدُّ فيه انتباهَ المُخاطَبينَ، ويمهّدُهم لسماعِ صفاتِ هؤلاءِ القومِ الـذين يغـبطهم الأنبياءُ والشّهداءُ يومَ القيامة.

ومّما وردَ فيه الأسـلوبُ الحـواريُّ قولُه ﷺ، في الحديثِ الـذي رواه أبو بكرةَ «عن الأحنـف بن قيس قال: ذهبت لأنصرَ هذا الرجلَ، فلقـيني أبو بكرةَ فقال: أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرجل. قال: ارجع فإني سمعـت رسول الله ﷺ يقول:

- **إذا الْتَقى المُسْلمانِ بسَيفَيْهِما فالقاتِلُ والمَقتولُ في النّارِ. فقُلتُ:**
- **يا رَسولَ الله، هذا القاتِلُ، فَما بالُ المَقْتولِ؟ قالَ:**
- **إنّه كانَ حَريصاً عَلى قَتلِ صاحِبه»**[1].

يقرِّرُ هذا الحَديثُ قاعدةً شَرعيّةً من قَواعدِ الأحكامِ، وهي أنّ القاتـلَ والمقتولَ من المُسْلمينَ يَدخلانِ النّارَ إذا الْتَقَيا بسيْفَيْهما. وقد أثارَ هذا الحكمُ أبا بكرَةَ؛ لأنّه يعلمُ أنّما يستحقُّ النّارَ القاتلُ، جزاءً بما كَسَبَ، لا المقتولُ، فاستثاره دُخولُ المَقتولِ في الحُكمِ نَفسِه، وأنّ الاقْتِتالَ بينَ المُسلمينَ مّما يمكنُ أن يَقعَ، كَما بيّنه الله عزّ وجـلّ في قولـه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) صحيح مسلم: ٤/٢٢١٣: «باب إذا تواجه المُسلمانِ بسَيْفَيهما: حدثني أبو كامل فضيل ابن حسين الجحـدري حدثنا حماد بن زيد عن أيوب ويونس عن الحسن عن الأحنف ابن قيس...»، صحيح البخاري: ١/٢٠: «باب وإن طائفتان مـن المـؤمنين اقتتلـوا فأصلحوا بينهما فسماهم المؤمنين».

﴿اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ (الحجرات:٩)، وحَثَّ عُقَلاءَ المسلمينَ ووُلاةَ أُمورِهم وصُلَحاءَهم أن يَكُفُّوا هذا الاقْتِتالَ ويَمنعوه حقْنًا لدماءِ المسلمينَ وإنقاذًا لهم من النّارِ التي أخبَرَ بها الحَديثُ. ثُمّ جاءَ جوابُ رسولِ الله ﷺ بأنّ المقتولَ أيضًا في النّارِ؛ لحِرْصِه على قتلِ صاحِبِه. فنَبّه ببيانه وإيضاحِه على مُؤاخذةِ هذا المقتولِ بنيّتِه التي نَواها، قبلَ الإقدامِ على مُقاتلةِ أخيه المسلمِ...

ففي هذه الأحاديثِ تَصحيحٌ للمَفاهيمِ السّائدةِ، أو تلقينٌ للمَجهولِ منها، كنُصْرَةِ المُسْلِمِ الظّالِمِ بكفّه عن الظّلمِ، وجزاءِ المقتولِ الحَريصِ عَلى قَتلِ صاحبِه، والمُفْلسِ، في قولِه:

- «**أتَدْرونَ منِ المُفْلِسُ؟** قالوا:

- المفلسُ فينا يا رسولَ الله من لا درهمَ له ولا متاعَ له. فقال رسول الله ﷺ:

- **المُفْلسُ مِن أمّتي مَن يَأتي يَومَ القِيامةِ بِصَلاتِه وصِيامِه وزَكاتِه، وقد شتمَ هذا وأكلَ مالَ هذا وسفكَ دمَ هذا وضربَ هذا، فيقعد فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فَنِيَت حسناتُه قبلَ أن يعطي ما عليه أخذَ مِن خطاياهم فطُرِحت عليه ثم طُرِحَ في النّارِ**»[1].

والصُّرَعَة، في قولِه: «**الصُّرَعَةُ الذي يُمْسِكُ نَفْسَه عندَ الغضَبِ**»[2].

ومّما وردت فيه العباراتُ الحواريّةُ أيضًا، قولُه ﷺ:

---

(١) عن أبي هريرةَ، انظر: «صحيح ابن حبّان: ٢٥٩/١٠» ....

(٢) مرّ بنا الحديثُ آنِفاً، سبق تخريجه.

- «...كلُّ أمّتي يدخلونَ الجنةَ إلا مَن أبى. قالوا: يا رسولَ الله، ومَن يأبى؟ قال: مَن أطاعَني دخلَ الجنّةَ، ومن عَصاني فقد أبى»[1].

لقد جرّ هذا الكلامُ الجامعُ المُجمَلُ، وهو قولُه ﷺ: «كُلُّ أُمَّتي يَدْخُلونَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ أَبى»، سُؤالَ الصّحابة، وأثارَ تَعَجُّبَهم مّمن يُحتَمَلُ فيه أن يأبى دخولَ الجنَّة. وجاءَ الجوابُ مفصّلاً ما أجملَ في المطلَع، مبيّنًا ما أشكلَ على السّائلينَ، فتبيّنَ أنّ دخولَ الجنّةَ مقيَّدٌ بشرطِ الطّاعةِ لرسولِ الله ﷺ، فجاءَ التّفصيلُ بعدَ الإجمالِ، في عباراتٍ حواريّةٍ مركّزة، ولكنّه تفصيلٌ لايخرُجُ عن أسْلوبِ الجَمْعِ والإيجازِ في البيانِ النّبويِّ، الذي يعتمدُ على العبارةِ القصيرةِ، والجوابِ المباشرِ. وتتكاثرُ الجملُ في الحوارِ، وتتردّدُ بين السّؤالِ والجوابِ؛ لأنّ المواقفَ تدعو إلى تعليمِ الصّحابةِ، وإجابةِ أسئلَتِهم، وتصحيحِ أخطائهم، حتّى إنّ أكثرَ الأحاديثِ وردت على صورةِ عباراتٍ حواريّةٍ، ومنها ما يفتتحُ بحَثٍّ وتَحضيضٍ، يحثُّ فيه المُخاطَبينَ على قَبولِ العرضِ الذي يعرِضُه المتكلّمُ، وذلكَ كقوله ﷺ:

- «ألا أدلُّكم على ما يَمْحو الله به الخَطايا، ويرفعُ به الدّرَجات؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله . قالَ: إسْباغُ الوضوءِ على المكارِه، وكثرةُ الخُطا إلى المسجدِ، وانتظارُ الصّلاةِ بعدَ الصّلاة، فذلِكم الرّباطُ»[2].

---

(١) «صحيح البخاري: ٦/٢٦٥٥»: «حدثنا محمد بن سنان حدثنا فليح حدثنا هلال ابن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (الحديث...)»، وانظر: «المستدرك على الصحيحين: ١/١٢٢».

(٢) «صحيح مسلم: ١/٢١٩»: «باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره: حدثنا يحيى ابن أيوب وقتيبة وابن حجر جميعا عن إسماعيل بن جعفر قال ابن أيوب حدثنا إسماعيل أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة (الحديث)»، وانظر: «صحيح ابن خزيمة: ١/٦».

فقد افتُتحَ الحديثُ بعرْضِ الجزاءِ قبلَ عرْضِ العملِ، كما هـو شـأْنُ الأسلوبِ القرآنيّ، وذلكَ لتَصغى إليه أفئدةُ السّامعينَ، وليطمحوا ويعزِموا على الفعلِ بكلّ رِضًا وطواعيّة. وهذا هو مقصدُ المتكلّمِ وغرَضُه؛ لأنّه لم يعرِض العَملَ على المُخاطَبينَ إلاّ بعدَ استِمالة النّفوسِ بالجزاءِ، مستعملاً عباراتٍ حواريّةً موجَزةً تدلُّ على المعاني السّاميَةِ بأقْصرِ طريقٍ وبأوجزِ الألفاظِ.

ومثلُ ذلك قولُه ﷺ فيما رواه أبو بكرَةَ، قالَ:

«...كنا عندَ رسولِ الله ﷺ، فقالَ: **ألا أُنبِّئُكم بأكبرِ الكبائرِ؟** (ثلاثاً). قالوا: بلى يا رسولَ الله . قالَ: **الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالـدين، وشـهادةُ الزورِ -أو قول الزور-**(وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلسَ، فما زالَ يكرِّرُها حتى قلنا ليتَه سَكَتَ)»[1].

افتُتحَ الحديثُ بِتَخْويفِ الصَّحابَةِ جَزاءً مَكْروهًا، لإيقاظِ العَزائمِ على تجنّبِ الفعلِ المؤدّي إلى ذلك الجزاءِ، ولاسْتِمالةِ النّفوسِ للسّماعِ سماعَ تقبُّلٍ وتعلُّمٍ؛ فاعتمدَ المتكلّمُ الحوارَ والافْتِتاحَ بالسّؤالِ عَن بُؤرَةِ القَضيّةِ كلّها، وهي نَتائجُ الأعمالِ وحكمُها عند الله، وتَدَرَّجَ بالمُخاطَبينَ إلى المُرادِ من الكلامِ كلِّه، وهو حملُهم على تجنُّبِ المحظورِ.

---

(١) «صحيح مسلم: ٩١/١»: «باب بيان الكبائر وأكبرها حدثني عمرو بن محمد ابن بكير بن محمد الناقد حدثنا إسماعيل بن علية عن سعيد الجريري حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه»، وانظر: «صحيح البخاري: ٢٣١٤/٥».

- قِيَمٌ لفظِيّةٌ وصَوْتِيَّةٌ وأُسلوبيَّةٌ في بَلاغةِ النّصّ النّبوِيّ:

يقومُ نَصُّ الحَديث، على كثيرٍ من القيمِ اللّفْظِيّةِ والصّوتيّةِ والأُسلوبيّةِ التي تُعبِّرُ بصِدْقٍ عن قِيَمِ النّفْسِ البشرِيّة، وما يعْتَريها من أحوالٍ مُختلفةٍ تَطْرأُ عَلَيْها، بِحَسَبِ المَواقِفِ المُختلفة.

وهذِه القيمُ اللّفظيّةُ والصّوتيّةُ تعملُ على تنظيمِ الألفاظِ والأصوات، وتعليقِ بعضِها ببعضٍ، لتحْسينِ الكلامِ وأدائهِ على أجملِ هيئةٍ، فِطْرَةً وسجيّةً، ومن دونِ صنْعةٍ أو تعمُّلٍ.

وليست هذه القيمُ اللّفظيّةُ والصّوتيّةُ، سِوى نَظْمِ الكلامِ وتأليفِه على وضْعِ الاتّساقِ، وتَساوي الأقْسامِ، واعْتِدالِ الفُصولِ والأجزاء؛ لأنّ الكلامَ قد يُؤَلّفُ مُخلطًا غيرَ مُتَناسِبٍ ولا مُقَسَّمٍ، فَلا يستحقُّ اسْمَ النّظْمِ، وإنّما يسْتَحقُّ هذا الاسْمَ إذا كانَ مُرَتّبًا مُنَسَّقًا، ذاهِبًا مذْهبَ الانْتِظامِ ومُوازنةِ الأقْسامِ[1].

---

(١) انظُرْ في هذا المعنى: «موادّ البَيان:٢٠٤» لِعليّ بنِ خَلَف الكاتب (ق.٦)، تح. د.حسين عبد اللّطيف، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٨٢م.

- السّجْعُ:

من هذه القِيَــمِ الصّوتيّة مراعــاةُ الفواصِلِ، وهو ما يُعرفُ بالسّجْعِ، في عِبارات موجَــزَة مُركّزَة، مُنْســابَة انْسِيــابًا طبيعيــًّا لم يسْبِقْه إعــدادٌ أو نَخلٌ أو تَثْقيفٌ، والكلامُ إذا كان مسْجوعًا لــذَّ لِــسامعه، فَحَفظَــه. و«السّجعُ تواطُؤُ الفَواصلِ في الكَلامِ المَنثورِ عَلى حَرفٍ واحدٍ»[1].

وممّا وردَ فيه شيْءٌ من السّجعِ قَولُه ﷺ، في حَديثِ عبدِ الله بنِ سَلامٍ:

«يا أَيُّها النّاسُ، أَفْشوا السّلامَ، وأَطْعموا الطّعامَ، وصِلوا الأرحــامَ، وصلّوا والنّاس نِيامٌ، تَدْخلوا الجَنّةَ بِسلامٍ»[2].

السّلام لفظٌ أُطْلِقَ على العمومِ، ولا يَجِبُ استعمالُه في كلّ الأحــوالِ؛ لأنّ المرءَ إذا استَعمَلَ ذلك في كلّ الأحوالِ على كلّ إنسانٍ ضاقَ به الأمــرُ وخرجَ إلى ما ليس في وسعه، وتكلّفَ إلزامَ الفرائضِ بالرّدّ على المــسلمين. وإذا كان الرَّدُّ هو الفرض صار على الكِفاية، وكان ابتداءُ السلامِ الذي ليس أولى أن يكون على الكفاية. وقوله «**أطعموا الطّعامَ**» أمرٌ نَدَبَ إلى استعمالِه وحثّ عليه قصدًا لطلب الثّواب.

---

(1) «المثلُ السّائر: 1/211».

(2) «المستَدْرَك علَى الصّحيحَين: 3/14»: «عن عبد الله بن سلام، رضي الله عنه، قال: لما ورد رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه وقيل قدم رسول الله ﷺ قال فجئــت في الناس لأنظر فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب وكان أول شيء سمعته يتكلم أن قال: (الحديث)... هذا حديث صحيح علــى شــرط الــشيخين ولــم يخرجاه». وانظر: «صحيح ابن حبان: 2/242».

أمّا من حيثُ القيَم الصّوتيّة، فقد توافقت فواصلُ السّجعِ، وتوحّـــدت أواخرُ الكلمِ في حرفَي الألفِ والميمِ، ويتمّ الوقفُ على الميمِ بعدَ مدِّ الألفِ، فيكتسبُ اللّفظُ دلالةً مقْصودةً، تركّزُ على الكلمةِ حتّى تستقرَّ في النّفسِ بعدَ أن يطولَ في السّمعِ استِغْراقُها الزّمنيُّ وتردُّدُها.

ومن ذلكَ قولُه ﷺ: «**اَلْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، والفاجِرُ خِبٌّ لَئيمٌ**»[1].

الخَبُّ بالفتح والكسر الرّجل الخَدّاع؛ تقول منه خَبِبْتَ يا رجل بالكسر خِبّاً بالكسر ومنه حَديثُ أبي بَكْرٍ:

عن النبي ﷺ قال: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ خِبٌّ ولا مَنّانٌ ولا بَخيلٌ**»[2]. الخَبُّ الخَدّاعُ الخَبيثُ الذي يَسْتَعْمِلُ الدَّهاءَ في الأمورِ الدّنيويّةِ صَغيرِها وكَبيرِهـــا. و«**المؤمن غِرٌّ كريمٌ**» أي ليس بذِي نُكْر، فهو يَنْخَدِع لانْقِيادِه ولِينه، وهو ضِدُّ الخبِّ. يقال فتىً غِرٌّ وفَتاةٌ غِرٌّ، وقد غَرِرْتَ تَغِرُّ غَرارَة. يُريد أنّ المؤمنَ المحمودَ من طَبْعه الغَرارة، وقِلةُ الفِطْنة للشَّرّ، وتركُ البحث عنه، وليس ذلك منه جَهلاً، ولكنه كَرَمٌ وحُسْن خُلُق. وهؤلاءِ قَليلُو الشَّرّ مُنْقادُون، فإنّ مَنْ نبذَ الشّهرةَ، وآثَر الخُمـــولَ وإصْلاحَ نَفْسِه والتَّزوُّدَ لَمَعادِه، ونَبذَ أمورَ الدّنيا فليس غِـــرًّا

---

(١) «المستدرك على الصحيحين:١/١٠٣»: «عن سفيان الثوري عن الحجاج بن فرافصة عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قـــال: قـــال رســـول الله ﷺ: «المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم» وانظر: «سنن الترمـــذي:٤/٣٤٤»؛ وانظـــر: «سنن أبي داود: ٤/٢٥١».

(٢) «الترغيب والترهيب: ٣/٢٥٨» رواه الترمذي وقال: حَديث حَسن غَريب.

فيما قصَــدَ له، ولا مَذْموما بنوع من الذَّم[1]، أمّا الــخِبُّ فهو الــخِدَاعُ والــخُبْثُ والغِشُّ، ورجلٌ مُخابٌّ مُدْغِلٌ، ورجلٌ خَبٌّ وخِــبٌّ: خَــدَّاعٌ خَبِــيثٌ مُنْكَرٌ، وهو الــخِبُّ والــخَبُّ؛ قال الشاعر:

وما أنتَ بالــخَبِّ الــخَتُورِ ولا الذي

إذا استُودِعَ الأَسْرارَ يوماً أذاعَها[2]

وفيه مناسبةٌ بينَ «الكريمِ» و«اللَّئيمِ»، في الوزنِ والسَّجعِ والتَّجنيسِ، ومُناسَبَةٌ بَيْنَ «غِرّ» و«خِبّ» في الوَزْنِ وطِباقٌ بَيْنَهُما.

ومنه قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرةَ:

«بادِروا بالأَعْمالِ سَبْعًا؛ هل تَنتَظِرون إلا فَقــرًا مُنْــسِيًا، أو غِــنىً مُطغِيًا، أو مَرَضًا مُفسِدًا، أو هَرَمًا مُفَنِّدًا، أو مَوتًا مُجْهِــزًا، أو الــدَّجّالَ؛ فشَرُّ غائِبٍ يُنتظَرُ، أو السّاعةَ؛ فالسّاعةُ أدهى وأمَرُّ»[3].

بادِروا بالأَعْمالِ سَبْعًا: أي سابِقوا وُقوعَ الفِتَنِ بالاشْتغالِ بالأعْمالِ الصّالحةِ، واهْتمّوا بِها قَبلَ حُلولِها، هلْ تَنظُرون إلاّ إلى فَقرٍ مُــنْسٍ: خُــرِّجَ

---

(١) «النّهاية: ٣/٣٥٤-٣٥٥».

(٢) «لِسانُ العَرَب: ٣٤١/١ ، ١٢/٥».

(٣) «سُنَن التِّرمِذي: ٥٥٢/٤»: « بابُ ما جاءَ في المُبادَرَةِ ومَعْناه: حَدَثَنا أبو مُــصْعَبٍ عَن محرزِ بنِ هارونَ عنْ عَبدِ الرَّحمنِ الأعْرَجِ عَن أبي هُرَيرَةَ أنْ رَسولَ الله ﷺ قالَ: «الحَديث..»، قالَ: هذا حَديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ؛ وانظر: «المُستَدْرك علَــى الــصَّحيحَيْن: ٣٥٦/٤».

مخرجَ التّوبيخِ على تقصيرِ المكلّفين في أمرِ دينهم، أي متى تعبــدون ربَّكــم فإنكم إنْ لم تعبُدوه مع قلّةِ الشّواغلِ وقوة البدنِ، فكيف تَعْبُدونَه مَع كَثــرةِ الشواغلِ وضعفِ القُوى، لعلّ أحدَكم ما يَنتظِرُ إلا غِنىً مُطغيًــا. وقولــه: «مُنْسِياً» من بابِ الإفعالِ، ويجوز أن يكون من بابِ التّفعيلِ، والأوّلُ أولى للمُشاكَلَة، أي جاعِلاً صاحبَه مدهوشًا يُنسيه الطّاعةَ، من الجوعِ والعُــريِ والتّردُّد في طلبِ القوتِ. أو «غِنىً مُطغِياً» أي مُوقِعاً في الطّغيان. أو «مَرضاً مُفْسِداً»: أي للبَدنِ لشدّته، أو للدّين لأجلِ الكَسلِ الحاصلِ به. أو «هَرَمــاً مُفَنِّداً»: أي مُوقِعاً في الكَلامِ المُحرّفِ عن سننِ الصّحةِ من الخَرفِ والهَذَيانِ وإنكارِ العقلِ، والخطأ في القولِ والرّأيِ والكذب والتّخْطــيءِ والتّكــذيب والتّفنيدِ. أو «مَوْتاً مُجْهِزاً»: من الإجهازِ أي قاتلاً بَغتَةً ومانعاً من أن يقدرَ على توبةٍ ووصيّةٍ. والمجهز هو السريع؛ يقال أجهَزَ على الجريحِ إذا أســرعَ قتلَه. أو «الدّجّال» أي خروجه؛ «فشرّ غائب يُنتظَر». أو «الــساعةَ» أي القيامةَ، «فالساعةُ أدهى» أي أشدُّ الدّواهي وأقطعُها وأصعبُها، و«أمرُّ» أي أكثر مرارةً من جميعِ ما يكابدُه الإنسانُ في الدّنيا من الشّدائدِ لمن غَفلَ عــن أمرِها و لم يُعِدَّ لها قبلَ حلولِها. والقصدُ الحثُّ على البِدارِ إلى العمل الــصّالحِ قبل حلولِ شيءٍ من ذلك[1].

---

(١) «تحفة الأحوذي: ٤٨٨/٦» : هذا حديث غريب حسن وأخرجه النــسائي والحــاكم وصححه، قال المناوي: وأقروه؛ وانظر: «المستدرك علــى الــصّحيحين: ٣٥٦/٤»؛ و«مسند الشهاب: ٣١/٢».

وفي الحديثِ مناسبةٌ تامّةٌ في **الوزنِ** بينَ «مُنْسِيًا» و«مُطْغِيًا»، ثمّ بينَ «مُفسِدًا» و«مُفنِّدًا»، **وسجْعٌ** فقط بين «يُنتَظر» و«أمرّ»، **وطباقٌ** بين «الفقرِ» و«الغِنى»، **ورِعايةُ النّظيرِ** بين «المرضِ» و«الهرمِ» و«الموتِ»، **والاقْتِباسِ** من القرآنِ الكريمِ في قولِه «والسّاعَةُ أدْهى وأمرُّ».

ومنه دُعاءُ النّبيِّ ﷺ في سُجودِهِ فيما رَواه أبو هُرَيْرَةَ: «**اللّهمَّ اغفِرْ لي ذَنْبي كلَّه، دقَّه وجلَّه، وأوّلَه وآخِرَه، عَلانيتَه وسرَّه**»[1] فَقَدْ تَوافَقَت الكَلِمَتانِ الأُولَيانِ: «دقَّه» و«جلَّه» في **الوَزْنِ، والسَّجْعِ، والتَّجْنيسِ**..

وتُثارُ في مَعرِضِ الحَديثِ عَن السّجعِ في الحَديثِ النّبويّ، مَسألةُ الموقِفِ مِنَ السّجْعِ نَفْسِه، حَيثُ يُقالُ: كيفَ يتكلّمُ النّبيّ ﷺ بكَلامٍ مَسْجوعٍ، وهو الذي أنكرَ السّجعَ حينَ قالَ: «**أسَجْعًا كَسَجْعِ الكُهّانِ؟**»[2].

والجوابُ أنّه لم يُنكِرِ السّجعَ مطلقًا، وإنّما قيّده بسجعِ الكُهّانِ، وعلّقَه عليه. فالنّهيُ إنّما عن حُكمِ الكاهنِ، الواردِ باللّفظِ المسجوعِ. ولكنّ قومًا

---

(١) «**المستدرك على الصحيحين**: ١/٣٩٥»؛ وانظر أيضًا: «**صحيح مسلم**: ١/٣٥٠»، و«**صحيح ابن خزيمة**: ١/٣٣٥»، و«**سنن البيهقي الكبرى**: ٢/١١٠»: «زاد ابن السرح: «علانيته وسره»، رواه مسلم في الصحيح عن ابن السرح».

(٢) «**مصنف عبد الرزاق**: ١٠/٦٠» لأبي بكر عبد الرزّاق بن همام الصنعاني (ت.٢١١)، تح. حبيب الرّحمن الأعظمي، المكتب الإسلاميّ، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ: «عن ابن المسيب أن رسول الله ﷺ قضى في الجنين غرة عبدا أو وليدة فقال الهذلي الذي قضى عليه: «**كيف أغرم يا رسول الله من لا شَربَ ولا أكلَ ولا نطقَ ولا استهلَّ فمثلُ ذلك يطل؟**» فقال رسول الله ﷺ: «**أسجْعًا كسَجْعِ الكُهّانِ؟**»؛ وانظر أيضًا «**تُحفَةَ المُحتاج إلى أدلّةَ المِنْهاج**: ٢/٤٥٩-٤٦٠».

ذمّوا السّجعَ وأزْرَوْا عليه، بينما وردَ في القرآنِ الكريمِ كثيرٌ منه، ونطقَ بـــه النّبيّ ﷺ في كثيرٍ من كلامه[1]؛ فقد يتوخّاه ويقصدُه، مَع الحِرصِ عَلى بَيانِ المَعـــنى وتَقريبه إلى المُخـــاطَبينَ، حتّى إنّه غيّرَ الـــكلمةَ عن وجهِها، إتباعًا لها بأخواتِها من أجلِ السّجعِ، فكان يعوِّذُ ابْنَي ابنته، ويقولُ: «**إنّ أباكمـــا كان يعوِّذُ بها إسماعيلَ وإسحاقَ: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التّامّةِ، من كلِّ شيطانٍ وهامةٍ، ومن كلِّ عينٍ لامّةٍ**»[2].

وهناك فائدةٌ أخرى في هذا الدّعاءِ وهي طلَـــبُ المُـــشاكَلَةِ الـــصّوتيّة، والتّجوّز بالصّوتِ من وضعٍ إلى وضعٍ آخَـــر للتـــأليفِ بينـــهُما والمُوافقَـــةِ والانسجامِ. وهذا ما يمكنُ تسميتُه بالمَجازِ الصّوتي[3].

فإنّما أطْلَقَ لَفْظَ «لامّة» وأراد «مُلمَّة»؛ لأنّ الأصْلَ فيها من «ألَـــمَّ» «يُلِمُّ» فهو «مُلِمٌّ»، وألْمَمْتُ إلْماماً فأنا مُلِمٌّ، ولم يقل: مُلِمّة، وأصلُها مـــن ألْمَمْتُ إلْماماً، يقال ذلك للشيء تأتيه وتُلِمّ به؛ وهو القيـــاس والأصـــل[4].

والهامّةُ يَعْني الواحِدَةَ من هَوامِّ الأرْضِ، وهِيَ دَوابُّها المُؤْذيَةُ.

---

(١) «المثل السّائر: ١/٢١١».

(٢) «صحيح البخاري: ٣/١٢٣٣»: «حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنّ الرسول ﷺ كان يعوِّذُ بها الحَسَنَ والحُسَيْنَ».

(٣) «المَجاز وقوانين اللّغة: ١٤٤»، د. عليّ محمّد علي سلْمان، دار الهـــادي للطّباعـــة والنّشر والتّوزيع، ط١/١٤٢٠هـــ، ٢٠٠٠م.

(٤) «الغريب لابن سلام: ٣/١٣٠-١٣١»، «الغريب لابن قتيبـــة: ٣/٦٧٣»، «النهايـــة: ٤/٢٧٢».

وقَد يَكونُ هذا مِنْ غَيرِ وَجهٍ، مِنْها أن لا يُرادَ طريقُ الفعل، ولكنْ يُرادُ أنها ذاتُ لَمَم فتقول على هذا المعنى: لامّة كما قال الشاعر:

كِليني لِهَمٍّ يا أميمة **ناصبِ** وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ[1]

وإنما هو مُنْصِب، فأراد به ذا نَصَب. ومنه قوله عز وجل: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ (الحجر:٢٢)، واحدها لاقِح على معنى أنها ذات لقح. ومنه الحديث: «**إنّ كلَّ ما يُنبتُ الرّبيعُ يقتُل حَبَطاً أو يُلمُّ**... »[2]. فخرَجَ عن القياسِ، لِيُزاوجَ بين «**تامّة**» و«**هامة**» و«**لامّة**» في الوزنِ والسّجْعِ والتّجنيس.

وفي حَديثِ سُوَيْدِ بْنِ هبيرَةَ: «**خيرُ المالِ: مهرَةٌ مأمورَةٌ، أو سكّةٌ مأبورَةٌ**»[3].

والسّكّةُ المَأبورَة هي الطَّريقُ المُصْطفّةُ المُستَوِيَةُ من النّخْلِ، وإنّما سُمّيت الأزقّةُ سِكَكًا لاصْطِفاف الدّورِ فيها كَطَرائقِ النّخْلِ. وأمّا المَأبور مِنَ النّخلِ فإنّه الذي قد لقحَ. وأمّا المُهرَة المَأمورة أو الفَرَسُ المأمورَة فإنها المكثّرةُ النّتوجُ الولود، وهو من التّكثير وانتشارِ الأمر أو الخبر، كما جاء في حديث أبي سفيانَ: «**لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ، إنّه لَيَخافُه ملِكُ بَني**

(١) البيتُ للنّابغَة: «الأغاني: ١١/٢٠».

(٢) سَبَقَ إيرادُ هذا الحَديث.

(٣) «مجمع الزوائد: ٥/٢٥٨»: «باب ما جاء في الخيل: عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ: «الحديث...»، رواه أحمد والطّبراني، ورجال أحمد ثِقاتٌ». وانظر: «سنن البيهقي الكبرى: ١٠/٦٤» .

الأصفرِ»[1]. وكانَ ينبَغي أنْ يَقولَ: مُهْرَةٌ مُـؤْمَرةٌ، فَقـالَ بَـدلاً منْهـا: «مَأمورَة» للازْدِواج، فزَاوَج بِها «مَأبورَة»، وجاءَ بِها لِمَكانِ أُخْتِها، عَلى وَزنِها، عَلى ما أنِسَ به مَن الإتْباعِ.

وفي حَديثٍ آخَرَ: «ارْجِعْنَ مَأْجورات غير مَأْزورات»[2]؛ وإنما هـو «مَوْزُورات» من الوِزْرِ، فقال: «مأزورات» عَلـى لفـظ «مـأجورات» لِـيَزْدَوِجا، كما قالت العرب: إنّي آتيه بالغدايا والعشايا، وإنما تُجْمَعُ الغَدَاةُ غَدَواتٍ فجاؤُوا بالغدايا على لفظ العشايا تزويجاً للفظين، ولها نظـائر[3]...

قالَ النّوويّ: «وهذا الإتباعُ كثيرٌ في كلامِ العربِ وهو من فصيحه، ومنـه قول النّبيّ ﷺ: «ارْجِعْنَ مَأْجوراتٍ...» أَتبعَ «مأزورات» «لِمـأجورات»، ولو أفردَ ولم يضمّ إليه «مأجورات» لقال «مَوْزورات»، كذا قاله الفـراءُ وجماعاتٌ، قالوا: ومنه قولُ العربِ «إنّي لآتيه بالغَدايا والعَـشايا» جمعـوا الغَداةَ على غَدايا إتباعا لعشايا، ولو أفردت لم يجز إلاغدوات»[4].

وقَد أدرَجَه النّحويّونَ تَحتَ قاعدةِ الجِوارِ، وهيَ «أنَّ الشَّيءَ يُعْطـى حُكْمَ الشَّيْءِ إذَا جاوَرَه»[5].

---

(1) «صحيح مسلم: ١٣٩٦/٣»، و«صحيح البخاري:٩/١»، و«صحيح ابن حبان: ٤٩٥/١٤».

(2) «شرح النووي على صحيح مسلم: ١٨٧/١».

(3) «غريب الحديث لابن سلام:٣٤٩/١»؛ و«الفائق: ١٨٩/٢»؛ و«لسان العرب: ٢٨/٤-٢٩»، و«موادّ البناء:٢١٦» لعليّ بنِ خلَف الكاتب.

(4) «شرح النوويّ... :١٨٧/١».

(5) انظر: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٨٩٤».

فالقياسُ يُخالفُ الإتباعَ؛ لأنّ الإتْباعَ والازْدِواجَ أمــرٌ صــوْتيٌّ يميــلُ بالعِبارةِ إلى تَحْصيلِ المُجانَسَةِ الصَّوْتِيَّةِ، وهي من القِيَمِ الجماليّةِ في الحَــديثِ النّبويّ، والمُشاكلةُ بينَ الألفاظِ من مَطْلوبِ العربِ، كَما ذكَرَ ابْــنُ يَعــيشَ والعسكريُّ[1]. وأكثرُ الأحاديثِ النّبويّةِ التي جاءَت مَسْجوعَةً، أو تــضمّنت بَعضَ السَّجْعِ، امْتازت عِباراتُها المسْجوعةُ بالاعْتِدالِ في مقــاطعِ الكــلامِ، وجاءتْ مَحْمولَةً على الطَّبعِ والسَّجيّةِ وعَدمِ التّكلُّفِ، أمّا سَجْعُ الكُهّــانِ فَهُو مُتَكَلَّفٌ مَذْمومٌ مَنْهِيٌّ عَنْه، وقَدْ أخْبَرَ عُمَرُ، رَضِيَ اللهُ عنه، عَنْ ذلــكَ فَقالَ: «نُهينا عَنِ التَّكَلُّفِ»[2].

ومِمّا وَرَدَ مَسْجــوعاً ما وَرَدَ في حَــديثِ المُغــيرَةِ بْنِ شُــعْبَةَ عَــنْ رَسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «**إنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقوقَ الأمَّهاتِ، ووَأْدَ البَنــاتِ، ومَنْعاً وهاتِ، وكَرِهَ لَكُمْ قيلَ وقالَ، وكَثْرَةَ السُّؤالِ، وإضاعَةَ المالِ**»[3].

هذا الحَديثُ البَليغُ يُعدُّ من جَوامِعِ الكَلِمِ، يَتألّفُ مِن كَلِماتٍ مَعْدوداتٍ تَسْتَحِقُّ أنْ تُشْرَحَ في تَصْنيفٍ قائمٍ بِذاتِه.

---

(١) «فيض القدير: ١/٤٧٣».

(٢) «صَحيح البُخاريّ: ٦/٢٦٥٩»: عَنْ أنَسٍ قالَ: كُنّا عِنْدَ عُمَرَ فَقالَ: نُهينا عَنِ التَّكَلُّفِ.

(٣) «صَحيح البُخاريّ: ٢/٨٤٧»: بابُ ما ينهى عن إضاعة المــال وقــول الله تعــالى: ﴿والله لا يحب الفساد﴾ و﴿لا يصلح عمل المفسدين﴾، وقال في قوله: ﴿أصَــلَوٰتكَ تأمُرُكَ أنْ نَترُكَ ما يَعبدُ آباؤنا أوْ أن نَفعلَ في أمْوالنا ما نَشاءُ﴾ وقالَ: ﴿ولا تُؤتــوا السُّفَهاءَ أمْوالَكُم﴾ والحجر في ذلك وما ينهــى عَــن الخِــداعِ. «صَــحيحُ مُــسلِم: ٣/١٣٤١»: بابُ النّهي عَن كَثْرةِ المسائلِ حاجة والنّهي عَن مَنعٍ وهاتٍ وهُوَ الامْتِناعُ مِنْ أداءِ حقٍّ لَزِمَه أو طَلَبَ ما لا يَستَحِقُّه.

مِنْ قَضايا الحَديثِ التَّحْريمُ والتَّحليلُ، وهُو حُكْمٌ شَرْعِيٌّ يَخْتَصُّ بِهِ الشّارِعُ الحَكيمُ، ويَدْخُلُ تَحْتَ التَّحْريمِ جُمْلَةٌ مِنَ المُحَرَّماتِ، وتَحْتَ الكَراهَةِ جُمْلَةٌ مِن المَكْروهاتِ، ولا أَحَدَ يَمْلِكُ حقَّ التّحليلِ والتَّحْريمِ إلاّ اللهُ سُبْحانَه وتَعالى؛ فَهُوَ الذي يُحِلُّ الطَّيِّباتِ ويُحَرِّمُ الخَبائثَ، ولا أَحَدَ مِنَ البَشَرِ يَملِكُ حَقَّ التّشريعِ في الدّينِ، لأنّه حَقٌّ مَحْضٌ للشّارِعِ الحَكيمِ، والعُلَماءُ يُحتَجُّ لأقْوالِهِم ولا يُحتَجُّ بأقْوالِهِم، يَقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النَّحْل:١١٦).

وفي الحَديثِ فَوائدُ بَلاغيّةٌ كَثيرَةٌ، منْها اللَّفُّ والنَّشْرُ، وهوَ ذِكْرُ مُتَعَدِّدٍ عَلى جهةِ الإجمالِ، ثمّ ذِكْرُ ما لكلّ واحدٍ من غَيرِ تَعيينٍ، ثقةً بأنّ السّامعَ يَرُدُّه إلَيه[1]، فاللَّفُّ في قَوْلِه «حَرَّمَ عَلَيْكُم» و«كَرِه لَكُمْ» والنّشرُ فيما بَعْدَهُما.

والعَدَدُ الوارِدُ في الحَديثِ «حَرَّمَ ثَلاثاً وكَرِه ثَلاثاً»[2] لا يَقْتَضي الحَصْرَ بالضَّرورَةِ؛ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَزّ وجَلَّ أشياءَ كَثيرةً كالشِّرْكِ والزِّنا والرِّبا والكَذِبِ والغِيبةِ والنَّميمَةِ... وإنَّما نُصَّ عَلى الثَّلاثَةِ في بَعْضِ الرِّواياتِ

(١) «الإيضاح في عُلومِ البلاغَة: ١/٣٣٢-٣٣٣».
(٢) هذه رِوايَةٌ أُخْرى للطَّبَرانيّ، وهِيَ: عَنِ المغيرةِ بنِ شُعبةَ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ حَرَّمَ ثَلاثاً: عُقوقَ الأمّهاتِ ووأْدَ البناتِ ومَنْعَ وهاتِ ونهى عَن قيل وقال وكَثْرةِ السُّؤالِ وإضاعَةِ المالِ «المُعْجَم الكَبير: ٢٠/٣٩٧»، قالَ عَلِيّ بْنُ أَبي بَكْرٍ الهَيْثَمِيّ: رَواه الطَّبَرانيّ ورِجالُه رِجالُ الصَّحيح «مَجْمَع الزَّوائد: ٨/١٤٧».

لأنّها مِنْ أبْرزِ المُحَرَّماتِ والمَكْروهاتِ، أو لِمُناسَبَةِ المَنْصوصِ عَلَيْهِ عَدداً لِسياقِ الوُرودِ[1].

وفي الحَديثِ سَجْعٌ مَحْمودٌ ورَدَ عَلى السَّجيَّة.

- **التَّجْنيس:**

التَّجنيسُ من التّجانُسِ، وهو التّماثُل[2]. **ويُسمّى الكلامُ مُجانسًا** لأنّ حروفَ ألفاظِه، يكونُ ترْكيبُها من جنسٍ واحدٍ. وحقيقتُه أنْ يكونَ اللّفظُ واحدًا والمعْنى مُخْتَلفًا[3]، وهو مِن ألطفِ مَجاري الكلام، ومِن مَحاسِنِ مَداخله **ويسَمّى هذا النّوعُ جناسًا**؛ لِما فيه من المُماثَلة اللّفظيّة[4].

والتّجْنيسُ منه الحَقيقيُّ أو التّامُّ، **وهو ما تَساوتْ** حُروفُ ألفاظِه في تَرْكيبِها ووَزْنِها، كَقَوله تَعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ (الرّوم:٥٥)، فلفظُ «السّاعة» واحدٌ، والمعنى مُختلِفٌ[5]. ومنه التّجْنيسُ المُشابهُ أوِ النّاقصُ، وهو أن تكونَ الحُروفُ

---

(١) انظر ما ورَدَ في شرحِ الحديثِ في كِتابِ: «فَتْح الباري: ٦٨/٥ و٤٠٦/١٠».

(٢) «الطّراز: ٣٥٥/٢» ليحيى بن حمزة العلوي، وعقدَ الثّعالبيّ في كتابه «الإعجاز والإيجاز: ٢٦» فصلاً لجَوامِعِ الكَلِمِ في «التّجنيس».

(٣) «المثَل السائر: ٢٦٢/١» وانظرْ بعضَ تَفاصيلِ التّجنيسِ في «المثل السّائر: ٢٦٢/١-٢٧٧».

(٤) «الطّراز: ٣٥٥/٢».

(٥) أوردَ ابْنُ مَنْظور في «لسان العرب: ١٢٧/٤» خبرًا ذكرَ فيه أنّ الصّحابةَ نازعوا عبدَ الله بنَ جرير البجَليّ زِمامَه، ونَسَبَ إلى النّبيّ ﷺ أنّه قال لهم: «خَلّوا بينَ جَريرٍ والجَرير» أي دَعوا له زِمامَه ، ولم أجد لهذا الخبرِ المنسوبِ إلى الحديث أصلاً في السّنّةِ، وما إخالُ إلاّ أنّه جيءَ به للاستِدْلالِ به على التّجْنيسِ في البلاغةِ النّبويّة.

متســاويةً في التّركيــب، مُختَلِــفةً في الوزن، كما في حَــديث عَبْد الله ابْنِ مَسْعود: «اللّهمَّ حسّنْتَ خَلْقي فحسِّنْ خُلُقي... »[1] تَساوتْ لفْظَتــا «الخَلْق» و«الخُلُق» في ترْكيبِ الحُروف، واخْتلَفَتا في الوزنِ.

وممّا تساوت ألفاظُه في الوزنِ واختَلَفت في التّركيــبِ، قولُــه ﷺ في حَديث عبدِ الله ابْنِ عُمَرَ: «الخيلُ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامة»[2].

وممّا اخْتلفتْ ألفاظُه في الوزنِ والتّركيبِ معًا، قولُه ﷺ: «ألا أخــبرُكم بالمؤمنِ؟: مَن أَمِنَه النّاسُ على أنفسِهم وأموالِهم، والمــسلمُ مَــن سَــلِمَ المسلمونَ من لسانه ويدِه، والمجاهدُ مَن جاهدَ نفسَه في طاعة الله، والمهاجرُ من هَجَرَ الخطايا والذّنوبَ»[3]. اخْتَلَفَت لفظَتا «المُؤْمِن» و«أَمِنَ»، ولَفْظَتا «المُسْلِم» و«سلِمَ»، وَزْنًا وترْكيبًا.

---

(1) «صحيح ابن حبان: ٣/٢٣٩»: «ذكر ما يستحب للمرء أن يسأل الله جل وعلا تحسين خلقه كما تفضل عليه بحسن صورته: أخبرنا أحمد بن علي ابن المثنى قال حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير قال حدثنا بن فضيل قال حدثنا عاصم عن عوسجة ابن الرماح عن عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن مسعود قال كان رسول الله ﷺ يقول: «اللّهمّ حسّنْتَ خَلْقي فحسِّنْ خلقي»، وانظر: «موارد الظمآن: ١/٦٠١».

(2) «صحيح مسلم: ٣/١٤٩٢»: «باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: حدثنا يحيى بن يحيى، قال: قرأت على مالك عن نافع عن بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الحديث...»، وانظر: «صحيح البخاري: ٣/١٠٤٧»: « باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

(3) «المستدرك على الصّحيحين: ١/٥٤»؛ وانظر: «صحيح البخاري: ١/١٣»: «باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»؛ وانظر: «صحيح مسلم: ١/٦٥-٦٦»، «صحيح ابن حبان: ١/٤٠٦»: «ذكر إطلاق اسم الإيمان على من أمنه الناس على أنفسهم وأملاكهم».

ومن الأحاديثِ ما تَساوتْ ألفاظُه في الوزْنِ والتّركيبِ؛ غيرَ أنّ تركيبَ الحروفِ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، قولُه ﷺ في فضْلِ تلاوةِ القُرْآن، كَما وَرَدَ في حديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو: «**يُقالُ لصاحبِ القرآنِ يومَ القيامةِ: اقرأْ وارْقَ ورَتِّلْ كَما كُنْتَ تُرَتِّلُ في دارِ الدّنْيا؛ فإنّ مَنْزِلَتَكَ عِندَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَؤُها**»[1]. استَوتْ لفظَتا «اقرأْ» و«ارْقَ»، في الوزْنِ والتّركيبِ، واختَلَفَتا في ترْتيبِ الحُروفِ.

- المُطابَقَةُ:

المُطابقةُ هي الجمْعُ بين الضِّدّيْنِ في كلامٍ أو بيتِ شعرٍ[2]. وهو، وإن كانَ من صِفاتِ المعاني، فإنّ له قيمَةً جماليّةً من حيثُ اللّفْظُ به في الكَلامِ، ويُقالُ له **التّضادُّ، والتّكافُؤُ، والطِّباقُ، والتّطبيقُ**[3]. وممّا وردَ منه في القُرْآنِ، قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا...﴾ (التّوبَة: ٨٢).

وأمّا ما وردَ منه في الشّعرِ، فكقولِ كُثيّر:

وعنْ نَجْلاءَ تَدْمَعُ في بياضٍ ... إذا دَمَعَتْ، وتنظرُ في سَوادِ[4]

---

(١) «صحيح ابن حبان: ٤٣/٣».

(٢) «العُمدة: ٢/٥-٧»، «إعجاز القرآن»، للباقِلاّني أبي بكرِ محمّدِ بنِ الطّيّب (ت.٤٠٣)، تح. السّيّد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط.٣.

(٣) «الطِّراز... : ٣٧٧/٢»، «موادّ البَيان: ٣٠٦-٣٠٨».

(٤) «العُمدَة: ٧/٢». وقبلَه: ويومَ الخَيلِ قَد سَفَرَتْ وكَفَّتْ ... رداءَ العَصبِ عَن رَتَلٍ بُرادِ
وذكر صاحبُ الأغاني أن هذه الأبياتَ من قصيدةٍ رثى فيها كُثيّر خَندَقاً الأسدي لمّا قُتِلَ بعرفَةَ «الأغاني: ٢٠٩/١٢». وعدّ ابنُ رشيقٍ البيتَ من مليحِ ما رآه في المُطابقَةِ، ومثلُه قولُ كُثيّر: ووالله ما قارَبْتُ إلاّ تَباعَدَت ... بصرمٍ ولا أكثرتُ إلاّ أقلّتِ.

أمّا ما وردَ في البَيانِ النّبويّ، فنحْو ما رُوِيَ عَنْه ﷺ، في بَعْضِ خُطَبِه:

«يا أيّها النّاسُ؛ إنّ لكم علِمًا فانتهوا إلى عِلْمِكم، وإنّ لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايَتكم؛ فإنّ المؤمنَ بينَ مخافتَيْنِ؛ بينَ أجَلٍ قد مَضى لا يَدْري كيفَ صَنعَ اللهُ فيه، وبينَ أجَلٍ قد بَقيَ لا يدري كيفَ اللهُ بصانعٍ فيه. فلْيتزَوّدِ المرءُ من نفْسِه لنفْسِه، ومن دُنياه لآخرتِه، ومنَ الشّبابِ قبلَ الهَرمِ، ومن الصّحةِ قبلَ السّقمِ؛ فإنّكم خُلقتم للآخرةِ، والدُّنيا خُلقَت لكم. والذي نَفْسي بيدِه ما بعدَ الموتِ من مُستَعتَبٍ، وما بعدَ الدّنيا دارٌ إلا الجَنّة أو النّار. وأستغفرُ اللهَ لي ولكم»[1].

في هذا الحديثِ كثيرٌ من الألفاظِ المُتَقابلةِ التي بينها مُطابَقةٌ، مثل «الدّنيا والآخرة»، و«الشّباب والهَرَم»، و«الصّحّة والسّقم»، و«الجنّة والنّار».

وبفضْلِ قيمةِ «الطّباق» بين الأضْداد، تترُكُ هذه المُقابَلاتُ في نفْسِ السّامعِ ضَرْبًا من المُوازَناتِ، التي تُنَبّهُ فيه ضَرورَةَ تَرْجيحِ إحْدى الجِهتَيْنِ على الأخرى ولُزومِها، قبلَ فَواتِ الأوان. وهذا مقْصدٌ معْنَويٌّ عَميقٌ من وراءِ الطّباقِ اللّفْظِيّ، يسْعى المتَكلّمُ إلى تَثْبيته في نفْسِ المُخاطَبِ وتَمْكينِه. والشّواهِدُ على ذلكَ منَ الحَديثِ النّبويّ كَثيرةٌ جدًّا، منها عَلى سَبيلِ المثالِ:

---

(١) «شعب الإيمان: ٧/٣٦٠»؛ ولنظر: «مسند الشهاب: ١/٤٢٥»؛ ولنظر: «الفردوس بمأثور الخطاب: ٣/٩٣، ٥/٢٧٨»، لأبي شجاع شيرويه الدّيلميّ الهمذانيّ (ت.٥٠٩)، تح. السّعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط.١ / ١٩٨٦م.

الحديثُ الذي أوردهُ الإمامُ مالكٌ، وهو حَديثُ ابْنِ عُمَرَ مرْفوعًا، وفيهِ نَظَرٌ:
«أيّها النّاس، قد آنَ لَكُمْ أنْ تَنتهوا عَنْ حُدودِ الله. مَنْ أصابَ مِنْ هـــذه القاذورات شَيْئًا فَلْيَستَترْ بِستْرِ الله؛ فإنَّه مَنْ يُبْدِ لَنا صَفْحَتَه نُقِـمْ عَلَيْــه كتابَ الله»[1].

وهــذا حَــديثٌ عَظيمٌ - وفيهِ نَظَرٌ[2] - فيه مِــنَ القِـيَمِ اللّفظيّــةِ والبَلاغيّةِ ما يُفْصِحُ عَن أنّ الجَهرَ بالمَعْصيةِ اسْــتخفافٌ بحَــقِّ الله ورَســوله وبِصالِحي المُؤمنينَ، ونَوعٌ مِنَ العِنادِ لهم. وفي الاسْتِتارِ بهــا الــسَّلامَةُ مِــن الاسْتخْفاف؛ لأنّ المَعاصي تذلّ أهلَها، ومِنْ إقــامَةِ الحَدِّ عَليه إنْ كانَ فيــه حَدٌّ، ومِنَ التَّعْزيرِ إنْ لَمْ يوجِبْ حدًّا. وإذا تَمَحَّضَ حقُّ الله فهــو أكْــرَمُ الأكْرَمين، ورَحْمَتُه سَبَقَت غَضَبَه، فَلذلكَ إذا سَتَرَه في الدّنيا لَمْ يَفْضَحْه في الآخرةِ، والذي يُجاهِرُ يَفوتُه جَميعُ ذلكَ.

---

(١) «موطأ مالك: ٨٢٥/٢»: «باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنــا»؛ «تأويــل مختلف الحديث: ١٩١/١».

(٢) في هذا الحَديثِ كَلامٌ : قالَ ابْنُ عَبدِ البرّ في حَديثِ مالك: «لا أعلمُ هذا الحديثَ أسندَ بوجهٍ من الوجوه»، ذَكَرَه في «التّلخيص» «٥٧/٤» وقالَ عَقِبَه: (تنبيه): لمّا ذَكَرَ إمامُ الحَرمينِ هذا الحــديثَ في (النّهاية) قــالَ: إنــه صَحيحٌ متفقٌ على صِحته. وتَعقَّبَــه ابنُ الصَّلاحِ فقالَ: هذا ممّا يَتَعَجَّبُ منه العارفُ بالحديثِ وله أشْباه بذلكَ كَثيرةٌ أوقَعَــه فيها اطِّراحُه صِناعَةَ الحَديثِ التي يَفتقِرُ إليها كُلُّ فَقيه عالِمٍ. «إرْواءُ الغَليلِ في تَخريجِ أحاديثِ مَنارِ السَّبيل: ٣٦٤/٧» محمّد ناصر الدّين الألباني، نَشر المكتب الإســلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥-١٩٨٥.

والقاذوراتُ جَمعُ قاذورَة، وهي كلُّ قَولٍ أو فعلٍ يُستَفْحَشُ أو يُستقْبَحُ، لكنّ المرادَ هُنا فاحشةُ الزّنا؛ لأنّه لَمّا رَجَمَ ماعزًا ذَكَرَه. وسُمّيَتْ قاذورَةً لأنّ حقّها أن تتقذّرَ، فوُصِفت بما يوصَفُ به صاحبُها. فمن ألَمَّ بمعصية فقارَبَها وواقعَها، فليَستَتِرْ بسترِ الله، وليَتُبْ إلى الله بالنّدمِ والإقلاعِ والعزمِ على عدمِ العَودِ؛ فإنه -أي الشأن- من يُبدِ لنا صفحتَه أي: يُظهِر جانبَ فعْله ووجهَه وناحيتَه مّما حقُّه الإخفاءُ والسّترُ، يُقَمْ عليه الحدُّ. وقدْ كنّى بإبْداء صفْحَة فعْلِه عن ثبوت موجبِ الحدّ. فيجبُ على المكلّفِ إذا ارتكبَ ما يوجبُ لله حدًّا السترُ على نفسِه والتّوبةُ، فإن أقَرَّ أُقيمَ عليه الحدُّ أو التعزيرُ. فمن ابتُلِيَ بشيْءٍ من هذه المعاصي المُستَقْذَرَة، فعليه أن يستتر[1].

وهكذا فقدْ كافأَ الحديثُ الاسْتِتارَ بإبْداء الصّفحة، وهذا المصْدرُ غيرُ مذكورٍ، ولكنّه مَفْهومٌ من الاسْتِتارِ، عن طريقِ المُقابَلَة والطّباق.

ومن ذلكَ حَديثُ: «خَيْرُ الْمالِ عَيْنٌ ساهِرَةٌ لِعَيْنٍ نائمَة»[2]. ومَعْناهُ عَيْنُ ماءٍ تَجْري لَيْلاً ونَهارًا وصاحبُها نائمٌ، استعار السّهرَ لعين الماءِ تشبيهًا لها بسهرِ عينِ الإنسانِ. ومنْ جَمالِ العبارةِ الجناسُ بين العينِ الجارحةِ والعينِ الجاريةِ، والمطابقةُ بينَ «السّاهرةِ» و«النّائمة».

---

(١) يُنظَرُ ما يتضمّنُه الحديثُ من فوائدَ ومستنبَطات: «فتح الباري:١٠/٤٨٧» و«فيض القدير:١/١٥٥»....

(٢) «صفوة الصفْوَة:١/٢٠٥»، بابُ ذِكْرِ فَصاحتِه ﷺ، لأبي الفَرَجِ عبْدِ الرّحْمنِ ابْنِ عليّ ابْنِ الْجَوْزِيّ (ت.٥٩٧)، تـ. مُحمّد فاخوري ومُحمّد رواس قلْعجي، دار المَعْرِفَة، بيْروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

ومثلُ ذلكَ حَـــديثُ عائشَةَ: «إنّ الرفقَ لا يكونُ في شيء إلا زانَــه ولا يُنــزَع من شـــيءٍ إلا شانَه»[1]، وفي رواية: «عليْك بـــالرِّفْقِ؛ فـــإنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيْءٍ إلاّ زانَه، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلاّ شانَه».

ويُؤيِّدُ هذا المعْنى مدْحُ النّبيِّ ﷺ للرّفقِ، فيما رُوِيَ عَنْه في قوله: «إنّ اللهَ رَفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ، ويُعطي عَلى الرِّفقِ ما لا يُعطي عَلى العُنف»[2]. والمَعنى أنّه يَتأتّى مَع الرّفـــقِ مِن الأمـــورِ ما لا يَتأتّى مَع ضِدّه، وإنّ اللهَ يُثيبُ عليه ما لا يُثيبُ على غَيره، والأوّلُ أوْجَهُ. وقوله في حديث شُريح بنِ هانئ: إنّ «الرِّفْقَ لا يَكونُ في شَيءٍ إلاّ زانَه، ولا يُنْزَعُ من شَـــيءٍ إلا شـــانَه». وفي حَديثِ أبي الدَّرْداء: «مَنْ أُعْطِيَ حظَّه مِنَ الرِّفقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّـــه مِـــنَ الخَيرِ»، أخرَجَه التِّرْمذيّ وصَحَّحَه، وابنُ خُزَيْمَةَ، وفي حَــــديثِ جَريـــرٍ، مُسْلم: «مَن يُحرَم الرِّفقَ يُحْرَم الخَيرَ كلَّه»[3]. و«زانَه» أي زيَّنَه وكَمَّلَـــه، و«لا نُزِعَ» أي لم يُفْقَدْ ولم يُعدَمْ مِنْ شَيْءٍ «إلا شانَه» أي عيَّبَه ونقَـــصَه، و«شانَه» مِنَ الشَّيْنِ بمَعنى العَيب[4].

---

(١) «صحيح مسلم: ٢٠٠٤/٤»؛ وانظر أيضًا «صحيح ابن حبان: ٣١٠/٢».

(٢) «صحيح مسلم: ٢٠٠٣/٤»: باب فضل الرفق: حدثنا حرملـــة بن يحيى التجيبي أخبرنـــا عبد الله بن وهب أخبرني حيوة حدثني ابن الهاد عن أبي بكر بن حزم عن عمرة يعني بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشةُ، إنّ الله رفيـــق يحبُّ الرفقَ ويعطي على الرفقِ ما لا يُعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه».

(٣) «صحيح مســـلم: ٢٠٠٣/٤»: باب فضل الرفق: حـــدثنا محمد بن المثنى حدثني يحيـــى ابن سعيد عن سفيان حدثنا منصور عن تميم بن سلمة عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير عن النبي ﷺ قال: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحرَمِ الخيرَ»، وانظر أيضاً: «فتح الباري: ٤٤٩/١٠».

(٤) «عون المعبود: ١١٢/٧، ١١٣/١٣».

عليكِ يا عائشةُ بالرِّفقِ، أي بلِينِ الجانبِ والاقتصادِ في جميعِ الأمورِ والأخذِ بأيسرِ الوجوهِ وأقربِها وأحسنِها؛ «فإن الرِّفقَ لا يكون»، أي لا يوجَدُ -وكان تامّةٌ لا ناقصةٌ- في شيء «إلاّ زانَه»؛ إذ هو سببٌ لكلِّ خيرٍ. «ولا يُنزع من شيء إلا شانه» أي عابَه. قاله لها وقد ركِبتْ بعيرًا فيه صعوبةٌ، فجعَلَت تَرُدُّه وتَضرِبُه. والجارُّ «في شيءٍ» متعلِّق به، ويحتملُ أن تكون «كانَ» ناقصةً و«في شيءٍ» خبرها، والاستثناء مفرَّغ من أعمّ، وفيه وصفٌ لشيءٍ؛ أي لا يكونُ الرِّفقُ مستترًا في شيءٍ يتّصفُ بصفةٍ من الأوصافِ إلا بصفةِ الزِّينة، والشّيءُ عامٌّ في الأعراضِ والذّواتِ[1].

عَلَيكِ يا عائشةُ بالرِّفقِ، وإيّاكِ والعُنفَ، أي الشّدّةَ والمَشقّة. أي احْذَري العُنفَ؛ فإنّ كُلَّ ما في الرِّفقِ مِنَ الخَيرِ، فَفي العُنفِ مِنَ الشّرِّ مثلُه. وهذا حثٌّ عَلى التّخلُّقِ بالرِّفقِ وذمٌّ العُنفِ.

وقدْ أُخرِجَ هذا المعنى العظيمُ، الذي يأمرُ فيه بالرِّفقِ وينْهى عن العُنْفِ، مخرَجًا لفظيًّا بليغًا جمعَ بينَ الإيجازِ، وبين الجَمْعِ في الكَلِمِ، أي الاستِقْصاءِ لكلِّ ما يصْدُقُ عليه، بألفاظِ العُمومِ مثل «لا يكونُ في شيءٍ» و«لا يُنـزَعُ من شيْءٍ»... وبينَ أُسْلوبِ المُوازَنة بين أمريْنِ مُتَضادَّيْن، يُطْلَبُ أحْسَنُهما ويُدْفعُ أشرُّهما، وهو المُطابقةُ أو التّكافُؤ بينَ «لا يكونُ ولا يُنزَعُ» ثمّ بين «زانَه وشانَه».

---

(١) «فيض القدير: ٤/٣٣٤».

- **أُسْلوبُ الافْتتاحات والمَبادئ:**

يُعدُّ مُفْتَتَحُ الكَلامِ البليغِ رُكْناً من أرْكانِ البلاغة، وحَقيقَتُه آيلةٌ إلى أنّه «ينبغي لكلّ من تصدّى لَمقصد من المَقاصد، وأرادَ شَرحَه بكَلامٍ، أن يكونَ مُفْتَتَحُ كَلامه ملائمًا لذلكَ المقصد ودالاً عليه»[1].

ومن بلاغة الافْتتاحِ والمَبدأ في البيانِ النّبويّ الكريمِ ما رواهُ البيْهقيّ في سُنَنه الكُبْرى، قالَ: «حَدَّثنا أبو بَكْرٍ مُحَمّدُ بنُ الحَسَنِ بْنِ فَوْرَك أنبأ عَبْدُ الله ابْنُ جَعْفَر ثنا يونُسُ بْنُ حَبيب ثنا أبو داوُدَ الطّيالسيّ ثنا شُعْبَةُ ثنا أبو إسْحاقَ قالَ: سَمعْتُ أبا عُبَيْدَةَ بْنَ عَبْد الله يُحَدّثُ عَنْ أبيه قالَ : عَلّمَنا رَسولُ الله ﷺ خطبةَ الحَاجَة: «**الحَمدُ لله -أو إنّ الحمدَ لله- نَسْتَعينُه ونَسْتَغْفرُه ونَعوذُ بالله منْ شُرورِ أنْفُسنا وسَيئات أعْمالنا. مَنْ يَهْده الله فَلا مُضلَّ لَه، ومَنْ يُضْلل الله فَلا هاديَ لَه. أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسولُه. ثُمَّ تقرأُ ثلاثَ آياتٍ من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢)، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النّساء:١)، و﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۞ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ (الأحزاب:٧٠-٧١)، ثم تَتَكَلَّمُ بحاجَتكَ**»[2].

فهذه **الكَلماتُ الجوامعُ للخيْرِ**، كانَ يذكُرُها النّبيّ ﷺ، عنْد مُفْتَتحِ الأمورِ، إذا أرادَ حاجةً من الحَوائجِ من زَواجٍ أو مَوعظةٍ أو فَصْلٍ في قَضيّةٍ

---

(١) «الطّراز: ٢/٢٦٦».

(٢) «سنن البيهقي الكبرى:٧/١٤٦»، و«مسند أبي عوانة:٣/٤٤»، و«سنن الترمذي:٣/٤١٣»، و«شرح النووي على صحيح مسلم:٦/١٦٠».

أو غَيرِ ذلكَ مِن سائرِ الحاجاتِ. وقد بَنى مَقالَه عَلى افْتتاحٍ مُناسبٍ لمَقاماتٍ عدّة، وصارَ هذا الاخْتيارُ مُلائمًا للمَطْلوبِ مِن جَميعِ الأفعــالِ المَطلوبــةِ؛ فافْتَتَحَ بالتّعْريفِ والإقرارِ باسْتحْقاقِ الحمْدِ والثّناءِ لله في كلِّ الأحوالِ، مــن غيرِ اختِصاصِ وقتٍ دونَ وقتٍ. ثمّ أردفَه بتجديدِ الحَمدِ في مستقْبلِ الزّمــانِ وحالِه؛ فبدأ لفظَ الحمدِ بالاسْمِ؛ ليدلَّ به على الثّبوتِ والاسْتقْرارِ. ثمّ أردفَه بالحمدِ بالفعلِ المضارِعِ؛ وذلكَ ليدلَّ به على التّجدُّدِ والاسْتمرارِ. ثمّ عقّــبَ بذكرِ الاستعانةِ لَمّا كانَ محتاجًا إليها في كلِّ الأفعالِ، لأنّها المَدَدُ والــسّنَدُ، واللُّطْفُ الخفيُّ من جهةِ المُستَعانِ به... ثمّ أردفَ بالاستعاذةِ مــن شــرورِ النّفْسِ؛ لأنَّ فيها الضّررَ الجسيمَ للنّفوسِ، بِما هيَ مطبوعةٌ على أنّها أمّــارَةٌ بالسّوءِ في كلِّ أحوالِها. ثمّ عقّبَ بالاسْتعاذةِ من السّيّئاتِ؛ فإنّهــا مِغْــلاقٌ للخيرِ مِفْتاحٌ للشّرِّ...

«فمن أجلِ هذه المُناسبة جعَلَ هذا الدُّعاءَ ديباجةً لكلِّ مَطلوبٍ؛ لما اختصَّ من المُلاءمَــةِ بما يُذْكَرُ بَعدَه»[1]، وهُوَ مِنَ الكَلامِ الذي «لَمْ يَسْبقْه إليه عَرَبيٌّ، لَمْ يُشارِكْه فيه عَجَميٌّ، ولَمْ يُدَّعَ لأحد، ممّا صارَ مُسْتَعْمَلاً ومَثَلاً سائراً»[2].

ومن بَلاغةِ الاسْتهلالِ أيضًا، افْتتاحُه ﷺ في الدُّعاءِ لأبي سَــلَمَةَ عنــدَ مَوتِه؛ قالَت أمُّ سَلَمَةَ: «دَخَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ عَلى أبي سَلَمَةَ، وقد شَقَّ بَصَره فأغمَضه، ثمّ قالَ: «**إنّ الرّوحَ إذا قُبِضَ تَبعَه البَصرُ**» فَضَجَّ ناسٌ مِنْ أهلِــه فَقالَ: «**لا تَدْعوا عَلى أنفُســكم إلا بخَــيرٍ؛ فإنَّ المَلائــكةَ يؤَمِّنون عَلى ما تَقولونَ**»، ثُمَّ قالَ: «**اللهمَّ اغْفرْ لأبي سَلَمَةَ، وارفعْ درجتَه في المَهديّين،**

---

(١) «الطّراز: ٢/٢٧٠-٢٧١».
(٢) «البَيان والتّبيين: ٢/١٦».

واخلُفْه في عقبه في الغابِرين، واغفرْ لنا ولَه يا ربَّ العالَمين، وأفْسِحْ لَه في قَبْرِه، ونَوِّرْ له فيه»[1].

وهذا شاهدٌ على مُناسبة هذا الافْتتاحِ للحالة الَّتي حصَلَ فيها، فافْتتحَه ﷺ بذكْرِ المُهمِّ الذي يَفْتَقرُ إليه المَيِّتُ المَدْعُوُّ لَه، مِن رَفعِ الدَّرَجةِ في الآخرةِ، ثمّ أرْدَفَهُ بذِكْرِ ما يُؤْثِرُه هذا المَدعُوُّ له مِنْ صَلاحِ حالِ عَقِبِه مِن بَعدِه في الدّنيا، ثمّ خَتَمَه بالجَمعِ بَينَ الدّاعي والمَدعوِّ له.

- نَموذَجٌ تطبيقيٌّ لتَحليلِ بَلاغَةِ النّصِّ الحَديثيِّ:

وأختِمُ هذا القسمَ المُتَعَلِّقَ بنَماذِجَ تَحْليليّةٍ مِن جَوامِعِ الكَلِمِ في نُصوصِ الحَديثِ، بعرْضٍ لأوْجُه بلاغيّة مُنَوَّعَة، في حَديثِ مُعاذ بْنِ جبلٍ، مُسْتَفيدًا في ذلكَ ومسْتَرْشِدًا بطريقَةِ البلاغيِّ شَرفِ الدّينِ حُسين بْنِ محمّد الطِّيبيِّ (ت.٧٤٣) في كِتابه «التِّبْيان في عِلم المَعاني والبَديع والبَيان»، الّذي خَتمَه بشَرحِ الحَديثِ المَذكورِ، شرْحًا وافيًا مُسْتَفيضًا، بلغَ ستَّ عَشرَةَ صفْحَةً. أجْمَلَ فيه ما سبقَ أن فصّلَ فيه من أوجُهِ المَعاني والبَيانِ والبَديعِ والفَصاحةِ، داخِلَ الكتابِ؛ وذلك ليكونَ هذا الشّرْحُ للحديثِ كالفِهْرِسِ لهذه الفُنونِ والمُرْشِدِ في التّطبيقِ[2]:

---

(١) «صحيح مسلم: ٢/٦٣٤»: «باب في إغماض الميت والدعاء له: حدثني زهير ابن حرب حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن قبيصة بن ذؤيب عن أم سلمة...»، «المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم: ٣/٨»، «فضائل الصحابة: ١/٥٤» لأبي عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط.١ / ١٤٠٥هـ.

(٢) «التبْيان في عِلم المَعاني والبديع والبيان: من ص:٥٢٤ إلى ص:٥٤٠».

عَن مُعاذِ بنِ جَبلٍ، رَضي الله عَنه، قال:

«بَيْنَما نَحنُ مَعَ رَسول الله ﷺ في غَزْوة تَبوكَ، وقَد أصابَنا الحَرُّ فَتفَرَّقَ القَـــومُ حَتّى نَظرْتُ فإذا رَسولُ الله ﷺ أقربُهُم منّي، فدَنَوتُ منه فقُـــلتُ: يا رَسولَ الله، أنبئني بعَملٍ يُدْخلُني الجَنّةَ ويُباعدُني من النّار. قالَ: **لقَدْ سألتَ عَن عَظيمٍ، وإنَّه ليَسيرٌ على مَن يسَّرَه الله عَليه؛ تَعبُدُ الله ولا تُشركُ به شَيئاً، وتُقيمُ الصَّلاةَ المَكتوبةَ، وتُؤتي الزَّكاةَ المَفروضةَ، وتَصومُ رَمضانَ. قالَ: وإن شئتَ أنبأتُكَ بأبْواب الجَنّة،** قُلْتُ: أجَلْ يا رَسولَ الله. قالَ: **الصَّومُ جُنّـــةٌ، والصّدَقَةُ تُكفِّرُ الخَطيئةَ، وقِيامُ الرّجلِ في جَوف اللّيلِ يَبتَغي وجهَ الله.** قالَ: ثُمّ قَرأ هـــذه الآيَـــةَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السَّجْدَة:١٦). قال: **وإنْ شئْتَ ألبأتُكَ برَأسِ الأمرِ وعَمودِه وذِرْوة سَنامه.** قالَ: قُلتُ: أجلْ يا رَسولَ الله. قـــالَ: **أمّا رَأسُ الأمرِ فالإسْلامُ، وأمّا عَمودُه فالصّلاةُ، وأمّا ذِروةُ سَنامه فالجِهادُ في سَبيلِ الله، وإنْ شئْتَ أنبأتُكَ بمِلاك ذلكَ كلّه،** فسَكَتَ فـــإذا راكِبـــان يُوضِعان[1] قبلَنا، فَخَشيـــتُ أن يَشْغَلاه عَنْ حـــاجَتي، قالَ: فَقُلتُ: ما هُوَ يا رَسولَ الله؟ قال: فأهْوى بإصْبَعِـــه إلى فيه، قالَ: فقُلتُ: يا رَســـولَ الله، وإنّا لَنُؤاخَذُ بمـــا نَقولُ بألْسنَتنا؟ قـــالَ: **ثَكلَتْكَ أمُّك يا مُعاذُ، وهلْ يَكُبُّ النّاسَ عَلى مَناخِرِهمْ في جَهَنّمَ إلا حَصائدُ ألسنَتِهمْ»**[2].

---

(١) أوضَعَ الرّاكِبُ سارَ بين القَوم ، وهو من الإيضاع وهو السّيْرُ بينَ القَومِ ، وهو أيضاً نوعٌ من السّيرِ مثل الخَبَبِ «لسان العرب: ٣٩٨/٨ مادّة/وضع».

(٢) المستدرك على الصحيحين: ٧/٢: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين».

هذا أنموذَجٌ من الأحاديثِ الجامعة، التي جَمَعَتْ بَينَ مَزايا عَديدةٍ في أبوابٍ بَلاغيّةٍ شتّى، وجهاتٍ كثيرةٍ في **المَعاني والبَيانِ والبَديع**:

فمِنْ حَيثُ المَعاني: أُخرِجَ الإسنادُ في قولِه «تعْبُد اللهَ...» مَخرجَ الجملةِ الابْتدائيّةِ؛ حيثُ كانَ مُعاذ خاليَ الذّهنِ، وإن كانَ هو السّائل. وفي قولِه: «**لقد سألْتني عن عظيمٍ، وإنّه لَيسيرٌ على مَن يسَّرَه اللهُ عليه**» أخرجَ مَخرَجَ الجملةِ الإنكاريّةِ؛ لِما رأى في السّائلِ من الإنكارِ. وفي قولِه: «**الصّومُ جُنّةٌ**» إثباتٌ للمُبْتدَأ، وفي قولِه: «**تَعْبُدُ اللهَ**» تَرْكٌ لَه، والتّقديرُ: أنْ تَعْبُدَ اللهَ. وقولُه: «يُدْخِلُني...» صفةٌ لعمل، وهي إمّا صفةٌ مُخَصَّصةٌ، أي: مطْلوبي عَمَلٌ هذه صِفتُه، أو مادِحَةٌ، أي عمل مَحْمود. وفي قولِه: «يا رسولَ اللهِ» إضافة تشْريف. وفي قولِه: «رأس الأمرِ» إضافة مجازيّة. وفي قولِه: «**ثكلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذ**» تَنْبيهٌ وقرْعُ عَصا. والإشارةُ في قولِه: «**مِلاكُ ذلكَ كلِّه**» إشارةٌ إلى مذكورٍ، وهو قريبٌ والإشارةُ هنا لتعظيمه. أمّا الإشارةُ في: «كفَّ عليكَ هذا» فَلمَزيدِ الاهْتمامِ والتّعْيينِ. والتّنكيرُ في قولِه: «بعملٍ» دالٌّ على الإفرادِ نَوْعًا، والتّنكيرُ في قولِه: «**عظيم**» دالٌّ على التّعظيمِ، وفي «**يسير**» دالّ على التّقْليلِ.

أمّا قولُه: «**الصّومُ جُنّة**» فهو جُملةٌ اسْميّةٌ بسيطةٌ وردَ فيها المُسْنَدُ إليه معرِفةً، والمُسْنَد دالاً على الثّبوتِ، أمّا المسْنَدُ الفعلُ في قولِه: «**الصّدقةُ تُطفِئُ الخطيئةَ**» فإنّه يدلُّ على تقويةِ الفعلِ وأنّ حُصولِ إطفاءِ الخطيئة مُحَقّقٌ...

أمّا قولُه: «**وهل يكُبُّ النّاسَ على مَناخِرِهم في جهنّم...**» ففيه قصْرٌ؛ حيثُ قُصِرَ المفعولُ به «النّاس» على الفاعلِ «حصائد» قصْرَ قَلْب.

أمّا قولُه: «سألتني عن عظيمٍ» ففيه إيجاز تقْديرٍ، أي سألْتني عن مسْؤولٍ عظيمٍ بالغٍ في العَظَمَةِ مُتَناهٍ في الفَخامةِ، أمّا قولُه: «كفّ عليك هذا» ففيه إيجازٌ جامعٌ؛ فإنّه من الجوامعِ؛ لأنّ المسؤولَ عنه أحدُ شطري الإسلامِ...

أمّا قولُه: «أخبِرْني بعملٍ...» ففيه إطنابٌ محمودٌ يقتضيه المقامُ ويدْعو إليه؛ وذلِكَ أنّ مطلوبَ معاذٍ لَمّا كانَ من الوسائلِ العظيمةِ، فإنّ الرّسولَ ﷺ استهلّ الجوابَ وافْتَتَحَه ومهّد له بمقدِّمةٍ نبّه فيها على فخامةِ المسؤولِ، بأن أكّدَها تأكيدًا بليغًا وعظّمَها غايةَ التّعظيمِ، وهكذا كلّما قصدَ أن يُجيبَ عن سؤالٍ جعلَ له تمهيدًا أو توطئةً؛ ليُمكّنَه في الذّهنِ ويوطّنَه فيه. ومن الإطْنابِ المَحمودِ إعادةُ ألفاظٍ مُتَقارِبةٍ في المعنى، نحو «رأْسُ الأمْرِ وعمودُه وذِرْوَةُ سَنامِه»؛ لأنّ المقامَ مقامُ إرشادٍ يدعو إلى الإطنابِ.

أمّا قولُه: «أخبِرْني...» فظاهرُه أمرٌ، ولكنّه اسْتدْعاءٌ وطلبٌ. وقولُه: «كُفّ عليك...» فهو أمرُ تنزيهٍ، وأمّا قولُه: «تعبُد اللهَ...» ففيه عُدولٌ عن الأمرِ الصّريحِ، لفائدةِ الإخبارِ عن المأمورِ به، إظهارًا للحِرْصِ بوقوعِه...

وآخرُ دَعْوانا أن الحمْد لله رَبِّ العالَمين.

وصلّى الله على محمّد وآلِه وصحْبِه، وسلّمَ تسْليماً.

الفهرس

وكـــــلاء التـــوزيـــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــــر	دار الثقافــــــــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــــرين	مكتبـــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــــت	مكتبة دار المنـــار الإســلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبــــة علــــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ -٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤ – صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦ – الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــــع والترجمـــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦ – الرباط
الجزائـــــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة – الجزائر
إنكلتـــــرا	دار الرعايـــــة الإســــلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:
www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail
M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء،

تطرح موضوعها لعام ٢٠١٢م

« فقه التغيير وبناء الأمة الوسط »

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٢م

- **مدخل:**

مفهوم الأمة؛ مفهوم التغيير؛ تعريف الأمة الوسط؛ الوظيفة الحضارية للأمة الوسط؛ أبعاد الشهود الحضاري (الشهادة على الناس وهدايتهم إلى الخير)..

- **المحاور:**

- **عوامل تشكيل الأمم:** لمحة تاريخية؛ متطلبات بناء أمة الرسالة؛ التغيير بين الأمة والدولة؛ العقيدة والسياسة في حقبة العولمة.
- **سنة التغيير:** سنن المدافعة والصراع بين الخير والشر؛ التغيير بين ذهنية الاستحالة وذهنية السهولة؛ مشروعية التغيير؛ أسباب ودواعي التغيير؛ التغيير إنتاج نخبة وإنجاز أمة.
- **فقه تغيير المنكر:** وسائل التغيير؛ آداب وضوابط التغيير؛ أبعاد منهجية التغيير؛ منهج النبوة في التغيير.
- **إعادة البناء ومرتكزات النهوض:** مقومات البناء (الإمكان الحضاري)؛ حركات التغيير والإصلاح وعبرتها؛ توفير شروط وظروف الميلاد الأول (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها)؛ عقبات وتحديات على طريق التغيير: استراتيجية وشروط النهوض.
- **رؤية مستقبلية لمعاودة بناء الأمة الوسط.**

قيمة الجائزة (١٧٥) ألف ريال قطري

• شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠.٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨ - تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(+٩٧٤)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islam.gov.qa